المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى بمكة المكرمة

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

قسم التاريخ



زواج السلاطين العثمانيين من الأجنبيات وأثـــره في إضعاف الدولـــة

بحث مقدم لإكمال متطلبات درجة الماجستير في التاريخ الحديث

إعـــداد

الطـالـب: محمـد أحمـد محمـد الثقفـــي

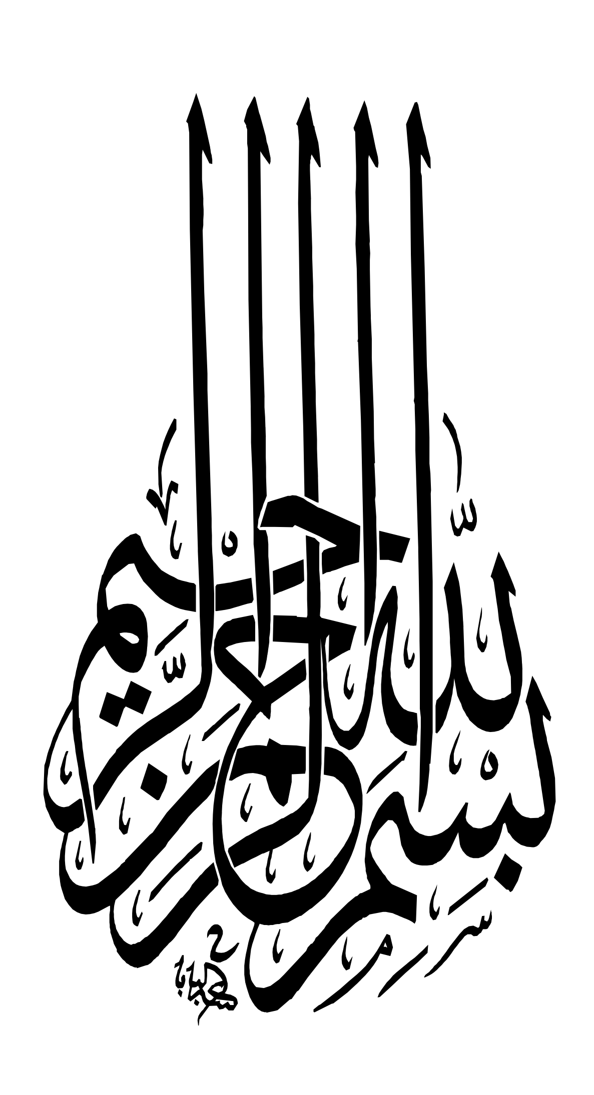
إشــراف

الأستـاذ الدكتـور: يوسـف علـي رابـع الثقفـــي

العـــام الدراســـي: ١٤٣١ ــ ١٤٣٢ هـــ (الفصل الثاني)

زواج السلاطين العثمانيين

من الأجنبيات وأثره في إضعاف الدولة


بسم الله الرحمن الرحيم

..إهداء..

أهـــدي ثمـــرة جهـــدي في هـــذا العمـــل
إلى الـــوالـــد الـــكـــريـــم رحـمـه الله
وإلى والـــدتي العزيـــزة حفظهـا الله
..اللذين شمـــلاني بـــرعـــايتهما وحبهما..
فلهما مني كـــل الشـــكـــر
كما يحب ربنـــا تعـــالى وكمـــا أمـــر سبحـــانه:

﴿ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ ﴾

إلى زوجتـــي الغاليـــة التـــي ساعـــدتنـــي
كثيـــراً وتحملـــت الأعبـــاء مـــن أجـــل
تفرّغـــي لهـــذه الدراســـة والقيـــام بهـــا
عـــلى أكمـــل وجـــه، ولـــم تدخـــر
جهـــداً مـــن أجـــل ذلك فلـهـــا منـــي
كـــلّ العرفـــانِ والتقـــديـــر

محمد الثقفي

المقدمة

مقدمة

الحمد لله، حمداً كثيرا طيباً مباركاً فيه، وصلى الله على نبيه الأمين، محمد ﷺ، الذي حمل إلينا وحيه وأداه إلينا كاملا، مبينا لا عوج فيه، فعلّمنا به من الجهالة وهدانا به من الضلالة، وجمعنا به من الفرقة، وجعل لنا في الدنيا والآخرة، مكانا لا تنكره الأمم.

وبعد، فإن الدولة العثمانية كما هو معروف، قد عاشت أوج مجدها في عهد السلطان سليمان القانوني، وأصبحت دولة عالمية تمتد حدودها في ثلاث قارات، آسيا وأوروبا وإفريقيا، بل إنه يمكن القول بأن أوروبا قد عرفت الدولة العثمانية وقوتها جيدا من خلال عصر السلطان سليمان بصفة خاصة.

وجدير بالذكر أن فتوحات سليم الأول وبايزيد الثاني قد جعلت السلطان سليمان في مكانة استراتيجية ليصبح منافساً بلا منازع في الشرق والغرب.

ولقد تمكن السلطان سليمان القانوني من إرساء دعائم نهضة الدولة العثمانية خلال عهده فأصبح هذا القرن بمثابة العهد الذهبي للدولة العثمانية.

ومما يلفت الانتباه أن أوروبا بأسرها بدأت تحوِّل أنظارها نحو العثمانيين في عهد هذا السلطان العظيم، ولقبته في كتبها باسم التركي العظيم الرائع.

ولكن هيهات أن يدوم ذلك التقدم والرقي فقد ظهرت عوامل كان لها عميق الأثر في تدهور الدولة، وكان من بينها عامل: زواج السلاطين العثمانيين من الأجنبيات، بداية من عهد السلطان سليمان القانوني عندما تدخلت زوجته روكسلانا الروسية، أو خورم سلطان، في الحكم، وأصبح لها نفوذ، بل ونافست حفصة سلطان، أم السلطان سليمان القانوني، في أمور الحكم، ونتج عن ذلك دخول أجناس أجنبية في البلاط العثماني، مثل إبراهيم باشا، ورستم باشا، إلى آخره.

ولا شك أن الاضطراب والتدهور الذي حدث في شئون الدولة العثمانية كان من أسبابه المباشرة - مع عوامل أخري - تدخل النساء الأجنبيات من زوجات

وأمهات السلاطين، في شئون الحكم، وعندما نتابع الأحداث بهذا الشأن نجد أنفسنا لا نستطيع التفريق بين إبراهيم باشا والسلطان سليمان، رغم المسافة الكافية للتفريق بين العبد وسيده.

ومن ثم فإننا بهذه الطريقة قد خرجنا بثمرة تكمن في أن أجناسا أجنبية مثل حفصة خاتون الألمانية الأصل، وخورم سلطان الروسية الأصل، وغيرهما قد تسببوا في تدهور أحوال الحكم في الدولة العثمانية، مما أدى في النهاية إلى ظهور العنصر الأجنبي في الدواوين العثمانية، وما كان لذلك من آثار سلبية أسهمت في تقلص نفوذ الدولة تدريجيا، ومن ثمّ سقوطها في النهاية.

ونضع نصب أعيننا كهدف لهذه الدراسة:

- الوقوف على مدى قوة الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني، وإلقاء الضوء عن كثب على نهضة الدولة في تلك الفترة.
- معرفة أسباب دخول الأجنبيات القصرَ العثماني، وكيفية زواج السلاطين بهنّ.
- توضيح العوامل التي أسهمت في وصول الزواج من الأجنبيات للقصر العثماني وانخراطهن بالبلاط وإعطاء نماذج منهنّ.
- توضيح دور الزوجات الأجنبيات وأمهات السلاطين في انحطاط الدولة العثمانية، سواء بتدخلها المباشر في شئون الحكم، أو عن طريق أتباعها من الأجانب.
- بيان آثار تلك الزيجات في السياسة الخارجية للدولة، ومن ثمّ انحطاطها.

بعد التشاور مع سعادة المشرف على اختيار الموضوع قمت بالبحث في المكتبات الجامعية وأقسام التاريخ؛ فلم أعثر على كُتب ولا بحوث عن الزواج من الأجنبيات كعامل من عوامل سقوط الدولة العثمانية، لا على شكل رسالة علمية أو تأليف، ولهذا سيكون هذا البحث بعون الله تعالى، إضافة جديدة على شكل رسالة علمية.

اعتمدت في هذه الرسالة على عدد من أمهات كتب التاريخ عن الدولة العثمانية، باللغات التركية، والإنجليزية، والفرنسية، والعربية، وعددا آخر من المراجع التي أشرت إليها في آخر البحث مع ملاحق هذه الدراسة.

خطة البحث التى جرت هذه الدراسة عليها فهي مكونة من مقدمة، وتمهيد، وتمت مناقشة المواضيع ومعالجتها وتقسيمها الى ثلاثة فصول، يشتمل كل فصل على مباحث، على النحو التالي:

- **مقدمة**: وتشمل دراسة عن الموضوع، وأهميته، وأهم الخطوط العريضة والمصادر التي سيتم تناول الدراسة من خلالها.
- **التمهيد**: ويشتمل على توطئة للدخول في موضوع الدراسة، في فقرتين:
  - أوضاع الدولة العثمانية قبيل عهد السلطان سليمان القانوني.
  - التعريف بالأجنبية.
- **الفصل الأول**: دور المرأة في الحياة العامة خلال العصر العثماني، ويشتمل على أربعة مباحث:
  1. المبحث الأول: دورها في الحياة السياسية.
  2. المبحث الثاني: دورها في الحياة الاجتماعية.
  3. المبحث الثالث: دورها في الحياة الاقتصادية.
  4. المبحث الرابع: دورها في الحياة الدينية.
- **الفصل الثاني**: زواج السلاطين العثمانيين من الأجنبيات، ويشتمل على مبحثين:
  1. المبحث الأول: دوافع الزواج من الأجنبيات.
  2. المبحث الثاني: نماذج من زيجات السلاطين.
- **الفصل الثالث**: أثر الزواج من الأجنبيات على الدولة العثمانية، ويحتوي على ثلاثة مباحث:
  1. المبحث الأول: أثرهنَّ على السلاطين وتدخلهن في شئون الحكم.

٢. المبحث الثاني: الصراع بين الزوجات الأجنبيات

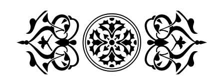
٣. المبحث الثالث: ظهور مجموعة من الأجانب في البلاط العثماني، مثل: رستم باشا، إبراهيم باشا...

- **الخاتمة**: وتشمل موجزا عن أهم النتائج والمستخلصات مما أوردناه في الفصول السابقة.
- **ملاحق مختلفة**: وتشمل قائمة مراجع الدراسة، و فهارس، وبعض المعلومات المختلفة المهمة، كأسماء السلاطين وزوجاتهم، وخرائط وصور توضيحية.

وفي هذه المقدمة لا يمكنني إلا أن أشكر المشرف على هذه الرسالة، الأستاذ الدكتور يوسف علي الثقفي، وأذكر الجهد الكبير الذي قدمه لي من خلال توجيهاته وإرشاداته التي لم يكن هذا البحث ليرى النور لولاها، فله مني كل العرفان بالجميل، كما لن أنسى كافة منسوبي كلية الشريعة، وعلى رأسهم فضيلة الدكتور سعود الشريم، عميد الكلية، وقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية سابقاً برئاسة سعادة الدكتور عبد الله بن حسين الشنبري، وقسم التاريخ برئاسة سعادة الدكتور طلال البركاتي، فلهم ولكل من ساهم معي في إنجاز هذا العمل جزيل الشكر التقدير..

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل...

محمد أحمد الثقفي



التمهيد

- أوضاع الدولة العثمانية قبيل السلطان سليمان القانوني.
- التعريف بالأجنبية.

أولاً: أوضاع الدولة العثمانية
قبيل عهد السلطان سليمان القانوني

عندما نتحدث عن أوضاع الدولة العثمانية قبيل فترة السلطان سليمان القانوني، فإنه لا بدّ أن نذكر في ذلك وصول الدولة إلى مستوى رفيع في سياستها الداخلية والخارجية؛ لتصبح فيما بعد من أكبر الدول التي عرفها العالم، وأبهرت المؤرخين والكتاب، وعرفت فترات من المدّ والجزر، حافظت في جميعها على هيبتها وقوتها رغم الهزات الداخلية والخارجية(١).

غير أن فتح القسطنطينية – اسطنبول حالياً – كان نقطة فارقة في خط التاريخ العثماني، فقد بشّر ذلك الفتح بصورة قطعية بأن العثمانيين سائرون في طريق الدولة العظمى، ومثَّل هذا الفتح نهاية القرون الوسطى وبداية القرون الحديثة في عُرف الغرب والأوربيين، ولم يكن أقل شأنا عند عامة الشعب العثماني، حيث استقبلوه بتبجيل كبير، وأطلقوا عليه اسم «فتح مبين»، وكان سرور العالم الإسلامي بالفتح كبيرا، وتناقله المسلمون وتبادلوا التهاني، وأقيمت الاحتفالات(٢).

وقد افتتح السلطان محمد الثاني، الذي عرف بالفاتح(٣) القسطنطينية عام «٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣م»، وحاصرها العثمانيون براً وبحراً واشترك في الحصار من الجنود البحرية ٢٠,٠٠٠ جندي على ٤٠٠ سفينة، أما القوات البرية فكانت ٨٠,٠٠٠ جندي، والمدفعية ٢٠٠ مدفع(٤).

---

١). يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، ١٤٠٨ هـ، جـ١ صـ ٤٩.

٢). يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ، مرجع سابق، صـ ١٤٢.

٣). لقب الفاتح أيضاً بأبى الخيرات، وتسلم الحكم بعد أبيه مراد، السابع في سلسلة آل عثمان. انظر: إسماعيل سرهنك، تاريخ سلاطين وخلفاء الدولة العثمانية (سلاطين آل عثمان) في كتاب حقائق الأخبار عن دول البحار عام ١٨٩٥م، صـ ٥٩.

٤). محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، المركز المصري للدراسات العثمانية– القاهرة: ١٤١٤ هـ. صـ ٤٩.

اتخذ الفاتح من القسطنطينية قاعدة لكل الأراضي التي كانت تخضع للأباطرة في الماضي فقام بإعادة بنائها، وحثَّ سكانها الفارين بالعودة إليها مرة أخرى[١].

وتمثلت سياسة الفاتح بعد فتح القسطنطينية في ما يلى:

• إطلاق سراح الأسرى فوراً نظير مقابل مادي قليل، يسدد على أقساط طويلة المدى.

• إسكان الأسرى الذين غنمهم في المنازل الواقعة على ساحل الخليج.

• أمر الفاتح في أثناء الحرب، ألا تغتصب امرأة، ولا يمسّ عجوز، ولا طفل، ولا راهب بأذى، ولا تهدم كنيسة ولا صومعة ولا دير، مع أن المدينة أخذت عنوة بالحرب ورفضت التسليم[٢].

• اعترف الفاتح لليهود بملكيتهم لأديرتهم كاملة، وأنعم عليهم بالعطايا وعلى الحاخامات.

• عين الفاتح في عام: «٨٦٥ هـ / ١٤٦١م» للجماعات الأرمينية بطريقاً يدعى «يواكيم» ليشرف على مصالح الأرمن ويوحد صفوفهم[٣].

• أعاد الفاتح للأرثوذكس كرامتهم التي أهدرها اللاتين الكاثوليك، بأن أعطاهم حق انتخاب رئيس لهم يمثلهم ويشرف على شئونهم، وأصبح «سكولاريوس» أول بطريق لهم بعد الفتح العثماني للقسطنطينية.

---

١). أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، ط٢، القاهرة، عام ١٩٩٣م، صـ ٦٧.

٢). كان من حق الفاتح أن يأخذ المدينة عنوة، وكان من حقه تحويل نصف الكنائس والأديرة وعلى مدى زمنى طويل إلى جوامع ومساجد، وترك النصف الآخر لشعب القسطنطينية على ما هو عليه، وفى وقفيات السلطان محمد الفاتح أمر على بقاء الأديرة والكنائس مثل: أديرة جوطاليجا وأياوليبس وكيرا ماتوا والكس في يد البيزنطيين. انظر: محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، صـ ٥٣.

٣). على محمد الصلابى، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، مكتبة الإيمان، المنصورة، صـ ١٥٢.

• جعل الفاتح مسائل الأحوال الشخصية مثل: الزواج والطلاق والميراث، وأمور الوفاة الخاصة بأهل المدينة المفتوحة من حق الجماعات الدينية المختصة، وكان هذا امتياز منعدم النظير في أوروبا في ذلك الوقت[1].

وفى مجال الفتوحات قام الفاتح بفتح بلاد الصرب عام: ٨٦٤ هـ/ ١٤٦٠ م، وفتح بلاد المورة[2] عام «٨٦٦ هـ / ١٤٦٢م»، وضم بلاد الأفلاق[3]«٨٦٧ هـ/ ١٤٦٣م –/ ٨٨٣ هـ/ ١٤٧٩م» ، وفتح بلاد ألبانيا: «٨٨٠ هـ/ ١٤٧٦م» وحارب المجر، ومنذ حرب المجر إلى وفاة الفاتح عام: «٨٨٦ هـ/ ١٤٨١م» دخلت الدولة العثمانية في حروب كثيرة منها ضم أوترانتوا عام: «٨٨٥ هـ/ ١٤٨٠م»، وأعد جيشاً لمحاربة المماليك إلا أن الموت عاجله[4].

تولى بعد الفاتح السلطان بايزيد الثاني: «٨٨٦ هـ/ ١٤٨١م»[5]، وفى عهده بدأت علاقات العثمانيين مع الروس، وعقدت معاهدة بين العثمانيين ومملكة بولونيا، وإقامة علاقة بينهما، كما عقدت معاهدة مع كل من المجر في «٩٠٩ هـ/ ١٥٠٣م» وفرنسا، وانجلترا، وأسبانيا، والبرتغال، ونابولي، ورودس[6].

وفى أخر أيام حكم بايزيد أضرم أولاده الحروب الداخلية ضده، ومن بينهم السلطان سليم الأول الذي سار إلى أدرنة، وشك في مقدرة والده على التصدي

---

١). يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان، مجلد ١، مؤسسة فيصل، تركيا، اسطنبول عام ١٩٨٨م، صـ ٢١٤.

٢). الاسم القديم لليونان.

٣). الجزء الجنوبي من رومانيا الحالية. انظر الخرائط في الملاحق.

٤). محمد حرب، الدولة العثمانية، موسوعة سفير في التاريخ الإسلامى، مجلد ٩، القاهرة عام ١٩٩٦م، صـ ٢٧.

٥). بايزيد الثاني: هو ثامن سلاطين آل عثمان، كان حاكما بأماسيا Amasya وقد كان ميالاً للسلم أكثر منه للحرب، واضطرته الظروف لخوض الحروب، وأولها: حروب داخلية حيث قام بمحاربة أخيه الأمير (جم) أكثر من مرة بسبب التنافس على السلطة، وكان الأمير جم أحق بالعرش منه بسبب كفاءته. انظر: إسماعيل سرهنك، مرجع سابق، صـ ٨٠.

٦). يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، صـ ٢٠٠.

للدولة الصفوية، فقام بانقلاب على والده بمساعدة قوات الإنكشارية[1]، الذين طلبوا من السلطان بايزيد التنازل عن العرش لابنه سليم، وتوفى بايزيد عام «٩١٨ هـ / ١٥١٢م»، وقد كانت حروبه كلها اضطرارية نظراً لميله للسلم[2].

تولى السلطنة بعد بايزيد السلطان سليم الأول: «٩١٨ هـ / ١٥١٢م»، وقد واجه تحديات كثيرة تتصل بورثة العرش استطاع حسمها، أدرك سليم الأول أن هناك مخاطر هائلة يمكن أن تصيب الدولة بسبب النشاط الشيعي في منطقة الأناضول؛ فقام بالتصدي للشيعة، واستطاع أن يحقق نصراً حاسما على الصفويين، واستولى على عاصمتهم تبريز[3]، وقد حال خطر الصفويين دون تحقيق مواصلة الفتح الإسلامي في الأناضول، وفي بلاد التركستان الذي كان يدور بخاطره. وفي

(١) كلمة بالتركية وتعني الجنود الجدد وهي فرقة عسكرية من المشاة في الجيش العثماني كانوا أقوى فرق الجيش، ولا يعرف على وجه الدقة وقت ظهور هذه الفرقة، وقد أظهر الانكشارية بسالة في ميادين الجهاد وعزيمة قوية تدلّ على حسن إسلامهم، وتوقهم إلى الشهادة، وكان الجهاد في سبيل الله تعالى هو الغاية وراء إنشاء هذا الجيش، قبل أن تتدخل عوامل كثيرة في ضعفه معنويا وماديا. انظر المزيد في كتاب: إيرينا بيتروسيان، الانكشاريون في الامبراطورية العثمانية، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث - دبي - ١٤٢٧/ ٢٠٠٦ - الطبعة الأولى. وكتاب: أماني بنت جعفر الغازي، دور الانكشارية في ضعف الدولة العثمانية دار القاهرة، ط ١، القاهرة.

٢). محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مطبعة التقدم، القاهرة، ١٩١٢م، صـ ٧٢.

٣). اكتسب السلطان سليم شرعية ولاية العهد من كفاءته الحربية، وقناعة الجيش من أنه الوحيد القادر على مواجهد المدّ الصفوي، وما كان يسمى بالمصيبة الصفوية، الماحقة الماردة، فبعد أن استتب له الأمر وقضى على منافسيه الداخليين من إخوة وغيرهم بدأ حملته الهمايونية نحو إيران التي استمرت في الفترة من: (٢٣/ ١/ ٩٢٠ هـ ٢٠/ ٣/ ١٤١٥ م - وحتى ٢٩/ ٥/ ٩٢١ هـ ١١/ ٧/ ١٥١٥ هـ)، وانتصر فيها على الصفويين في معركة جالديران التاريخية في ٢/ ٧/ ٩٢٠ هـ ٢٣/ ٨/ ١٥١٤ م، حيث كان الجيش الصفوي معسكرا منذ فترة، وكان النصر حاسما؛ إذ كان سيؤدي خلافه إلى تهديد خطير للدولة العثمانية قد يقضي عليها نهائيا لصالح المدّ الشيعي، وكان الجيشان متكافآن مائة ألف في كل طرف، مع وحداته الممتازة ، ويقود كل جيشه سلطانه، أدى الاستبسال العثماني وتفوق جيشه في المدفعية والتجهيزات إلى هزيمة الصفويين، وفر الشاه إسماعيل، بعد أن أصيب، إلى المناطق الداخلية من إيران، مع قناعته بعدم إمكانية الدفاع عن العاصمة تبريز التي لا تبعد كثيرا عن صحراء جالدران، وأقام السلطان سليم يومين في ساحة الحرب ثم دخل تبريز، ونقل معه سرادق الشاه وعرشه وخزينته التي تضم أكبر الماسات العالمية إلى الحوزة العثمانية. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، (١/ ٢١٨).

تلك الفترة كان المغرب العربي ينتظر منقذا يخلصه من الاعتداء الصليبي، كما كان المشرق العربي ينتظر منقذا له من جبروت الدولة المملوكية، وتمثل هذا المنقذ في الدولة العثمانية التي كانت تسعى لتحقيق وحدة إسلامية في العالم، وكان علماء حلب يستنهضون عدالة السلطان العثماني؛ كي يأتي وينقذ مصر من المماليك وظلمهم ويدخلها تحت كنفه؛ فقام السلطان سليم بالحملة على مصر، وكان الجيش العثماني مزوداً بالمدافع المتقدمة التي استخدمت لأول مرة وانتصر السلطان سليم الأول على المماليك في مرج دابق عام: «٩٢٢ هـ / ١٥١٦م»، ودخل الشام ووصل إلى القدس الشريف وصلى بالمسجد الأقصى. ثم سار نحو القاهرة وانتصر على المماليك في معركة الريدانية[١]، وقد كان السلطان سليم الأول يخطط لمواجهة أوروبا في منطقة الهند والشرق الأقصى، لكنه مات قبل أن يحقق ذلك[٢].

ثم جاء السلطان سليمان القانوني: «٩٢٦ هـ/ ١٥٢٠م – ٩٧٤ هـ / ١٥٦٦م»[٣]، واتسعت الدولة في عهده، حيث شملت الأحساء وعدن والعراق،

---

١). كان انتصار سليم على الصفويين حافزا له للاستيلاء على الأراضي التابعة للماليك وإخضاعهم، فما تقدم الجيش العثماني عبر الأناضول حتى تسارع كبار القادة والموظفين في حلب إلى إرسال رسائل سرية لكسب ود السلطان سليم، وهو ما جعله يعزم على أمره بعد أن علم بتقدم الجيوش المملوكية نحو الأناضول، ولم تصمد جيوش المماليك فقد انهارت في طرفة عين عند المعركة الفاصلة في مرج الدابق في (٢٥/ ٧/ ٩٢٢ هـ، ٢٤ /٨/ ١٥١٦ م)، وقتل السلطان قانصوه الغوري، ودخل سليم حلب وحماة ودمشق تحت ترحيب السكان والقادة المحليين، واستطاع ضم سوريا كلها، وخضعت له، ثم واصل الزحف نحو القاهرة، فقد اختار المماليك في مصر سلطانا جديدا بعد الغوري هو طومان باي، وكان طموحا جسورا، حصّن القاهرة واستعد للمواجهة، وخطط لتكوين جيش جديد لمواجهة سليم، وهزيمته ثم مطاردته في الصحراء، ومن ثم استرداد سوريا بالكامل، لكنه مني بهزيمة ساحقة أمام الأسلحة النارية المتطورة للعثمانيين في معركة الريدانية – بقرب القاهرة – بتاريخ: (٢٨/ ١٢/ ٩٢٢ هـ، ٢٢/ ١/ ١٥١٧م)، وبعد دخول القاهرة ألقي القبض على السلطان طومان باي وقتل شنقا على باب زويلة، وبذلك استقر الحكم للعثمانيين على مجمل البقاع الإسلامية. أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني: صـ ٨٥.

٢). يلماز أوزتونا، مرجع سابق، صـ ٢٦٤.

٣). ولد سليمان القانوني في مدينة (طرابزون) كان والده آنذاك والياً عليها، اهتم به والده اهتماماً عظيما، فنشأ محباً للعلم والأدباء والفقهاء، واشتهر منذ شبابه بالجدية والوقار، ارتقى عرش السلطنة في السادسة والعشرين من عمره، وكان متأنيا في جميع شؤونه ولا يتعجل في الأعمال التي يريد تنفيذها، بل كان يفكر بعمق ثم يقرر، وإذا اتخذ قراراً لا يرجع عنه. تولى السلطان سليمان القانوني عرش الدولة العثمانية بعد

وتوحدت بلاد العالم الإسلامي من الجزائر غرباً حتى الخليج العربي شرقاً، ومن حلب شمالاً إلى خليج عدن وبحر العرب جنوباً، ثم وجه قواته إلى الهند وقام بمحاربة البرتغاليين حتى لا يستولوا على البلاد الإسلامية.

مثَّل عهد القانوني أوج قوة الدولة وهيبتها، ولو أنه لم يكن العهد الذي وصلت فيه الدولة إلى أقصى اتساعها، إنما كان العهد الذي تمت فيه إدارة أعظم دولة بأرقى شكل إداري، إن الحدود القصوى تحققت بعد ٢٥ سنة من وفاته في السنوات الأخيرة من عهد حفيده مراد الثالث(١).

وهكذا يمكن اعتبار سليمان أعظم شخصية في التاريخ العثماني، ففي عهده وصلت الدولة العلية في إبان مجدها وازدهار عظمتها لأوج قوتها برا وبحرا، وكانت ممالكها تُحدّ شرقا بالحدود الهندية، وغربا بالمحيط الأطلسي، وتعطيها أربع دول كبيرة كألمانيا، وروسيا، وبولونيا، والبندقية الجزيةَ والضريبة، ودخلت فرنسا كذلك تحت حمايتها(٢)، في الوقت الذي اتصف فيه عاهلها بالتعقل والعدل والكرم

موت والده السلطان سليم الأول، وكانت سنة تولية سليمان عام (٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م) وحكم الدولة العثمانية مدة ٤٦ سنة، وهي أطول مدة حكم فيها سلطان عثماني، كان عهد القانوني قمة العهود العثمانية، سواء في الحركة الجهادية، أو العلمية، أو في الناحية الأدبية، أو المعمارية، كان هذا السلطان يؤثر في السياسة الأوروبية تأثيراً عظيماً، وبمعنى أوضح كان هو القوة العظمى دولياً في زمنه، نعمت الدولة الإسلامية العثمانية في عهده بالرخاء والطمأنينة، تربى على يد معلميه ومؤدبيه: داية خاتون: ولها مسجد وقبر في إيواء سراي، وجامع في محمود باشا، وهي مؤدبته ومربيته قبل أن يصبح ولياً للعهد، ومن معلميه : كفاية هذاى: وهو شاعر ومعلم، ومن معلميه أيضاً: سنان باشا، ولقد أصبح فيما بعد وزيراً في عهده، وأمر بتشييد جامع وعاش في سلانيك، وكان معلما للسلطان ومؤدباً له على مدى ولايته للعهد، ومن معلميه جراء زاده قاسم باشا الذي أصبح الوزير الرابع عند اعتلائه العرش، وأيضاً وفينسون زاده محمد رئيس المعلمين، ومن معلمى القانوني مصلح الدين مصطفى خورى، وفنارى زاده محسن الدين أفندى، وقد عمل الأخير مأذونا ومدرسا، ودفن بمسجد له عند قاسم باشا. انظر: محمد فريد، صـ ٧٩. ومحمد حرب، العثمانيون، مرجع سابق، صـ ٦٤ ، ٦٥.

١). يلماز أوزتونا، مرجع سابق، صـ ٢٥٧.

٢). المصدر السابق، صـ ٢٥٤.

والذكاء، وأجرى الكثير من الإصلاحات الهامة(١)؛ إذ لم يعرف القانوني بهذا اللقب أو هذه النسبة، لوضعه رزمة القوانين «قانون نامة» التي أصدرها، والتي لم تعارض أسس مذهبه الحنفي، بل لتطبيقه هذه القوانين بعدالة، والألقاب التي أطلقها عليه الأوروبيون المعاصرين له وغيرهم، مثل «الكبير» و«العظيم» تعتبر قليلة الأهمية بقياسها بلقب «القانوني الذي يمثل العدالة، التي هي أساس الملك، كما يقال(٢).

ومات السلطان سليمان القانوني في ساحة الحرب في حملته الهمايونية(٣)، حملة سيجتوار، وهي قلعة ألمانية، سقطت بعد خمس ساعات من وفاته، في ساعات الصباح الأولى من يوم السبت ٢١/ ٢/ ٩٧٤ هـ، ٧/ ٩/ ١٥٦٦م(٤).

كذلك شهدت الدولة العثمانية قبيل عهد السلطان سليمان القانوني اهتماما بالغا بالعلم والثقافة، وظهر ذلك من خلال السلاطين أنفسهم، فحينما افتتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية عبّر عن فرحته بوجود الشيخ آق شمس الدين(٥) معلمه بجانبه وفى زمانه، فقال: ما فرحت بهذا الفتح، وإنما فرحي من وجود مثل هذا الرجل في زماني (٦).

كان السلطان الفاتح محباً للعلوم يجيد العربية والفارسية إلى جانب التركية واللاتينية واليونانية والسلافية والعبرية، وله ديوان شعر، وكان حامياً للحركة الأدبية في عهده ليس فقط في آل عثمان بل في العالم الإسلامي كله، كان الفاتح

---

١). جمال عبد الهادي وآخرون، أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، الوفاء للطباعة، المنصورة، عام ١٩٩٤م، صـ ٦٤، محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، صـ ٦٩.

٢). يلماز أوزتونا، مرجع سابق، صـ ٢٥٥.

٣) الهمايوني: هي كلمة تعظيم خاصة بالسلاطين العثمانيين، وكانت تستخدم مضافة للمتعلقات الخاصة بسلاطين الدولة العثمانية. انظر المراجع في الملاحق.

٤). أحـمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق ط ٢، ٤١٠٦ هـ: صـ ١٠٠ .

٥). هو محمد بن حمزة الشهير بآق شمس الدين ابن الشيخ شهاب الدين السهروردي، لقب بشمس الملة والدين، أصله من دمشق، أحد أعيان علماء الدولة العثمانية، حضر فتح القسطنطينية مع محمد الفاتح. انظر: أحمد بن مصطفى بن خليل طاشكبري زاده، الشقائق النعمانية في علماء الدوله العثمانيه، دار الكتاب العربي، بيروت: صـ ١٣٨.

٦). محمد حرب، العثمانيون، مرجع سابق، صـ ٤٧.

يحضر بنفسه امتحان العلماء والفقهاء المستعدين للترقي في الدرجات العلمية السامية وقد أعلى من شأن العلم كثيراً وعضده، ومن أهم أعماله تحويل كنيسة «آيا صوفيا» إلى مسجد، وتشييد المدارس، والمكتبات والتكايا[١] والمؤسسات الخيرية، بحيث أصبحت اسطنبول أبرز مركز ثقافي في العالم في ذلك الوقت[٢].

وعرف عن بايزيد الثاني حبه للعلوم الأدبية، وسماه بعض مؤرخي الترك بـبايزيد الصوفي[٣]، وكان السلطان سليم رجلاً واسع الثقافة، قارئاً، شاعراً عالماً. وكان يذهب إلى أهل التكايا من حين إلى آخر، واهتم ببناء التكايا لكي يعلموا الناس العلوم الدينية، وبنى الكثير من المدارس[٤].

وكان السلطان سليمان القانوني ومن بعده، كثيري الاهتمام بالنواحي العلمية والأدبية والمعمارية ، وبلغت الأمة في عصره قمة التمكين في الأرض، ونعمت بالرخاء والطمأنينة، وتولي شئون الأمة بتوجيهات مكتوبة إلى أمة الإسلام متوَّجة بالآيات القرآنية، والنصائح التي تبين فضل العدل وعاقبة الظلم، وكان السلطان يستهل خطاباته بالآية الشريفة: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[٥]، وقد خصص وظائف للمدرسين والطلبة، وصرف لهم مرتبات من الأوقاف، كما جدّد عمارة الحجرة النبوية، وأرسل منبراً من الرخام إلى الكعبة[٦].

اهتم العثمانيون بالعلم، وجعلوا العلماء في مقدمة الهيئات الثلاث الرئيسية في الدولة وهي:

---

١). التكايا: هي دور مخصصة لأهل التصوف يقيمون فيها لا يغادرونها، يتفرغون فيها، للعبادة والتأمل. انظر: محمد رواس قلعجي – حامد صادق قنيبي، معجم لغة الفقهاء، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨، صـ: ٢١٩،

٢). محمد حرب، العثمانيون، مرجع سابق، صـ ٢٩.

٣). إسماعيل سرهنك، مرجع سابق، صـ ٨٠.

٤). نيقولاي ايفانوف، الفتح العثماني، ترجمة يوسف عطا الله، دار الفارابى، بيروت، ١٩٨٨م، صـ ٣٢.

٥). سورة النمل: ٣٠.

٦). جمال عبد الهادى وآخرون، مرجع سابق، صـ ٥٥، وانظر محمد فريد، مرجع سابق، صـ ٧٩.

- **الهيئة العلمية**: نسبة إلى العلم، ويقصد بها فئة العلماء، ويقودها شيخ الإسلام.
- **الهيئة السيفية**: نسبة إلى السيف، ويقصد بها الجيش والأمور العسكرية.
- **الهيئة القلمية**: ويقصد بها القائمون على تسيير الأمور في الدوائر الحكومية[1].

ويرجع اهتمام العثمانيين باللغة العربية والعلوم الإسلامية، والثقافية إلى عهد عثمان الأول – مؤسس الدولة العثمانية، ولكن أسلوب التعليم في الفترة قبيل سليمان القانوني ظلّ على هذا المنوال وازدادت المدارس، وكان أسلوب التعليم يتم على شكل حلقات في المساجد، وكانت المدارس الدينية تغذى مساجد القرى والمدن والزوايا بالأئمة والخطباء والوعاظ والحفاظ والمرشدين والمشايخ. وكان هذا النوع من المدارس كثيراً. حتى كان في عهد الفاتح مئات المدارس في الدولة تضم آلاف الطلاب[2].

وكانت اللغة العربية تستخدم في الكتابات المدونة على جدران المنازل والمساجد والمقابر، وكانت المصنفات الخاصة بالشريعة الإسلامية وعلوم الدين تدون بالعربية، كما كانوا يستخدمون بحور الشعر العربي[3].

وعن مناهج التعليم كانت اللغة العربية تشمل تدريس النحو والصرف أمثال كتب أساس التصريف لشمس الدين الفناري، والشافية لابن الحاجب، والمقصود لأبى حنيفة النعمان، وألفية ابن مالك، وقطر الندى لابن هشام، وكتاب الإعراب عند عقائد الإعراب، والمصباح للترمذي[4]، وفى الفقه كتاب الوقاية لبرهان الشريعة، ومختصر القدوري لأحمد بن محمد القدروي البغدادي، ومنار الأنوار للنسفي، ومختصر ابن الحاجب، وفى العقائد: كتب القاضي الإيجي، وكتاب

---

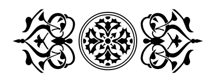
١). سليم نزهت، تاريخ الطباعة في تركيا، ترجمة سهيل صابان، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، عام ١٩٩٣م، جـ ٢، صـ ٤١.

٢). محمد عزة دروزة، تركيا الحديثة، مطبعة الكشاف، بيروت، عام ١٩٤٦م، صـ ٧٢.

٣). سليم نزهت، مرجع سابق، صـ ٤١.

٤). محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، صـ ٣١٥، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩.

الطحاوي، وفى علم الكلام: تدريس تجريد الكلام للطوسي والمواقف للإيجي، وفى علوم البلاغة: كتاب الغزة في المنطلق للشريف نور الدين بن محمد السيد الشريف الجرجانى، وكتاب المشمسية، هذا بخلاف تدريس علوم القرآن من تجويد وتفسير، وعلوم الحديث، والجغرافيا، واللغة الفارسية، والكتابة والنحو التركي(١).



١). عثمان أركن، تاريخ التربية التركية، صـ ٦١٤، ٦١٥، نقلاً عن محمد حرب، السلطان عبد الحميد، دار القلم، دمشق، ١٩٩٠م، صـ ٢٠١.

ثانياً: تعريف الأجنبية

تطلق كلمة «الأجنبي» في اللغة على البعيد منك في القرابة، ويقال: هو أجنبي عن هذا الأمر، أي: لا تَعلُّق له به ولا معرفة، ورجل أَجْنَب وأجنبي ، والاسم: الجنبة والجنابة، قال الشاعر:

إذا ما رأوني مقبلاً عن جَنابةٍ يقولون من هذا وقد عرفوني

وقول ثعلب: جَذْباً كجذب صاحب الجَنابَة، فسَّره فقال: يعنى الأَجْنَبَىّ، والجنب: الغريب، وجَنَب فلان في بني فلان تجنب جنابة، إذا نزل فيهم غريباً، فهو جانب، والجمع جناب، ومن ثم قيل: رجل جانب، أي: غريب، ورجل جنب بمعنى غريب، والجمع أجناب[1].

وفى حديث الضحاك أنه قال لجارية: هل من مغرِّبة خبر؟ قال: على جانبٍ الخبرُ، أي: على الغريب القادم، ويقال: نعم القول هو لجار الجنابة: أى: لجار الغربة. والجنابة: ضد القرابة، و قول علقمة بن عبدة[2]:

وفى كل حي قد خبطت بنعمة فحق لشأيين من نداك ذنوب
فلا تحرمني نائلاً عن جنابة فإني امرؤ وسط القباب غريب

وقال الأنباري: وقولهم رجل أَجْنَبِيٌّ، معناه غريب ليست بينه وبين المذكور قرابة، يقال: رجل جُنُبٌ وجانب وأجنبي، إذا كانت هذه صفته، ويقال: ما يزورنا فلان إلا عن جَنابة، يراد: عن بعد، وكذلك قيل للغريب: أجنبي لبعده عن وطنه، وقال الله عز وجل: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[3]، أي:

---

1) جمال الدين محمد بن منظور، لسان العرب، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، ط3، عام 1994م، مادة (جنب)، صـ 277.

2) المصدر نفسه، صـ 277.

3) سورة القصص: 11.

عن بعد[١]، وقال عز وجل: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾[٢]، فالمراد بالجُنب ما وصفناه، أي: غير ذي القرابة[٣]. وفي الصحاح: ورجل أجنبي، و أَجْنَبُ، و جُنُبٌ، و جَانِبٌ، كله بمعنىً[٤].

وكلمة: «أجنبي» كلمة شائعة الاستخدام في أيامنا هذه، فلا يكاد يُستعمل غيرها مما هو مرادف لها، رغم أنها لم تكن كذلك في أيام عزّ اللغة والفصاحة، قال الأزهري: كلام العرب: رجل أجْنَبُ، وجَانِب، وجُنُب، ولا تكاد تقول: رجل أجْنَبِيّ[٥]. ولعل العجمة التي أتى بها الجنُبُ- أو الأجنبُ، أو قل: الأجنبيُّ، لنفهم جميعا- معه هي التي ساهمت في نشر الكلمة الأقل فصاحة «أجنبي» وشيوعها، ومفارقة المفردة الأكثر فصاحة واستعمالاً، والقرآن الكريم خير شاهد!

والأجنبية مؤنث الأجنبي، فهي من كانت غريبة عن الشخص وليست من دياره وقومه، بل أتت من مكان آخر، والأجنبية في العرف الفقهي هي غير ذات المحرم. وفي الاصطلاح المدني الحديث يعرف «الأجنبيّ» أو «الأجنبيّة» بأنه من لا يتمتع بجنسية الدولة، وجمعها: أَجَانب[٦].

وفى حديثنا عن زوجات السلاطين فإن «الأجنبيّة» تعنى من كانت من غير دولة الترك بأن كانت من المجر أو النمسا أو الصرب،... ، وغيرها، أو كانت جارية وقعت في الأسر من جنسيات أخرى، ومن العرف أن يطلق على المرأة التي ليست

١) الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ: (١٩/ ٥٣٢).

٢). سورة النساء: ٣٦.

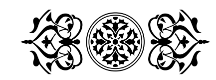
٣). أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس: (جـ ٢/ صـ ٢٤٤)، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢، الطبعة : الأولى، تحقيق : حاتم صالح الضامن.

٤). إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح في اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ٣٩٩ هـ الطبعة ثانية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار. جـ١ صـ ١٠١.

٥). أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ١٥، الطبعة : الأولى، تحقيق : محمد عوض مرعب: (جـ ٥ / صـ ١٤٢).

٦) المعجم الوجيز، مادتها: جنب، ط ١٩٩٤ م، ص ـ ١١٩.

على دين الإسلام أجنبية. ومن المفهوم أن الأجنبية نقصد بها في هذه الدراسة: المسيحيات أو الكتابيات عموما اللاتي كنّ من غير الأتراك، أو من غير رعايا الدولة العثمانية بصفة أعمّ. وبالنظر إلى الجذور الأجنبية لأمهات السلاطين فإنه لا يمكننا تحديد جذور معظمهن، وبينما كانت هؤلاء أميرات تركيات وشراكسة في البداية أصبحن جوارٍ لا يُعرف جذور معظمهن بمرور الزمن، ونظراً لأن هذه الجذور الأجنبية لم يتسنّ معرفة أصلها فقد اختلطت دماءها بدماء الأسر الحاكمة التركية في الأساس.



الفصل الأول

دور المرأة في الحياة العامة

خلال العصر العثماني

المبحث الأول: دور المرأة في الحياة السيـاسية

المبحث الثاني: دور المرأة في الحياة الإجتماعية

المبحث الثالث: دور المرأة في الحياة الإقتصادية

المبحث الرابع: دور المرأة في الحيــاة الدينيــة

المبحث الأول

دور المرأة في الحياة السيــاسية

دور المرأة

في الحياة السياسية

بدأت المعلومات تزداد حول حريم القصر اعتبارا من النصف الثاني للقرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وصادفنا تفصيلات في المصادر حول الحياة داخل القصر وبصفة خاصة تلك المؤامرات التي بدأت مع «خورم سلطان» زوجة القانوني، وابنته مهرماه سلطان، وتواصلت مع «صفية والده سلطان»، و«نوربانو والده سلطان»، وقد أدت هذه المؤامرات وكذلك الجهود الاقتصادية والاجتماعية لبعض نساء الحريم إلى الحديث عن هذه المؤسسة على نطاق واسع[١].

كان السلاطين العثمانيون يظهرون لأمهاتهم احتراما كبيرا، ومنهن من اكتسبت نفوذا كبيرا وتدخلا في شئون الدولة حينما يتولى ابنها العرش لأسباب وظروف خاصة وهو في سن صغيرة، لا تسمح له بمباشرة وتحمل أعباء الحكم، والقيام بمسئوليته الفعلية بنفسه. لذا نرى منهن من صارت «وصية للسلطنة»[٢].

وقد استمر تدخلهن في شئون الدولة بدرجات متفاوتة، بصفة علنية معروفة لدى الجميع، حينما يكون السلطان دون السن القانونية، أو من وراء الكواليس حينما تستغل علاقتها الشخصية والفطرية بابنها، وما يمليه عليه دينه وأخلاقه تجاه أمه، فتدخلن في تسيير الشئون حتى زمن السلطان عبد الحميد الثاني[٣] الذي أصدر أوامر مشددة بمنع تدخل النساء في شئون المجتمع العثماني منعا باتا[٤].

---

١) Islam Anskilopedisi, Turkiye Diyanet Vakfi.c.16. Istanbul, 1997. S. 135.

٢) من هؤلاء (ماء بيكر) والدة السلطان مراد الرابع، وخديجة طورخان والده سلطان أم السلطان محمد الرابع.

٣) السلطان الرابع والثلاثون، الابن الثاني للسلطان عبد المجيد، ولد الأربعاء ١٢٥٨/٨/١٦ هـ، من أم شركسية، نسجت حول حياته كثير من الأساطير والافتراءات، والحق أنه كان متدينا، شديد الصلابة في الدين، متصفا بخصال حميدة، وشخصية عالية القدر، تولى السلطنة بعد عزل أخيه الأكبر مراد، يوم الخميس ١٠ شعبان ١٣٩٢ هـ. انظر المزيد في: عمر فاروق يلماز، كتاب السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق، ترجمة طارق عبد الجليل السيد، دار نشر عثمانلي – اسطنبول

٤) Ayse Osmanoglu, Babam Sultan Abdulhamid . S.15

ولا شك أن عصر السلطان مراد الثالث: «٩٨٢ هـ/ ١٥٧٤ م - ١٠٠٣ هـ/ ١٥٩٥ م» هو أكثر عصر كثر الحديث فيه عن تدخلات الحريم في السياسة، وفى عهده تمت إضافة مباني كثيرة للحرم الهمايوني، وازداد عدد سكان الحرم، ونتيجة لجهود «نوربانو والدة سلطان» وابنتها «أسمهان سلطان» التي قدمت جواري كثيرة لابنها «عنيزه»، منهن «صفية سلطان» زوجته، ولكثرة نفوذها فإن السلطان أهمل شئون الدولة التي كان مهتما بها عن قرب، وظل بالحرم يقضي وقته في اللهو مع نساء الحرم، وكلف المهندس «سنان باشا» بإنشاء رواق جميل جديد بالحرم ومجموعة من الغرف الجذابة، ويذكر «السلانيكي[1]» أن السلطان «مراد الثالث» ظل قابعا بالحرم، ولا يؤدى حتى صلاة الجمعة التي من المفترض أداؤها جماعة في المسجد، وأهمل شئون الدولة[2].

والحديث عن الجواري يأخذ جانبا كبيرا؛ لأن كثيرا من نساء السلاطين كن جواري، وقد امتدت مؤسسة الرقّ منذ عصور قديمة جدا في التاريخ، وراجت تجارة الجواري بصورة كبيرة طبقا لأصولها القديمة، وكان يروق للشرقيين امتلاك الجواري البيض أما الغربيين فالجواري السود، وهناك أسواق الأسرى في المدن الكبيرة قديما، وكانت هذه الأعمال رائجة عن طريق الأسر في مصر وروما واليونان، وبالنسبة للمبادئ والتشريعات الإسلامية فإن الأسير يمكن أن يسترقّ، ويصبح عبداً لصاحبه، وله الحق أن يستخدمه كما يشاء، ولهذا السبب قام السلاطين بالتصرف وفق بنود الشرع وأخذوا الجواري، ووضعوا لهم الأماكن المناسبة، ومنحوهم الأموال والأمتعة، ولكن كثرة الجواري في الحرم ازدادت منذ عصر محمد الفاتح «٨٥٥ هـ ١٤٥١م / ٨٨٦ هـ ١٤٨١م» لأن إدارة الدولة في عصره كانت تشمل

---

١) مصطفى أفندي السلانيكي: صاحب كتاب " تاريخ السلانيكي".

٢) Mehmet Pakalin. Osmanli Tarih, Milli Egitim Basimevi - Istanbul 1983 S. 136.

اللقطاء والدوشرمه[١]؛ حيث يتم تربية الأبناء اللقطاء في الحروب وغيرها في الجيش ومدرسة الأندرون[٢]، حتى يصبحوا على أعلى مستوى إداري وعسكري بالتقدم والتدرج، أما الجواري المتخذات للحرم فإنهن يبلغن أعلى المناصب بالترقي وفق سلم مضبوط ومحدد، وهو: عجمي– الأسطي – القالفة – إقبال – قادين أفندى – والده سلطان، وذلك طبقا لدرجة ذكاء الجارية ودهائها وجمالها[٣].

وكان يتم اختيار الجواري في البداية من بعض الفتيات الجميلات اللاتي يتم أسرهن في بلاد العدو أو في الحروب، أما المصدر الثاني لأخذ الجواري إلى الحرم فهو: أن يقوم أحد رجال الدولة بإهداء السلاطين هذه الجواري، وقد كان الصدر الأعظم[٤] والولاة والوزراء والقادة يهادون السلطان بالجواري اللاتي قاموا بشرائها، واستمرّ هذا النظام في عصر الفتوحات بهذه الصورة، وعندما بدأ عصر التراجع والتوقف عن الفتوحات انتهى هذا الأمر، وأصبح من النادر أن يقدم القادة نساءً، من الجواري الجميلات إلى القصر، وكان هذا الأمر قد أصبح في صورة مسابقة في عهد كل من مراد الثالث، والسلطان إبراهيم، ومحمود الثاني، وعبد

١) الدوشرمة: تعني لغة: المجمَّعون، وهي صنف من العسكر نشأ لحاجة الجيش لأجل التوسع في الفتوحات، ويتكون من حصة الخزينة أي: الخمس، من أسرى أولاد النصارى المسترقّين، وتربيتهم تربية تركية إسلامية، ثم تطورت المؤسسة وفق ضوابط محددة لتتكون من أبناء العوائل النصرانية تحت الحكم العثماني. وكانت الدولة تقسمهم إلى ثلاث مجموعات: المجموعة الأولى تعدّ لشغل الوظائف والخدمة في القصور السلطانية، والمجموعة الثانية تعد لشغل الوظائف المدنية في الدولة، والمجموعة الثالثة يعدّ أفرادها ليكونوا عصب فرق المشاة في الجيش العثماني التي عرفت بالإنكشارية، ومعناها الجنود الجدد، وكان عددهم كبيرا جدا نسبةً للمجموعتين الأوليين. الدولة العثمانية المجهولة، تأليف أحمد آق كندز، سعيد أوزنورك، وقف البحوث العثمانية، اسطنبول: ٢٠٠٨: صـ ٥١١.

٢). الأندرون: القسم الداخلي من بلاط السلطان. انظر الملاحق.

٣) Cagatay Ulvcay, a.g.e.s. (110).

٤) الصدر الأعظم هو الوزير الأول في الدولة العثمانية، والرأس الثاني في الإجراء والتنفيذ بالدولة، وهو وكيل السلطان وحامل الختم الهمايوني، والمخول بالصلاحيات تخويلا كاملا، وقد أخذا هذا الاسم ابتداء من عهد السلطان سليمان القانوني. انظر آق قندز، م. سابق: صـ ٦١٨.

المجيد، وعبد المجيد الثاني، وهناك مصدر آخر لإدخال الجواري الحرم وهو أن يقوم أمين الجمرك بذلك، وكان معظمهن من الأباظة والجورجيات والجراكسة(١).

ومن المعروف أن الحرم قد أصابه التفكك والانهيار، مثل سائر النظم، كما هو الحال في التاريخ السياسي والإداري العثماني، وبدأ هذا الوضع من عهد السلطان أحمد الأول، حيث أن جميع سلاطين القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، تقريباً لم يتمكنوا من السيطرة على شئون الحكم لفترة طويلة، بسبب صراعات الأبناء، وهكذا فقد ازداد نفوذ أغوات والدات السلاطين في القصر بصورة لم يعهدها من قبل، وأصبحت الفترة من عام: «٩٧٤ هـ/ ١٥٦٦م»، وحتى عام «١٠٦٦ هـ - ١٦٥٦م » فترة يطلق عليها اسم «عصر والدات السلاطين»(٢).

وتأتى كوسم سلطان على رأس أمهات السلاطين الأكثر تأثيرا في تلك الفترة، وكانت كوسم سلطان في البداية مجرد خاصكي «خادمة السلطان» في النصف الأول للقرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، ثم ارتفعت إلى درجة والدة السلطان بعد ذلك، وأصبحت ذات تأثير قوى جدا بصفتها «الوالدة المعظمة»، ولم تنتقل إلى القصر القديم وخالفت بذلك التقليد العام، وذلك في السنوات الأولى لعصر السلطان محمد الرابع، فأصبحت ذات تأثير استمر حوالي خمسين عاما، وقد حطمت سلوكياتها وتصرفاتها تقاليد القصر العثماني، وزادت من عدد الجواري والخدم «الخاصكي» اللاتي كانت تقدمهن للسلطان إبراهيم بصفة مستمرة، من أجل الإبقاء على نفوذها في القصر، وأدى ذلك إلى تقويض حكم السلطان. وجدير بالذكر أن السلطان محمد الثالث قضى حياته محبوسا في الحرم وانقطع عن العالم الخارجي لفترة من الزمن، ونتج عن ذلك ظهور الطامعين في الحكم لاعتلاء العرش بدلاً منه، وعندما اعتلى السلطان «عبد الحميد الأول» العرش العثماني في سن التاسعة والأربعين كان قبل ذلك يعيش حياته في قفص الحرم، وظل كذلك حتى

---

١) Cagatay Ulvcay, Harem. 11. 2. Baski, S. 69.

٢) Islam Ansiklopedisi, Turkiye Diyanet Vakfi, C. 16, Istanbul, 1997, S. 123

اعتلائه العرش، وعندما أصبح سلطاناً ظل فترة في الحرم الهمايونى أيضاً، وتوضح الخطابات والرسائل العاطفية التي كتبها السلطان لسيدة القصر «روح شاه»[١] إلى أي مدى أثرت السنوات الطويلة التي عاشها في الحرم على بنيته[٢].

وظل تسلط النساء في شئون الدولة في عهدها واستمر ذلك حتى عام «١٠٦٦ هـ - ١٦٥٦م » ، بعده لم تتدخل أية امرأة تنسب إلى الأسرة الحاكمة العثمانية في شئون الحكم والسياسة[٣].

لقد تأسست نظم وتشكيلات الحرم العثماني في عهد السلطان محمد الفاتح، وهذه النظم تطورت مع نظام الدوشرمة في إطار يتفق مع البناء العام للدولة، حيث إننا نجد ضمن نظم الأندرون «أو دائرة الحرم» أن أقدم جارية في القصر تصل إلى أعلى المناصب باستثناء الوالدة «سلطان الخاصكى»، وفى الأساس فإن تعبير الحرم الهمايونى في تشكيلات القصر العثماني يشمل «الأندرون» تارة والحرم تارة أخرى، ودائرة «الأندرون» هذه هي دائرة تربوية لتنشئة السلطان ورجال القصر الذين يخدمون الدولة، أما الحرم فهو دائرة لتنشئة النساء. ولم تتسنَّ معلومات كثيرة حول الحرم الهمايوني القديم سوى أنه كان في قصر «أدرنة» قبل فتح اسطنبول، وبعد ذلك قام بإنشائه السلطان «بايزيد» في القصر القديم. لكن بعض المصادر ذكرت أن السلاطين كانوا يذهبون من قصر «طوب قابى» إلى القصر القديم أحياناً ويقومون بزيارة سكان الحرم هناك. ووالدة السلطان: هي أم السلطان الذي لا يزال حكمه قائما في الدولة العثمانية، وأمثال أمهات السلاطين هؤلاء: نوربانو – صفية – ماهبيكر كوسم - طورخان خديجة سلطان- الخ. والتاريخ السياسي لأمهات

---

١) وهي زوجة السلطان عبد الحميد، وإحدى محظياته، والرسالة مشهورة من محفوظات الأرشيف العثماني السري، وقد دافع آق قندز في كتابه الدولة العثمانية المجهولة عن هذه الاستنتاجات، ووصف الرسالة بأنها مشاعر زوجية مفعمة بالمبالغة الأدبية، دون أن تعني شيئا آخر من خضوع السلطان لنسائه أو أنه ذليل أمامهن. صـ ٥٢٠.

٢) المرجع السابق: صـ ١٢٣-١٢٥.

٣) ماجدة مخلوف، الحريم في القصر العثماني ، ط ١ ، دار الآفاق ، القاهرة ، ١٤١٨ هـ، صـ ٢١.

السلاطين اللاتي أصبحن ذوي نفوذ في حكم الدولة العثمانية علانية معروف جيداً في ظل كتابات المؤرخين الأتراك، لكن أولئك السيدات كانت لهنّ أوضاع مختلفة بالنسبة لمعيشتهن في الحرم الهمايوني، ولم يتناول المؤرخون الأتراك الموضوع بأي صورة من الصور، ولم يغوصوا في أسرار الحرم بأي شكل، وكذلك المؤرخون الغربيون على الرغم من وجود جواسيسهم في كل مكان لم يتمكنوا من الإفاضة عن هذا الموضوع، لذا فإن أقدم الرحلات قد تجاهلت هذه الأسرار ولم تتعرض لها بأي توضيح. و يحكى «نقول نعيمة» في تاريخه أن التجار وأمناء الجمارك كانوا يأتون بالجواري إلى الحرم، وذلك من أماكن عديدة بآسيا وأفريقيا وأوروبا وكان المخلصون للسلطان يفعلون ذلك أيضاً(١).

كانت عادة الاستفراش هذه وملك اليمين التي سادت إيران حتى عصر محمد على شاه قاجار: «١٣٢٥ هـ/ ١٩٠٧م – ١٣٢٧ هـ/ ١٩٠٩م» قد استقرت داخل تركيا بالتدريج، وفى الأزمنة الأولى كان الحكام العثمانيون يتزوجين من الأسر الحاكمة التركية في الأناضول أو يتزوجون بأميرات بيزنطية، ومن الصعب الحديث عن أولئك الأميرات، أو أماكنهم الاجتماعية، ويقول عاشق باشا زاده: كانت الأميرة الصربية التي يتزوجها السلطان تعامل على أنها جارية، لكن بعض الزوجات الأخريات كن يعاملن باهتمام واحترام بالغ(٢).

لقد كان السلطان «بايزيد الثاني» : «٨٨٦ هـ ١٤٨١م / ٩١٨ هـ ١٥١٢م»، يحب أمه «جولبهار سلطان» كثيراً فمن الواضح من خلال الخطابات التي كانت «جولبهار سلطان» ترسلها إلى ابنها أنها هي التي كانت تقوم بشئون الدولة وكان لها بعض أفكارها بشأن رجال الدولة، ولقد سمح السلطان سليمان القانوني: «٩٢٦ هـ ١٥٢٠م / ٩٧٤ هـ ١٥٦٦م» لأمه «حفصة سلطان» بالتدخل في شئون الدولة، وفى

---

١) Islam Ansiklopedisi, Islam Alemi Tarih, Cografya, Etnografya ve Biyograya, Lugati, C. 13, Istanbul, S. 180.

٢) ماجدة مخلوف، الحريم في القصر العثماني، مصدر سابق، صـ ١٩.

عهد السلطانين «سليم الثاني» و«مراد الثالث»، فإن أمهاتهما وزوجاتهما كنّ يتدخلن في شئون الحكم بالدولة حتى أن القريبين منهن والمؤيدين لهن كانوا يحصلون على رشاوى من الجواري الأزواج «الزوجات»، وكان السلطان مراد الثالث يحب أمه «نوربانو سلطان» كثيراً، وعندما ماتت ارتدى ملابس الحداد وظل في جنازتها، وكذلك فإن السلطان محمد الثالث كان يحب أمه «صفية سلطان» كثيراً وعندما ذهب إلى الحرب ترك لأمه مسئولية الحكم، وكان نائب الصدر الأعظم «القائم مقام» يستشيرها في أمور الدولة لحين عودة السلطان من الحرب، ولم يكن السلطان يفعل شيئا في أمور الدولة إلا بمشورتها هي، ولقد غيرت «صفية سلطان» بعض أفكار السلطان «محمد الثالث»[1].

وتذكر كتب التاريخ العثماني تحت اسم «مأساة عثمانية» دور أم السلطان مصطفى الأول، خاندان سلطان، فقد كان ابنها السلطان مصطفى مجنونا، أو به خفة عقل، وعُزل بسبب ذلك؛ فكانت المحرك الرئيس لفتنة أغوات الانكشارية و«القابي قولو» ضدّ السلطان عثمان الثاني «كنج عثمان»، وذلك بهدف إعادة السلطان مصطفى إلى العرش، وهو ما تمّ لها بعد السيطرة على الشاب السلطان عثمان القوي، وقتله تحت إشراف ومباشرة الصدر الأعظم داود باشا في ١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م، وقد اعتبرت هذه الحادثة من أخطر الحوادث مأساوية وتأثيرا في التاريخ العثماني، أدّت إلى تغيير مجرى التاريخ، تماماً مثل حادثة مقتل الأمير مصطفى في عهد السلطان سليمان القانوني[2].

لكن لا شك أن الأكثر تأثيراً بين هؤلاء الأمهات هي «كوسم سلطان» أم السلطان إبراهيم ومراد الرابع، وكانت كوسم سلطان ترأس الحرم والدولة تقريبا في الفترة: «١٠٣٢ هـ/ ١٦٢٣- ١٠٦١هـ/ ١٦٥١م» ، فكثير من أمور الطرد

---

١) Cagatay Ulucay, A.g.e. S. 63.

٢) الدولة العثمانية المجهولة، مصدر سابق، صـ٢٩٠ .

والقتل والتظاهرات جميعها كانت تجرى بأمرها، وكانت لها سلطة في كل شيء يتم بالدولة [١].

ويطول الحديث عن كوسم سلطان؛ لأنها أكثر النساء تدخلا في شئون الدولة، وبسبب وفاة السلطان أحمد الأول بالحمى وهو في سن صغيرة، فإن كوسم سلطان من أجل تحقيق هدفها قامت بتولية مصطفى أخو أحمد الأول وابن محمد الثالث الحكم بدلاً من عثمان الذي أنجبته «ماهفيردز خديجة»، وهكذا فقد قامت بتغييرات مهمة في نظام السلطنة، وعلى الرغم من عدم وجود معلومات قاطعة بشأن دور كوسم سلطان في هذه الأحداث إلا أنه من الراجح أن لها دورا نسبيا في إنهاء إجراء قتل الأخ الذي كان له دور فعال داخل القصر وخارجه[٢].

وأصبحت كوسم سلطان ذات كلمة مسموعة في إدارة وحكم الدولة بعد تولية ابنها مراد الرابع العرش، فقد عملت مع جميع أركان الدولة ورجالها؛ لحلّ مشكلات كثيرة، مثل: فقد بغداد بسبب توزيع عطايا الجلوس على الإنكشارية، والتمردات في الإيالات، وتمرد «أباظة محمد باشا»، ودخول لصوص وعصابات القوقاز المضيق – مضيق البوسفور[٣] – وتدخلت أيضاً لحلّ المشاكل والاضطرابات في القرم[٤].

وتعلَّم السلطان «مراد الرابع» إدارة شئون الدولة بفضل أمه عليه، وكان يخطط لحكم البلاد، أما «كوسم سلطان» فإنها لم تكن تنوي ترك هذه المسئوليات له، لكن الأحداث المتطورة في اسطنبول عقب عزل الصدر الأعظم «خسرو باشا» وتولي «طوبال رجب باشا» منصب الصدر الأعظم، قللت من شوكتها ونفوذها، وأراد ابنها «مراد» الرابع الاستيلاء على الحكم بنفسه، وكان يسمع كلام أمه ولا يتركها أو

---

١) Cagatay Ulucay, A.g.e. S. 64.

٢) Islam Aniklopedisi, Turkiye Diyanet vakfi, C. 16 S. 135

٣) هو مضيق يصل بين البحر الأسود وبحر مرمرة، وعليه تقع مدينة اسطنبول، ويعتبر مع مضيق الدردنيل الحدود الجنوبية بين قارة آسيا وأوروبا. انظر خريطة المضيقين في الملاحق.

٤) Turkiye Diyanet Vakfi, C. 26. S. 275.

ينقطع عنها، وحينما أصدر «مراد الرابع» إعدام قاضى «أزنيك»، تدخل شيخ الإسلام في عدم تنفيذ الأمر بأن اتصل «بكوسم سلطان» لعدم تنفيذ الحكم، وطلب منها أن تبلغ السلطان بأن الشائعات تتحدث بقرب إقصائه عن العرش، فبلَّغته في الحال، فقام السلطان «مراد» بإعدام شيخ الإسلام على الفور دون أي استشارة عن الحادثة، وأدركت «كوسم سلطان» أن ابنها في أمان ما دام يحكم بالقوة(١).

ولكنها لم تتمكن من منع «مراد» من قتل إخوته «بايزيد وسليمان» بعد نجاحه في حرب «روان(٢)»، ولم تمنعه من قتل أخيه الشقيق «قاسم» قبل فترة من خروجه لحرب بغداد. وتمكنت من تعيين ابنها الآخر «إبراهيم» على العرش العثماني باعتباره الوريث الوحيد للحكم، وتمكنت «كوسم سلطان» من عودة قوتها القديمة وحمَّلت السلطان إبراهيم أعباء فكرية ومسئوليات عديدة، وكان أول عمل لكوسم سلطان أنها قامت ببعض التدابير التي من شأنها إنجاب السلطان «إبراهيم» ذكراً ليرث العرش العثماني من بعده، وفى سبيل ذلك فإنها أنفقت الأموال الكثيرة والجهود لزيادة عدد الجواري المقدمة للسلطان، وبدأت ترعى شئون الدولة بنفسها(٣).

ولما أراد شيخ الإسلام وبعض العلماء وبعض رجال الدولة خلع السلطان قامت بتجهيز وإعداد حفيدها محمد لهذا المنصب، وتحققت رغبتها في اعتلاء حفيدها العرش في «٢٩ رجب ١٠٥٨هـ/ ١٨ أغسطس ١٦٤٨م»، وتتفق المصادر في أن لـ«كوسم سلطان» دورا مؤثرا في هذا الإقصاء، أو الخلع، واعتلاء حفيدها العرش،

---

١) تحدث مؤلف "الدولة العثمانية المجهولة" عن هذه الواقعة كالآتي: قام شيخ الإسلام: "آخي زادة حسين أفندي"، ببيان أسفه، وأرسل مذكرة للوالدة السلطانة، حاول استعاطفها، قائلا: حاولي إبعاده عما يجلب عليه الدعاء، نأمل أن تنصحيه لكي يحصل على دعاء الخير من زمرة العلماء، وأن يبدي السلطان التوقير لهذه الزمرة التي احترمها أجداده"، ولكن الوالدة السلطانة قامت بإيصال هذه الرسالة بشكل مشوه للسلطان، وأوغرت قلبه ضد شيخ الإسلام، فقام السلطان بإعدام شبخ الإسلام بتهمة التهيؤ لإعلان العصيان. وكان شيخ الإسلام هذا عالما جريئا في الحق. أحمد آق قندز: (صـ: ٢٩٩).

٢) الحملة الهمايونية الإيرانية ا(روان) الأولى في الفترة من ١١/ ١٠/ ١٠٤٤ وحتى ١٩/ ٧/ ١٠٤٥ هـ. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج ١ صـ ٤٧٨.

٣) Islam Aniklopedisi, Turkiye Diyanet Vakfi, C. 26 S. 274 .

حتى أن المصادر أوضحت بعد ذلك أن لها يد في مسألة إعدام السلطان إبراهيم في غرفته، وذلك بسبب عدم تمكنها من استخدام منصب «والدة سلطان» كما كانت تستخدمه. ونظراً لأن حفيدها كان في سن السابعة، وأمه «خديجة طورخان سلطان» كانت شابة صغيرة قليلة الخبرة في شئون السلطة والحكم، فإنه أصبح من الطبيعي أن تضطلع هي بمهام السلطنة. وخلال السنوات الأولى لحكم السلطان «محمد الرابع» واصلت «كوسم سلطان» تدخلها في شئون الدولة واستعانت بالانكشارية لتحقيق ما تريده، فعزلت بعض الموظفين الساميين عن مناصبهم، وولت آخرين ، وتدخلت «طورخان سلطان» والدة السلطان «محمد» وأرادت كوسم سلطان قتلها، ولما علمت طورخان بذلك قامت هي بمساعدة «سليمان أغا» ورجاله بقتل كوسم سلطان، وقتلت عام «١٠٦١هـ - ١٦٥١م»، وقد ذكرت كوسم سلطان في المصادر بمسميات كثيرة مثل: الوالدة المعظمة – الوالدة العظيمة أم المؤمنين – صاحبة المقام – الوالدة العتيقة – الوالدة الكبيرة – وقد أصبحت في المقام الأول بالدولة أثناء حكم «مراد الرابع» والسلطان «إبراهيم»، وبداية عهد «محمد الرابع»، ولقد اتهمتها بعض المصادر بأنها السبب في أحداث كثيرة[١].

واضطلعت خديجة طورخان بعدها بالدور بصفتها والدة السلطان، والنائبة عن السلطان الصغير؛ لعدم قدرته على الاضطلاع بالمهام بصفة كاملة، وكان السلطان تابعاً لطورخان التي كانت تنوب عن ابنها في الحكم كالأسد الجسور، وهكذا كانت طورخان سلطان على النقيض والعكس تماماً من كوسم سلطان؛ إذ اطلعت بدور إيجابي كبير ولم تكن حريصة على الحكم مثل أم زوجها، وقامت بمحاولات عديدة جادة للحصول على صدر أعظم يتحمل المسئولية ويكون على مستوى التحديات، في فترة من عهد الدولة العثمانية تعتبر من أسوأ الفترات، شهدت مآسي عديدة مؤثرة على المستوى الداخلي والخارجي، معا، فقد انتشرت الفوضى في الأقاليم، وسيطر الثوار على بعضها، وازداد نفوذ الانكشارية، وانتشرت الرشوة والفساد،

---

١). نفس المصدر السابق، صـ ٢٧٥.

وازدادت أطماع الدول الأجنبية، وحدثَ أن راقبت طورخان سلطان ذات مرة الديوان الهمايوني، تحت إدارة الصدر الأعظم العجوز محمد باشا كورجي[١]؛ فأدركت أنه مجرد ألعوبة في أيدي الوزراء، وأنه ناقص الكفاءة الإدارية، ففقدت أعصابها: وصاحت قائلة: يا أبتِ إن المسألة ليست لحية بيضاء، إن المسألة أعمق من ذلك بكثير، إنها تحقيق الحكم الصالح وإبداء الآراء السديدة، ومن هنا بدأت في التفكير والتشاور للحصول على الصدر الأعظم المناسب في ظل هذه الأوضاع الخطيرة، حتى قيض الله لها رجلا شهما حازما، ووزيرا عالي الهمة، ألا وهو محمد كوبريلي باشا فكان الرجل المناسب في المكان المناسب، فعينته طورخان في منصب الصدارة، فشمّر عن ساعد الجدّ لسدّ الخلل ورأب الصدع، وكان قد بلغ السبعين من العمر، ونجَّذته مداومة السنين في العمل الإداري في القصر العثماني وفي الإيالات الخارجية[٢].

كان صادق النية قوي العزيمة، مشهودا له بالأمانة والإخلاص والسمعة الحسنة، اشترط شروطا قاسية لقبوله التعيين فتمّ الاتفاق عليها؛ لإدراك طورخان سلطان وأعوانها بحساسية الوضع وكفاءة الرجل، بل أقسمت له على ذلك، وصادق المفتي عليها لتأخذ صفة شرعيةً رسمية، ابتدأ إصلاحاته الداخلية بمراقبة المتهاونين في أداء أعمالهم واستبدال من تثبت إدانته، وإصلاح الأوضاع الداخلية ثم الاهتمام بالشئون الخارجية، تصرف بحكمة وتيقظ، رحيما في وقت الرحمة، ضارباً بيد من حديد كل من يريد الإخلال بالأمن، ولم يحاب أحدا ولم تقف أمامه قوة مركز أحد، فاستبدل زعيم الإنكشارية، وشيخ الإسلام، وقائد الأسطول العثماني،

---

١). تولى الصدارة وكان قد تجاوز الثمانين من العمر، في الفترة من (١١/١٠/١٠٦١ هـ موافق ٢٧/٩/١٦٥١ م) إلى (١٣/٧/١٠٦٢ هـ موافق ٢٠/٦/١٦٥٢ م). انظر د. إساعيل أحمد ياغي، العثمانية في التاريخ الإسلامي: صـ ٢٧١ ملحقات.

٢). الثقفي، يوسف بن علي بن رابع، لمعان الضوء في دياجير الظلام، دراسة لعهد الصدر الأعظم محمد كوبريلي، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، العدد الأول، مارس ٩٣، صـ (٢٢٦-٢٤٧).

وشملت نجاحاته الشئون الخارجية فانتصر على البنادقة وأخضع التمردات التي قادها بعض الثوار الإنفصاليين، وقاد بنفسه الجيوش، وحقق أعمالا وإنجازات عظيمة في خمس سنوات عجز آخرون عن القيام بها في أكثر من خمسين سنة، وعلى فراش الموت ترك للسلطان وصيته الشهيرة، وبالرغم من أنه مدين في تعيينه في هذا المنصب لوالدة السلطان طورخان، فإن أول نقطة من وصيته كانت: لا تسمع لنصيحة امرأة، وقد لا يعني هنا بالضرورة طورخان سلطان، فلئن كانت هذه نموذجا مختلفا عما عهده، فإن محمد كوبرلي عايش فترة طويلة عرفت بسلطنة النساء، فقد كان طباخا بالقصر، ويدرك أن الوضعية المزرية التي وصلت إليها الدولة العثمانية لم تكن سوى نتاجا للتدخلات السيئة لنساء القصر، ورغباتهم المختلفة، فقد نقل عنه قوله لأحد خواصه: «إنهنّ لا يفكرن إلا في أنفسهنّ ولا يقدّرن المسئولية، وإن الدولة على وشك الانهيار»، وهكذا فإن حرص هذا الصدر الأعظم على الدولة العثمانية وإخلاصه لها لم يفارقه حتى وهو على فراش الموت ليعطي النصائح، وثمرة تجربته الطويلة في الحكم والإدارة للسلطان الغرّ محمد الرابع، وفي سنة ١٠٧٢ هـ/ ١٦٦١م توفي محمد كوبريلي، وفي صورة أخرى من إخلاص طورخان سلطان للدولة العثمانية، ووفاء لهذا الصدر الأعظم، واعترافا بخدماته الجليلة، قامت بتعيين ابنه أحمد كوبريلي مكانه، خاصة وأنه دربه ورباه تربية خاصة مكنته من القيام بهذه الوظيفة[1].

وبعد عام «١٠٦٦ هـ - ١٦٥٦م » لم تتدخل أي امرأة تنسب إلى الأسر الحاكمة العثمانية في شئون الحكم والسياسة، بعد أن كان يسمى عصر «كوسم سلطان» عصر سلطنة النساء[2].

أما «جولنوش سلطان» والدة كل من «اقجى محمد ومصطفى الثاني وأحمد الثالث» فقد ظلت في مصر والدة السلطان لفترة عشرين سنة كاملة منذ عام:

١). الثقفي، يوسف بن علي بن رابع، لمعان الضوء في دياجير الظلام، مرجع سابق، صـ (٢٢٦-٢٤٧).

٢). Yilmaz Oztuna, Devletler ve Hane Danlar, Tu (1074 – 1990) C. 2, S. 165

«١١٠٧ هـ/ ١٦٩٥م » وحتى عام: «١١٢٧ هـ/ ١٧١٥م»، وكان «سليم الثالث» يحب أمه «مهرشاه سلطان» كثيرا، ويفعل كل ما تريده، أما زوجة «محمود الثاني» وأم «عبد المجيد» «بزمي عالم سلطان» فقد تدخلت في شئون الدولة، وجعلت ابنها يفعل كل ما تقوله، وكانت تصدر الأوامر إلى رجال الدولة أثناء تواجد السلطان «عبد المجيد» في اسطنبول، وكانت ترسل إلى ابنها التقارير والمراسلات التي تتضمن تحريات الأمور، وما آلت إليه داخل الدولة والحكومة، أما أم عبد العزيز «برتونيال سلطان» فقد كانت زوجة السطان تحبها كثيراً[١].

وكانت المرأة تحصل على لقب «القادين أفندى» و «الخاصكي» خلال القرنين السادس عشر والثامن عشر، وعلى أي حال فإن والدة السلطان لم يتسن لها الحصول على لقب الملكة مثلما هو الحال في البلاد الأخرى، وهكذا فإن والدة السلطان كانت تحصل على المكانة الأولى بين نساء الترك وحصلت على التقدير والمكانة العظيمة بمسماها «والده سلطان»، وهذا التقدير الذي له جذور بين الأتراك لم يكن كافيا لتوضيح تأثير هؤلاء النسوة على القصر والدولة، لقد كان السلاطين نموذجا لاحترام الآباء والأمهات، وكانت أمهات السلاطين يخاطبن أبناءهن بألقاب الأسد والنمر، والجدير بالذكر أن أم السلطان كان لها تأثير عظيم على ابنها السلطان، وفقا لتعاليم الإسلام التي تربى عليها السلاطين: «الجنة تحت أقدام الأمهات»[٢]، وعند ذهاب والدة السلطان إلى أي مكان يتم عمل مراسم لذلك التحرك، وبالنسبة للخاصكى أو القادين أفندي «زوجة السلطان» فإنها عندما تحصل على لقب «والدة السلطان» يتم نقلها إلى القصر الجديد بمراسم واحتفال مهيب،

---

١). المصدر السابق: صـ ٦٥.

٢). الحديث بهذا اللفظ ضعيف أو موضوع كما ذكر الألباني، ولكنه شائع التداول بين الناس صحيح المعنى، ولعل أصله من حديث معاوية بن جاهمة: (أنه جاء النبي ﷺ فقال يا رسول الله أردت أن أغزو، وجئت أستشيرك ؟ فقال: هل لك من أم؟ قال نعم، قال: فالزمها فإن الجنة تحت رجليها). (رواه النسائي: ٣١٠٤) واللفظ له ، وأحمد (جـ ٣ / صـ ٤٢٩ برقم: ١٥٤٧٥) ، وغيرهما. قال الألباني: وسنده حسن إن شاء الله، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي . انظر السلسلة الضعيفة حديث رقم: (٥٩٣).

ويقوم السلطان بعمل مشفى خاص بالقادين أفندى حتى تضع مولودها، وحدث ذلك في عهد الفاتح(١).

وإذا اعتلى الابن العرش العثماني فإن والدة السلطان بعد فترة قصيرة يتم نقلها إلى مبنى القصر الجديد الذي يقيم فيه السلطان، واستنادا إلى دفاتر وسجلات البروتوكول تقول إحدى الوثائق أن الأشخاص الذين يدخلون في خدمة والدة السلطان، ويكونوا في موكبها عند التحرك إلى القصر الجديد هم: حرس الديوان الهمايوني، ورئيس المسؤلين، والأغاوات، وخدم الحرم، ودلاقي الأوقاف، وآغا السعادة، ويسير هؤلاء بهذا الترتيب ثم تأتي والدة السلطان بالعربة بعد ذلك، وهناك أغاوات يصاحبوا هذه العربة ويلازموها، وعندما تصل إلى باب القصر فإن السلطان يقبِّل يدها ويأخذها إلى داخل القصر، وتعيش أم السلطان في مكان خاص بأمهات السلاطين(٢).

وعقب استقرار والدة السلطان بالقصر الجديد فإنها تخبر الصدر الأعظم بالأحكام والبنود الخاصة بشئون الدولة، وتعطف عليه بالكورك والسمور والخنجر المرصع، بالإضافة إلى ذلك فإنها ترسل الكورك أيضا إلى شيخ الإسلام(٣).

ووالدة السلطان تأخذ أرفع منصب في الحرم الهمايوني وكانت تقوم بالضبط والربط في القصر من خلال الأسطى خزنة دار، وكان تيسير شئون الحرم يتم بمعرفتها هي(٤).

---

(١). Yilmaz Oztuna, Devletler ve Hane Danlar, Tu (1074 – 1990) C. 2, S. 182

(٢). ماجدة مخلوف، مرجع سابق، صـ٢١.

(٣) Yilmaz Oztuna, A.g.e S. 183 . كورك السمور: ملابس فاخرة من الحرير أو الجوخ، تكون محشوة بفراء السمور، وهو حيوان صغير من فصيلة ابن عرس، ومعاطف الكورك تعدّ من أمارات الشرف ورفعة القدر، ولا يرتديها إلا العلماء والوزراء وأمثالهم، وفيما لو عيّن موظف في منصبٍ سامٍ، فإن علامة توليه هذا المنصب تكون بإلباسه كوركا من السّمور.

(٤) Cagatay Ulvcay, Harem, 2 Baski, Ankara, 1985, S. 79 .

وكان لها احترام وتقدير بالغ في حرم القصر فلا يمكن لأحد أن يكلمها إلا بإذن، ولا يستطيع أن يقف أمامها إلا بعد السماح بذلك من قبلها، ويرافق والدة السلطان في تحركاتها جميع حراس القصر(١).

ومن نماذج احترامها يروى أن أم السلطان «عبد الحميد الثاني» لم تسمح لإمبراطور ألمانيا بتقبيل يدها، وروي أن سفير فرنسا «ماركس دنوتيل» حينما قابل والدة السلطان «عبد الحميد الثاني» على السفينة بالغ في احترامها وتقديرها، وعند موت السلطان فإنه يتم إرسال والدة السلطان السابق إلى القصر القديم ثانية ضمن النساء المحرومين المتقاعدين بالحرم، وتعطي المخصصات المالية والامتيازات التي تتمتع بها والدة السلطان فكرة عن تلك الدرجة الرفيعة التي كن يتمتعن بها في نظام الدولة، فقد كن يحصلن على مبالغ مالية كبيرة من الإيرادات يطلق عليها: «الباش مقلق»، فضلا عن ما يخصصه السلطان نفسه لأمه من أموال كبيرة، وكانت المخصصات المالية لأمهات السلاطين تفوق تلك التي تحصل عليها الزوجات أو البنات، وقد بلغت ثرواتهنّ وفقا لذلك حداً فاحشاً، حتى قيل: إن والدة السلطان أحمد الثالث، كان لها من المال ما يكفي للإنفاق على الجيش العثماني كله(٢).

بعد فتح اسطنبول تحول زواج السلاطين الرسمي إلى أمر نادر، بالمعنى العام، ومن الممكن أن نذكر في تلك الفترة السلطان «سليمان القانوني» و«عثمان الثاني» وأخيراً «السلطان إبراهيم» الذي تزوج بشاه سلطان أوتكي خاصكي عام: «١٠٥٧ هـ/ ١٦٤٧م»، وهي امرأة بالحرم، وكان الصدر الأعظم العثماني ينوب «السلطان إبراهيم» في مراسم الزواج(٣).

---

(١) المصدر السابق: صـ ٨١.

(٢) Islam Ansiklopedisi, Islam Alemi, Tarih, Cografya, Etnografys ve Biyogtafya Lugati, a.g.e. S. 180 - 181.

(٣) Islam Ansiklopedisi, Islam Alemi, Tarih, Cografya, Etnografys ve Biyogtafya Lugati. S. 182.

ولقد كانت العادة العثمانية ضدّ زواج السلاطين بالجواري في البداية والأزمنة الأولى، لكن الاقتراب من الخدم وعمل صلة قرابة قد أزال الخوف نوعاً ما، ثم بدا حقيقة أن والدة السلطان صفية لم تكن زوجة مراد الثالث، والتي تنتسب إلى عائلة بافو البندقية الأصل، وما من شك أن مؤامرات الحرم قد لعبت دوراً مهما في عهود بعض السلاطين، كما فعلت النساء البوذيات اللاتي دخلن القصر، وينبغي إضافة أهمية دور أم السلطان في تركيا كما هو الحال في إيران، ولهذا السبب فإنه من الطبيعي أن يقوم رجل هذه السياسة بإهداء المرأة التابعة وإدخالها القصر على سبيل الهدية. ولقد استفاد الجراكسة بصفة خاصة من هذا التأثير الخفي الذي حققته هذه العلاقات والاهتمامات. وطبقا لما فهم من كل هذا؛ فإن أمهات السلاطين كنّ يأتين من الجواري بصفة مستمرة، ولهذا السبب فقد صدق «فون هامر» محدثا عن السلطان بأنه ابن جارية، حتى أن الكاتب اوبجسينى ذكر تسمية الشعب له بهذا الاسم ولم يذكر مرادفها باللغة التركية[١].

وكانت تطلق على الجواري بالحرم أسماء باللغة الفارسية تبعاً للون الشعر والعين، ونادراً ما يتم تسميتهم بأسماء تركية أو عربية، ويحتفظن بهذه الأسماء عندما يصبحن والدات وأمهات للسلاطين، وعندما تلد والدة السلطان الأمير تظل محرومة من مكانتها حتى يعتلى عرش الحكم[٢].

إن طبقات الدوشرمه التي خلعت نفسها بفعل تحديات أصحاب الجذور التركية قد انقسمت إلى مجموعات وكيانات سياسية، لواحد منها زعيم يريد كسب الثروة وتحقيق القوة بدلا من أصحاب السلطة الأصليين، لكن الصراع على السلطة الذي ألقى بظلاله على تلك الساحة، قد بدأ بحفصة سلطان (٩٢٦ هـ/ ١٥٢٠م) أم السلطان سليمان القانوني، حيث أن حفصة سلطان وغيرها من سادة الحرم قد بدأن يتدخلن في تعاون مع الآخرين ليسيطرن على الحكومة، من خلال اختيار أحد

---

(١) المرجع السابق: صـ ١٨٢.

(٢) محمد حرب، مذكرات السلطان عبد الحميد، صـ ٢١٨.

أبنائهن لحكم العرش العثماني، ويعدّ السبب والعامل الأساسي في نجاح إبراهيم باشا مساعي خورم سلطان، أو روكسلانا، الروسية الأصل، زوجة السلطان سليمان القانوني، ولقد كانت حفصة سلطان سببا في نجاح سياسة ابنها السلطان سليمان القانوني، وكانت سببا في انتصاراته العسكرية، وقامت بتعيين أرناؤوط أحمد باشا على مصر(١).

وحينما توفيت حفصة خاتون أم السلطان سليمان القانوني انكمشت سلطة الصدر الأعظم إبراهيم باشا، لأنه كان يعمل بأمرها، ويستمدّ نفوذه منها وتحت سيطرتها، وتم خلعه بعد وفاتها مباشرة، أما خورم سلطان زوجة السلطان سليمان القانوني فإنها تحالفت مع اسكندر جلبي، أحد الخصوم والمنافسين الرئيسيين للصدر الأعظم إبراهيم باشا، وبدأت في تأسيس جماعة الحرم بنفسها، وكانت تريد الاستيلاء على الحكم العثماني، وتعيين أحد أبنائها الأربعة على العرش؛ مما أدى إلى خلاف شديد بين السلطان وزوجته في الأمور السياسية(٢).

وقد مثَّلت هذه الحالات البدايات القوية لدخول المرأة في الحياة السياسية العثمانية، من خلال العمل على تغيير واختيار أعلى سلطة سياسية في الدولة، ثم بدأت تتطور وتنضج في عصر المشروطية الثانية عام: «١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م» حين تم اقتراح إمكانية حصول السيدة العثمانية على مهام ووظائف بإدارة الدولة. وخلال الفترة من عام: «١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م»، وحتى عام: «١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م» تم قبول فكرة دخول الفتيات والنساء كافة فروع الجامعة. ثم فى عصر الجمهورية التركية من خلال الحقوق التي تمنحها القوانين للمرأة بعد إعلان الجمهورية عام: « ١٣٣٦ هـ / ١٩١٨م » وحتى «١٣٤١ هـ ١٩٢٣ م » تم تأسيس حقوق سياسية للمرأة، وخلال هذه المرحلة الأولى تم عمل اجتماعات متبادله من نساء ورجال من أجل تأسيس جمعية الدفاع عن الوطن في الأناضول، والمقاومة ضد العدو، ومن هنا لعبت

١) Stanford Shaw Osmanli Impartolvgv Ve modern Tukkiye, S. 137

٢) المصدر السابق: صـ ١٤٧.

المرأة من بداية الجمهورية التركية دورا مؤثرا في حرب التحرير، وشاركت في الدفاع عن الوطن بكل السبل، وعملت أيضا في جميع جمعيات الخير واستفادت من إمكانية إسناد وظيفة التدريس إليها، وكانت شخصيتها في ذلك الوقت شخصية متعددة الجوانب، وبالنسبة لتمتع المرأة بالحقوق السياسية، فإن الدولة جعلت المرأة، كمواطنة تركية صاحبة كلمة في بنية الدولة وفى الإدارة الديموقراطية(١).

ولقد صدرت قوانين متباينة في هذا الشأن منها صدور قانون البلدية في: «١٥ ذي القعدة ١٣٤٨ هـ/ ١٣ إبريل ١٩٣٠ م، وقانون سيادة عام: « ١٣٥١/ ١٩٣٣، أما في: «٢٨ شعبان ١٣٥٣هـ/ ٥ ديسمبر عام ١٩٣٤»، فقد صدر قانون حق انتخاب المرأة في البرلمان(٢).

ولا شك أن مشاركة ومساهمة خورم سلطان الحزبية والسياسية هذه قد عملت على تقوية شكوك السلطان سليمان القانوني بشأن بيرى محمد باشا – آخر صدر أعظم تركي – وبسبب انتصاراته العسكرية فإنه بدأ يظهر على الساحة السياسية في ظل تأثير خورم سلطان زوجة القانوني. وكما اتضح فإنه عقب انتصارات إبراهيم باشا تم تعيين أرناؤط أحمد باشا على مصر، وهناك تمرد على السلطان، لكن أوضاع هذه الفرق «الطبقات الدوشرمة» قد أعلنت وأوضحت بداية دخول النظام العثماني الحاكم تحت سيادة نساء الحرم، وبداية ظهور الأحزاب السياسية(٣).

وبعد ذلك بدأ السلاطين يعتمدون كثيراً بالتدريج على الصدور العظام الذين بدؤوا استخدام نفوذهم من أجل مصالحهم بدلاً من مصلحة الدولة ومصلحة الحاكم، وذلك اعتمادا على نساء الحرم، وبدأ السلطان سليمان القانوني يشعر بتأثير قضايا سياسية داخلية جديدة أثناء استعداده للحرب للقيام بالمسئولية التي ألقيت

---

(١) Turkiye, Ansiklopedisi, cilid XXl, AnkArA, 1971.S.93 .

(٢) Harem,11K93 .

(٣) Belgelerle Osmanli Tarihi, cilill. Omes Faruk Gilamaz 2. Baski, Istsanbul 1999. S. 131.

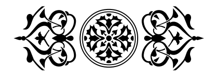
على عاتقه أمام حزب الدوشرمة الذي يتزعمه نساء القصر العثماني، فهذا الحـزب ظهر بصورة ناجحة بسبب اعتلاء إبراهيم باشا منصب الصدر الأعظم، فانقسم هذا الحزب إلى مجموعات سياسية صغيرة، وهؤلاء كـانوا يراعـون مصـالحهم أولاً قبـل مصالح الدولة، وأول دليل على ذلك ما جرى بعد عـودة السـلطان إلى اسـطنبول؛ فقد أمر السلطان سليمان القـانوني بإعـدام إبـراهيم باشـا «٢٩ رمضـان ٩٤٢ هــ / ١٥مارس ١٥٣٦م»، وقام بمصادرة أمواله وأملاكه، والسبب الظاهري في ذلك هو دخول إبراهيم باشا أذربيجان قبل مجيء السلطان، واتهامه بأنه حصل عل رشوة من الصفويين؛ لمنع الحرب التي كانت ستجرى في بغداد أو في إيران، وأنـه يعمـل علـى الاستفادة من قيادته للجيوش العثمانية، وسوف يعلن الصدر الأعظم استقلاله[1].

لكن الأسباب الحقيقية لسقوط إبراهيم باشا تكمـن في أن إبـراهيم باشـا كـان تحت حـماية حفصة خاتون أم السلطان سليمان القانوني، واهتزت مكانته ووضـعه كثيراً بسـبب وفاتهـا في «٥ رمضـان ٩٤٠ هــ / ١٩ مـارس ١٥٣٤م»، أمـا الـدور السياسي لزوجة السلطان سليمان القانوني «خورم سلطان»؛ في فرض تعـيين أحـد أبنائها الأربعة على العرش العثماني، وهم «محمد – جهـانكير – سـليم – بايزيـد»، اصطدم بجهود ماهي دوران خاصـكي خـاتون زوجـة السـلطان سـليمان القـانوني الأخرى، وأم الابن الأكبر للقانوني «مصطفى» وولى العهد، فقـد عارضـت خـورم سلطان ووقفت ضدها، وأيدت إبراهيم باشا التابع لها، ثم كسـبت خـورم سـلطان هذا الصراع من خلال دعـم السـفير الفرنسـى للصـدر الأعظـم الـذي سـيخوض الحروب الغربية أكثر من إبراهيم باشا، ومن ثـمّ فإنهـا أجـبرت السـلطان سـليمان القانوني على إهانة إبراهيم باشـا، وتظهـر إحـدى الرسـائل الموجـودة في أرشـيف البلاط، والتي أرسلتها خورم إلى السلطان سليمان في إحدى حملاته، وبطريقة موثقة جهود خورم ومساعيها ضدّ إبراهيم باشـا: «سـيدي إن غيابـك عـني أجـج نـارا لا ينطفئ لهيبها، ارحم هذه المعذبة، وسارع في الجواب؛ لأني قد أجـد فيـه مـا يخفـف

---

(١) Devletler ve Hanedanlar Turkiye (1074 – 1990), Ciltz. Gilmaz Oztuna. S .82

عني، سيدي، حين تقرأ كلماتي ستتمنى لو أنك كتبت إليّ أكثر للتعبير عن شوقك، وحين أقرأ رسالتك يكون ابنـك محمـد وابنتـك مهرمـاه حـولي يبكيـان بـدموع لا تنقطع، إن رؤية دموعهما تجعلني أجـنّ، ...، تسـألني عـن السـبب في غضـبي علـى إبراهيم باشا، وحين يجمعنا الله ثانية سأذكر لك السبب وستفهمني»، وفهم السلطان السبب! وقتل إبراهيم باشا، وهكذا فإن سقوط إبراهيم باشا لم يكن بداية مؤامرات نساء الحرم فقط، بل كـان أيضـاً بدايـة للجـوء إلى السـفراء الأجانـب في العاصـمة العثمانية[1].



١) خليل إينالجيك - تاريخ الدولة العثمانية، صـ ١٣٨.

المبحث الثاني

دور المرأة في الحياة الاجتماعية

دور المرأة
في الحياة الاجتماعية

أطلق العثمانيون على نسائهم لفظ «الحريم»، أو «حريم القصر»، ولم يكن لفظ «زوجات» شائع الاستعمال، وانتقلت كلمة «الحريم» بهذا المدلول الحضاري، إلى العثمانيين وأصبحت تعني في المصطلح التاريخي العثماني واحداً من ثلاثة أقسام يتكون منها القصر، وهذه الأقسام هي: القسم الخارجي، والقسم الداخلي، والحرم، أي: الحريم، ويعني الحريم في هذا المصطلح: الجزء الخاص من القصر الذي يعيش فيه السلطان مع أهل بيته من النساء، وهو مشتق من كلمة «الحرم» وحرم الرجل ما يقاتل عنه ويحميه، ولا يحق للأجانب انتهاك حرمة هذا المكان، وهذه ذات دلالة حضارية على ما يكتنف هذا المكان من مظاهر الاحترام[١].

ويقوم على الخدمة الداخلية فيه عدد من النساء، وأشهر قسم للحريم العثماني، هو حريم قصر «طوب قابي»، وقد اتخذه السلاطين العثمانيون سكناً لهم، ومقراً للحكم منذ عهد السلطان سليمان القانوني، «٩٢٦ هـ/ ١٥٢٠ م – ٩٧٣ هـ/ ١٥٦٦م» حتى زمن السلطان عبد المجيد: «١٢٥٥ هـ/ ١٨٣٩م – ١٢٧٧ هـ / ١٨٦١م»[٢].

لقد سيطرت الدولة العثمانية على دول كثيرة بالقارات الثلاث: آسيا وأوروبا وإفريقيا، وهذا يبرز صفات مختلفة في حياة المرأة، وعند تطبيق القانون الإسلامي في الدولة العثمانية المسلمة، أصبح هناك تباينات وفوارق كبيرة بين امرأة القرية وامرأة المدينة، داخل هذا النظام الديني، حيث كانت المرأة في القرية أكثر حرية، فهي تعيش

---

١) سقوط الدولة العثمانية، مجدي عبد المجيد الصافور، دار الصحوة، القاهرة ١٩٩١.

٢) Mehmet Zeki Pakalin Osmanli Tarih Deyimleri Ve Terimleri Sozlugu, e.I., I S.747..

حياة المشاركة والمساهمة العظيمة في المجال والميدان الاقتصادي من خلال قوتها الإنتاجية في العمل[١].

كثرت أعداد النساء اللاتي قمن بأعمال اجتماعية في الدولة، مثل بناء المستشفيات، وتخصيص أوقاف للأيتام، والعوانس، والمساهمة في بناء المساجد، وتشييد المدارس والمؤسسات الخيرية والمكتبات. والمرأة في القصر العثماني كان لها وضع مختلف عن المرأة خارج القصر، وظهرت المرأة داخل الحرم بأمور لها علاقة بالسياسة والخدمة الاجتماعية للناس باعتبارها زوجة السلطان أو والدته أو ابنته؛ أصحاب المال والسلطة[٢].

ومن هؤلاء النساء أمهات السلاطين، وبناتهم، وزوجاتهم، ونذكر مثالا لا حصرا: حفصة سلطان أم السلطان سليمان القانوني - وصفية سلطان أم مراد الثالث - وطورخان سلطان أم محمد الرابع - وجولنوش سلطان أم مصطفى الثاني وأحمد الثالث - ومهر شاه سلطان أم سليم الثالث - ونقشديل سلطان أم محمود الثاني - وبزمي عالم سلطان أم عبد المجيد - وبرتوينال سلطان أم عبد العزيز. فقد شيدت الأمهات سالفة الذكر، أوقافا وأبنية لا حصر لها من مدارس، ومقابر، وماء سبيل، وجوامع........ الخ[٣]، كما لم يقتصر هذا على نساء السلاطين والحرم، بل إن المجتمع العثماني ككل لم يخل من نساء قمن بتشييد مؤسسات خيرية كثيرة تنسب إليهن، وتسجل الأعمال بأسمائهن، من مكتبات، ومدارس، وجامعات، وغير ذلك. وبالنسبة لحقوق المرأة الاجتماعية المتمثلة في التعليم، فإنه قد يكون من الصعب تتبع ذلك بالدراسة، والحصول على معلومات وافية، نظرا للطبيعة الخصوصية لتلك الحقبة، ولأن الفتيات والبنات لم يعرفن نمط التعليم المنتظم، لكننا

---

١) Islam Ansikopedisi, Turkiye Diganet. C15, A.g.e. S. 92

٢) المرجع السابق: صـ ٩٤. .

٣) Gagatay Ulvcay, Harem, A.g.e. S. 66

قد نصادف في تلك الفترة أسماء شاعرات من النساء العثمانيات[١]. وينبغي أن يقسَّم هذا الوضع الاجتماعي للمرأة في العصر العثماني إلى شقين، الشق الأول: عصر التأسيس ويشمل عصر تأسيس الدولة وسقوطها، وفى تلك الفترة أوضاع مختلفة ومتغايرة كثيرة، لكنها أساسية، فالعادات والأعراف التركية التي استمدت من أتراك السلاجقة في عصر التأسيس، التي أخذوا عنها أشياء كثيرة منها نقاب المرأة المعروف عند الأتراك بـ«البيجة واليشمك»، قامت بتطور حياة الأسر بصورة طبيعية من خلال القواعد الرشيدة التي جاءت بها التعاليم الإسلامية. أما الشق الثاني: فيشمل النساء المنتسبات إلى أسرة الحاكم والسلطان العثماني في القصر، ولكن أوضاع هؤلاء النسوة تختلف تماماً عن القواعد القانونية المجبر عليها الشعب، ومن الضروري السير بموجبها[٢].

إن حياة الحريم في القصر العثماني بتأثيراتها السياسية والاجتماعية تختلف عن المرأة العادية في الدولة العثمانية، حيث عاشت الفئة الثانية عادات وأعراف تتماشى مع القواعد الدينية التي ينتسبون إليها، لكن في فترة سقوط الدولة العثمانية أصبحت المرأة محكوم عليها بالبقاء وتحت ضغوط العصبية في إطار إدارة تسير طبقاً لنظام ديموقراطي من ناحية، وطبقاً لتأثيرات حركات الإصلاح من ناحية أخرى، لكن الأحكام المطلوب تطبيقها بسبب التغير الخاطئ للقواعد الأساسية للإسلام، وسيطرة الأعراف والعادات التركية، قد تحولت تماماً إلى حركات مناهضة لمتطلبات العصر. وبعد عصر التنظيمات بدأ التطور الاجتماعي والفكر الحر بين أفراد الرعايا

---

١) برزت أسماء لشاعرات عثمانيات في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، من أمثال: زبيدة بنت شيخ الإسلام أسعد أفندي المتوفاة سنة (١٧٨٠ هـ/ ١١٩٤م)، نيغار هانم عثمان (١٢٧٨ هـ/ ١٨٦٢ م/ - ١٣٣٠ هـ/ ١٩١٢م) وليلى ساز (١٢٦٦ هـ/ ١٨٥٠م-١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٥م). انظر بحث النساء في العالم العثماني من منتصف القرن الثامن عشر إلى أوائل القرن العشرين، لثريا فاروقي، ترجمة عايدة سيف الدولة، ضمن موسوعة النساء والثقافات الإسلامية، المجلد الأول: المنهجيات والمنظومات والمصادر لدراسة النساء والثقافات الإسلامية، الناشر: دار بريل، ليدن، بوسطن، ٢٠٠٣ ، الترجمة بالتعاون مع مؤسسة المرأة والذاكرة، القاهرة، ٢٠٠٦.

٢) Turkiye Ansiklopedisi, Cil xxl, Ankara, 1971, S.92 .

العثمانيين، وأصبحت هناك إمكانات لفتح مدارس جديدة لتعليم الفتيات، وكذلك أصبح بإمكان المرأة المثقفة المستنيرة الدخول ضمن الزمرة والكيانات المثقفة، ولقد ظلت نساء الدولة العثمانية المتعلمات في تلك الفترة تحت تأثير التعليم الديني، وفى عام «١٢٨٥هـ/ ١٨٦٩م»، تم افتتاح أول مدرسة للصنائع، وكذلك أول مدرسة ثانوية للفتيات. وفى بعض ضواحي الدولة العثمانية كانت البنات يذهبن إلى المدارس الابتدائية مع البنين، وتم افتتاح مدارس إعدادية للفتيات ليكملن تعليمهن بعد المرحلة الابتدائية، وهكذا فإن النساء الأتراك في القرن التاسع عشر قد تبوأن مكانة اجتماعية لا بأس بها، وكما بدأ بتوضيح تأثيراتهن في الرأي العام من خلال كتاباتهن، ودخلن في خدمة الدولة[١].

ومع انضمام الدولة العثمانية إلى الحرب العالمية الأولى؛ فقد بات واضحاً أن هناك وضع جديد للمجتمع في الحياة العملية، وتم تعيين النساء في وظائف الرجال الذين تركوها وذهبوا للتجنيد في الجيش، ومن ثم فإن المرأة بدأت تأخذ وظيفة في الحياة الاجتماعية كما هو الأمر في الأسرة[٢].

وقد أسهمت نساء القصر العثماني بدور فعال في بعض النواحي الاجتماعية، وخاصة الخيرية ويُعد الوقف في المجتمع التركي ذا مكانة اجتماعية واقتصادية تناولها الكثير من الكتَّاب[٣].

---

١) Turkiye Ansiklopedisi, Cilidxxl, Ankara, 1971, S. 93.

٢) المصدر السابق: صـ ٩٣.

٣) أسهمت الأوقاف بدور كبير في المجتمعات الإسلامية سواء في الجوانب الاقتصادية أو الاجتماعية، وكان لها أثرها في هذه المجتمعات باعتبارها مؤسسة دينية، ولعبت دورا هاماً في خدمة الثقافة والفتوى الإسلامية وفى تطويرها وانتشارها واستمرارها. والوقف هو أن يتخلى الإنسان بمحض إرادته واختياره عن بعض أملاكه، ويحبسها حبسا مؤبدا مع التصدق بمنفعتها على جهة برّ لا تنقطع. وقد اتسعت الأوقاف في الدولة العثمانية باتساع رقعتها، وأصبحت الأوقاف شاهدا على الحضارة العثمانية، ومن الأوقاف شيدت الجوامع، والمدارس، والمستشفيات والمساجد، والمكتبات، وأقيمت الجسور والقلاع وبيوت الأرامل والأيتام وغيرها من المؤسسات ذات الخدمات الثقافية والاجتماعية والحضارية. كما خصصت أيضا أوقاف للإنفاق على أعمال معنوية مثل قراءة القرآن الكريم ترحما على أرواح الموتى، وكان آغا البنات هو المسئول عن متابعة هذه الأوقاف الخاصة بنساء الحريم، ويمكن أن نتعرف على أوقاف جواري ونائبات وخبيرات الحريم السلطاني

وكان لزوجات السلاطين مكاناً بارزاً في ذلك الميدان ونتناول هؤلاء على النحو التالي:

أ- والدة السلطان:

وهي الرئيسة الشرفية لقسم الحريم؛ لكن هذه الرئاسة لا تعطيها حق التدخل في النظام الخاص بالحريم، حيث أن هناك موظفين داخل الحريم وخارجه مهمتهم حفظ هذا النظام وقوانينه وتقاليده. وتتمتع والدة السلطان بأرفع مكانة بين كل الحريم باعتبارها والدة السلطان، وهي بمثابة الملكة في المفهوم الأوروبي، ولقبها «المهد العالى» «مهد عليا» و«والده سلطان»، وقد أطلق للمرة الأولى على والدة السلطان مراد الثالث: «٩٨١ هـ/ ١٥٧٤م– ١٠٠٣ هـ / ١٥٩٥ م»[١]، وتخاطب والدة السلطان بلقب: «صاحبة الدولة، صاحبة العصمة» «دولتو عصمتلو»، وهي نفس الألقاب التي تخاطب بها بنات السلطان[٢].

ولوالدة السلطان مراسم خاصة عند دخولها القصر للمرة الأولى، عقب اعتلاء ابنها عرش السلطنة، وتعرف هذه المراسم باسم «والدة الآيي»: «موكب الوالدة»، كما أن لها جناحا خاصا بها، وعددا من الجواري من مختلف الدرجات لخدمتها وإدارة شئون جناحها، ترأسهن جارية من درجة «نائبة». ولها أيضاً مخصصات عينية وأخرى نقدية تصرف لها من دار سكّ العملة مباشرة. وكثير من أمهات السلاطين ونسائهم وجهن هذه الأموال لبناء الجوامع، والمدارس، والمستشفيات، ومياه السبيل، وغيرها من الأعمال الخيرية. أما مباشرة مصالح والدة السلطان خارج

التي أوقفنها على العاملين في بعض الأوجاقات، مما هو مدون على أحجار الجدار الملاصق لباب العربة في قصر (طوب قابى). انظر: د/ محمد حمدان، التكايا والأربطة والطرق الصوفية في تركيا، دار الموسوعات العربية، بيروت، عام ٢٠٠٩م، صـ ٣٤. وللمزيد عن أرشيف الوقف العثماني، والوثائق العثمانية في الأرشيفات العربية والتركية، بحوث ندوة الأرشيف العثماني المنعقدة في الرياض ٠٩-١٢ صفر ١٤٢٢، دارة الملك عبد العزيز – ١٤٢٥، صـ ٤٥.

(١) Ismail Hakki Uzuncarsili.Osmanli Devletinin Saray Teskilati , S.154

(٢) Yilmaz Oztuna , Buyuk Turkiye Tarihi,c.8, S. 215.

القصر فهو من اختصاص وكيل أعمال «كتخذا»، ويتم اختياره من بين موظفي الدولة الموثوق فيهم[١].

ب- زوجات السلطان:

وتسمى الواحدة منهن « قادين[٢]»، وهي أعلى درجة من درجات نساء السلطان، كان لقبها حتى القرن الثامن عشر«الخاصة» «خاصكى»، ثم أصبح «السيدة حرم السلطان» «قادين أفندى»، وتخاطب الزوجة بلفظ «ذات العصمة» «عصمتلوا»[٣].

وزوجات السلطان لهن درجات وترتيب خاص، فتسمى الأولى «باش قادين» ثم الثانية «ايكنجي قادين»، ثم الثالثة «اوجنجي قادين»؛ ولا يزيد عدد الزوجات عن أربع، وهذا الترتيب ليس مرجعه تفضيل إحداهن على الأخرى، بل أنه يدل فقط على ترتيب أقدمية كل واحدة منهن، وتكون زوجة السلطان قبل أن ترتقي إلى هذه الدرجة – في أغلب الأحيان- واحدة من الجواري في الحريم، لهذا ينوب عنها أغا البنات بينما ينوب الصدر الأعظم عن السلطان في عقد عقدة النكاح، وقد اقتصر السلاطين العثمانيون على الزواج من الجواري فقط منذ عهد السلطان سليم الأول «٩١٨ - ٩٢٦هـ / ١٥١٢ م – ١٥٢٠م» باستثناء السلطان عثمان الثاني : «١٠٢٧ – ١٠٣٢هـ = ١٦١٨ – ١٦٢٣م»[٤].

والجارية التي يقع عليها الاختيار عند انضمامها إلى الحريم لتصبح زوجة للسلطان، أو من نسائه، فإنها لا تكلف بأي عمل في القصر العثماني، بل توجه العناية كلها لتربيتها وتهذيبها وتعليمها قواعد الدين الإسلامي، وتقاليد الحريم

---

١) ماجدة مخلوف، الحرم، صـ ١٩.

٢) قادين: لقب يطلق على إحدى الزوجات المفضلة لدى السلطان. انظر : خليل إناجيك، العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ملحق معجم المصطلحات العثمانية: صـ ٣٣٩ .

٣) Oztuna, a.g.e, S. 215

٤) تزوج السلطان عثمان الثاني من «عقيلة هانم» بنت شيخ الإسلام «أسعد أفندى» وكانت من الحرائر، وهو زواج نادر الحدوث. انظر: المصدر السابق: ٢١٤.

وآداب الحديث، وما يمكنها أن تتعلمه من اللغات والآداب والموسيقى حسب استعدادها، لتكون جديرة بملاقاة السلطان[١].

لم تكن زوجة السلطان تنجب أكثر من طفلين أو ثلاثة أطفال إلا في حالات نادرة، وتتولى بنفسها الإشراف على تربية بناتها الأميرات، فإذا توفيت تسند هذه المهمة إلى زوجة أخرى للسلطان تسمح ظروفها بتربيتهن، وعندئذ يدعونها «الأم المثالية» ويعاملنها بنفس الحب والاحترام[٢].

جـ - المستولدات:

وتسمى الواحدة منهن «إقبال»، وتأتي في الترتيب بعد الزوجات، ولقبها «هانم»[٣]، ولها الحق في مشاركة السلطان فراشة، وأول مستولدة في الحريم العثماني هي «فاطمة شاهين هانم» وذلك في زمن السلطان مصطفى الثاني «١١٠٦ – ١١١٥هـ / ١٦٩٥ – ١٧٠٣م». وليس بالضرورة أن يكون لكل سلطان مستولدات، حيث أننا لا نجد هذه الدرجة من درجات نساء السلطان إلا لدى ستة سلاطين فقط هم: أحمد الثالث، ومحمود الأول، وسليم الثالث، ومحمود الثاني، وعبد المجيد الأول، وعبد الحميد الثاني[٤].

وللجواري من درجة «المستولدة» ترتيب خاص، فأقدمهن تسمى كبيرة المستولدات «باش إقبال»، ثم الثانية، ثم الثالثة، وهكذا، ويجوز للسلطان أن يتزوج واحدة منهن، وعندئذ تترقى إلى درجة الزوجة وتصبح «قادين»، وتحصل على نفس حقوقها وتصبح من حيث ترتيب الزوجات هي الأخيرة. وكانت أغلب المستولدات من الشركسيات، لما يتمتعن به من جمال وذكاء[٥].

١) Cagatay Ulucay, Harem, S.55.

٢) عصر السلطان عبد الحميد، محمد أبو عزة، دمشق ، المنارة: ١٩٩٧-١٤١٧ هـ صـ ١٢٧ .

٣) Mehmet Zeki Pakalim, Osmanli Tarihi Deyimleri Ve Terimleri Sozlugli C.2, 46/1

٤) Cagatay Ulucay, Padisahlarim Kadinlari Ve Kizlari, S. 38

٥) حسان على حلاق، موقف الدولة العثمانية (ط٢) دار الهدى بيروت ١٩٩٠م. صـ ٣٧.

د- المحظيات[١]:

وتسمى الواحدة منهن«كوزده»، وتأتى في الترتيب بعد المستولدة، وتختار المحظية من بين الجواري من درجة المستولدات عن خزينة السلطان «خزينة دار»، المناط بهن أداء الخدمات المباشرة للسلطان، ويمكن للمحظية أن تترقى فتصبح مستولدة ثم زوجة، وقد يبتسم لها الحظ وتنجب من السلطان ابناً يصير سلطاناً فتصبح «والده سلطان»[٢].

أما عن ترتيب القائمات على خدمة زوجات السلاطين: فتنتظم الجواري القائمات على أعمال الخدمة والإدارة داخل قسم الحريم في ترتيب هرمي؛ فهنّ داخل هذا القسم بمثابة الموظفات، لهن درجات وترقيات، كما أن لهن رواتب نقدية تتحدد حسب درجة الجارية في هذا السلم الوظيفي، ويحلن إلى المعاش وتصرف لهن مكافأة في نهاية خدمتهن في الحريم، والوظائف داخل الحريم لها أقسام، ولكل قسم رئيسة ومعاونات، ولكل منهن اختصاص ودور محدد لا يتجاوزنه في العمل، كما أن كل درجة منهن مسئولة عن اللاتي في الدرجة الأدنى، وترأسهن جميعا «باش خزينة دار».

أ- كبيرة المسئولات عن خزينة السلطان:

هي أكبر موظفة في الحريم، وتسمى «باش خزينة دار»، الخزينة دار الأولى. وهي المسئولة عن إدارة جناح السلطان، وتحمل مفاتيح خزائنه. وتسمى أيضاً «باش قالفه»، أى رئيسة النائبات أو الوصيفات، و«سراى أو سطه لق» بمعنى المسئولة عن القصر أو الوكيلة»[٣]، وهي رئيسة كل الجواري داخل الحريم، وبهذه الصفة تعتبر

---

١) المحظية أو الحظية: تطلق على المرأة التي تفضل على غيرها في المحبة، وعلى الفتاة ذات المكانة أو المنزلة لدى مولاها أو سلطانها، انظر: المعجم الوجيز، صـ ١٥٩/ ٢.

٢) Ayse .S. 85.

٣) Pakalin, S.78

الرئيسة الإدارية الفعلية لقسم الحريم. ولقبها «كخيا قادين» «السيدة وكيلة القصر»، ودرجتها تعادل درجة الوزير في التنظيم المدني، ودرجة المشير في التنظيم العسكري، ودرجة أغا البنات، ولها نفس راتب هذه الوظائف، ويعاونها مساعدات تسمى الواحدة منهن «خزينة دار» يتم انتقائهن من بين جواري الحريم الأكفاء(١).

ب- الخبيرات:

وتسمى الواحدة منهن «أوسطى»، ولكل عمل داخل الحريم خبيرة تستشار، فهناك خبيرة مسئولة عن المطبخ «جاشنكير اوسطى»، وأخرى مسئولة عن الملابس «جماشير أوسطى»، والمسئولة عن القهوة، أو حمل الإبريق، أو التموين وهكذا، وهؤلاء أيضا لهن معاونات من درجة نائبة «قالفة»، وترتدي الخبيرة ثوبا فضفاضا طويل الذيل يعرف باسم «العنتري» ويضعن ضفائر الشعر المستعار(٢).

جـ- المسئولات عن التشريفات:

وتسمى الواحدة منهن «كاتبه قالفة»، وهي المسئولة عن المراسم والتشريفات داخل الحريم. وتسمى رئيستهن «باش كاتبه»، وهؤلاء يخترن من بين قدامى موظفات القصر الملمات جيدا بالبروتوكول والنظام داخل القصر، ومهمتها مراقبة الضبط والربط وإجراء مراسم الاستقبال في الحريم، كما أنهن مسئولات عن كل ما يدور بداخله، لذا فهن دائمات التجول داخل أروقته، وبرفقتهما النائبات المعاونات لهن، وترتدي الواحدة منهن في المراسم الرسمية قميصا فضفاضا طويل الذيل، وسترة قصيرة، وتعلق الشعر، وتمسك في يدها صولجانا من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة يسلمه لها السلطان بنفسه تعبيرا عن بدء مباشرة مهامها(٣).

---

١) Safiye Unuvar, Saray Hatiralarim ,s. 86.ve, Ayse ,S.70

٢) Safiye: (مرجع سابق) S. 70

٣) انظر صـ ٨١

د- النائبات:

وتسمى الواحدة منهن «قالفة»، وهي النائبة في أي موقع أو جناح من أجنحة القصر. وهي رئيسة الجواري في كل جناح من أجنحة القصر وبمثابة المديرة له وأرفع منصب للنائبة هو «خزينة دار قالفة» وذلك عندما تكون نائبة في جناح السلطان، ولا تشغل هذا المنصب إلا قدامى النائبات في القصر. ومهمتهن القيام بالخدمة غير المباشرة للسلطان، والانتظار أمام بابه(١).

ولكل جناح في الحريم نائبة، يقوم السلطان بتعيينها ولقبها « بيوك قالفة» بمعنى النائبة الكبيرة، حيث أن لها مساعدات من النائبات الأقل منها درجة تعرف باسم النائبة الصغيرة «كجوك قالفة»، ومهمة النائبة الكبيرة هي الإشراف على النظام داخل الجناح الذي ترأسه، ومتابعة سير العمل فيه، وتدارك كافة احتياجاته ولوازمه، وتتولى أيضاً الإشراف على مخصصات الجواري المستجدات، وتدبير ما يلزمهن من ملابس، وتدريبهن وتعليمهن عادات وتقاليد قسم الحريم(٢).

هـ- المستجدات:

وتسمى الواحدة منهن «عجمي» بمعنى التي لم تتدرب بعد، أو المستجدة، وهو لقب يطلق على الجارية التي تلحق حديثا بقسم الحريم لتصبح موظفة داخل الحريم بعد تدريبها، وتكون في هذه المرحلة بمثابة التلميذة، وتخاطب الجارية المستجدة رئيستها بلقب «قالفة»، وتخاطب زميلتها المستجدة بلقب رفيقتي، «يولداشم»، وتخضع الجارية المستجدة لبرنامج دقيق لتهذيبها وتعليمها آداب الحريم وتقاليده. وبعد ترتيب الجواري يتم توزيعهن على أجنحة الحريم في وظائف محددة، مثل إعداد الطعام، أو تقديم القهوة، أو أعمال النظافة داخل الحريم، فإذا ظهرت بينهن من بدا عليها عدم الاستعداد والقدرة على التعلم واستيعاب تقاليد الحريم يقوم

---

(١) Ayse, S.86

(٢) Ali Riza, Osmamli Saray Hayatinda Kadinlar,Tarih ve Edebiyatmecmuasi, subat 1981, S. 62.

القصر بتزويجها على الفور من شخص يناسبها، متحملا تكاليف التجهيز، وتقديم الهدايا لها[١].

وبالنسبة للمخصصات التي كانت لأمهات السلاطين، فقد كان يطلق عليها اسم «الباش مقلق» بصفة عامة، وهي عبارة عن إيرادات ورواتب ودخول مخصصة لأمهات السلاطين من قبل أبنائهن، ولقد قام السلطان إبراهيم بتخصيص قدر من الأنصبة والأموال للخاصكي «زوجته وأمه». وفى الأزمنة الطبيعية العادية كانت أم السلطان تحصل على أعلى الإيرادات والمخصصات أكثر من زوجة السلطان أو ابنته وأخواته، وطبقاً لما ذكره بعض المؤرخين فإن نصيب الوالدة من المتسلم – القائم على خزينة الأموال – كان من أعلى هذه الإيرادات وكانت أمهات السلاطين ذات ثروات طائلة، ففي عهد السلطان أحمد الثالث، مثلا، كان لدى والدته أموال يمكن إنفاقها على جيشه[٢].

وقد أسهمت نساء الحريم السلطاني وجواريه في الأوقاف التركية، فأنشأن كثيرا من المؤسسات التي أوقفت لأعمال الخير؛ ومنهن:

- **أمة الله قادين:**

كانت باش خاصكي للسلطان أحمد الثالث، ابتنت مسجدا ومدرسة وسبيل وعين ماء[٣].

- **أسما خاتون:**

وكانت خبيرة «أوسطى» الطعام في الحريم، أوقفت مبلغ ١٦٠٠ قرش (عملة عثمانية فضية) تضاف إلى الطعامية[٤].

---

١) Leyla Saz. S.100.

٢) Islam Ansiklopedisi, Islam Alemi, Tarih, Cografya, Etnografya Ve Biyografya Lugati. S. 182

٣) محمد ثريا، سجل عثماني ياخود تذكرة مشاهير عثمانية، مطبعة عامرة ١٣١١ هـ ، صـ ٢٠.

٤) هي الأموال والإيرادات الموقوفة على إطعام الفقراء وأبناء السبيل والدراويش في الزوايا والخانقاوات وغيرها من المؤسسات الخيرية. انظر: شمس الدين سامي، قاموس تركي، جـ ٢ / صـ ٨٨٤.

- **بدر جهان قالفه:**

أوقفت في عام «١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م» مبلغ خمسمائة قرش على روح «نائلة خاتون» التي كانت تعمل في مخزن مؤونة الحريم، ومبلغ خمسمائة قرشا لقراءة القرآن في أوجاق صانعي الحلوى، ومبلغ أربعمائة وستون قرشا لتقديم الطعام لمن يعملون في مخزن الحطب(١).

- **بَزِم عالم والده سلطان:**

زوجة السلطان محمود الثاني، وأم السلطان عبد المجيد الأول، عرف عنها رقة الشعور، وهو ما يتضح من رعايتها الدائمة للفقراء، والمنشآت الخيرية الكثيرة التي أنشأتها في اسطنبول وخارجها، ومن هذه المنشآت: مستشفى يستقبل الفقراء، ويعمل على تقديم العلاج المجاني للمرضى، وكانت تمثل نموذجاً حضاريا متطورا بالنسبة لزمانها، ولها وقفية تناولت فيها كل التفاصيل المتعلقة بهذا المستشفى، أوصت فيها بالإنفاق بسخاء ودون أدنى تقصير على علاج المرضى مهما بلغت التكاليف والحرص على راحتهم إلى أقصى درجة(٢)، ولها جامع ومدرسة وسبيل ماء في اسطنبول(٣)، كما شرعت في بناء مستشفى خيري في مكة المكرمة لكنها توفيت قبل تمامه، فأتمه ابنها السلطان عبد الحميد الثاني(٤).

- **برتونيال والده السلطان:**

كانت المستولدة الثانية للسلطان «محمود الثاني»، وهي أم السلطان «عبد العزيز» ومن خيراتها الجامع الذي يحمل اسمها والذي ابتنته في حي آقسراي في اسطنبول

---

١) Cagatay, Harem,s.147

٢) ورد في هذه الوقفية أنه (إذا كان ثمن حبة الليمون الواحدة جنيها من الذهب وكانت ضرورية لعلاج المريض، فيجب شراءه على الفور، وإذا كان الفحم يساوى وزنه ذهباً، فليؤت به في الحال، فتدفئة المرضى أهم وأولى). انظر: Erdem, S.48.

٣) Cagatay, a.g.e. S.121.

٤) Oz Dokuman, Vakif Guraba Hastanesi .Hayat.Tarih Dergisi,Haziran 1970, S.45

وابتنت بجانبه سبيل ماء وموقنخانه[١] ومكتبة ومدرسة، وقد أوقفت على المكتبة الملحقة بالجامع ١٠٥٥ كتاب، بين مخطوط ومطبوع[٢]، كما قامت بعمل إصلاحات وتوسعات في مستشفى فقراء المسلمين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وأمرت بتوظيف أطباء وقابلة وصيدلاني وجراح، وتوفير كل ما يلزم المستشفى من خدمات[٣].

- **بيناز زينب قادين:**

زوجة السلطان «عبد الحميد الأول» توفيت عام: «١٢٣٨هـ / ١٧٢٣م»، لها وقفية مؤرخة: «١١٩٨هـ / ١١٨٤م» موقعة باسم «بيناز زينب عبد الله» مما يفيد بأنها كانت جارية، أوصت قبيل وفاتها بعتق كل جواريها عقب وفاتها، وأوقفت أموالا لإسقاط ما فاتها من صلاة، وكفارة عما فاتها من صوم، وتجهيز وتكفين موتى الفقراء[٤].

- **جان فداء:**

كانت وكيلة أعمال صفية والده سلطان. ولها جامع باب أدرنه في اسطنبول وجامع آخر عند مرسى آق بابا، وسبيل ماء[٥].

- **جورى قالفه:**

وكانت نائبة في حريم السلطان محمود الثاني، لها مدرسة كبيرة مبنية من الحجر، عبارة عن ثلاثة مبان من طابقين تضم عشر قاعات للدرس وسبيل ماء في ميدان

---

١) دار التوقيت (موقنخانة)، مكان يلحق بالجوامع الكبيرة توضع فيه ساعات مختلفة الإرتفاع والعيار لضبط الوقت خاصة مواقيت الصلاة، ويعين فيها موظف للقيام بهذه المهمة يسمى موظف دار التوقيت، انظر شمس الدين سامي، قاموس تركي، صـ ١٤٣١.

٢) Oz Dokuman, Vakif Guraba Hastanesi .Hayat.Tarih Dergisi,Haziran 1970, S.45

٣) ماجدة مخلوف: صـ ٦٦.

٤) المرجع نفسه، صـ ٤٤.

٥) Ismail Hakki Uzuncarsili,OsmanliTarihi, C. 3/1. S. 34/1

السلطان أحمد في اسطنبول، وأوقفت أوقافا كثيرة على عين الماء التي في أسكودار[(١)].

- **حفصة سلطان:**

واسمها حفصة بنت عبد المؤمن، وهي ابنة «منكولى كراى» خان القرم، كانت جارية في الحريم السلطاني، تزوجها السلطان سليم الأول وهي والدة السلطان سليمان القانوني وهي سيدة ذات خيرات، قامت طوال مدة إمرة ابنها سليمان القانوني في ولاية مغنيسيا[(٢)] بأعمال خيرية كثيرة حيث ابتنت هناك كلية كبيرة ضمت جامعا، ومدرسة، وعمارة، وخانقاه[(٣)]، ومستشفى، وحمام، ومدرسة صبيان، وأوقفت كل ممتلكاتها في بورصة ومغنيسيا ومنتشة لأعمال الخير. ولها وقفية مكتوبة باللغة العربية بخط التعليق[(٤)] مؤرخة: « ٩٢٩هـ / ١٥٢٢م»، يقدم فيها الطعام مرتين في اليوم، صباحا وبعد العصر، لطلبة العلوم الدينية والعلماء وضيوف الخانقاه وطلبة المدرسة والفقراء[(٥)].

كان لحفصة سلطان تأثير قوى على ابنها سليمان القانوني وكانت معروفة بحب أعمال الخير، ولها مؤسسات خيرية كثيرة. وكان لها مجمَّع يطلق عليه اسم مجمَّع السلطانية وبدأت أعمال إنشاء هذا المجمَّع «٩٢٠ هـ/ ١٥١٣م–٩٢٧ هـ/ ١٥٢٠م»،

---

١) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، صـ ١٤٥.

٢) إحدى ولايات الدولة العثمانية، وهي حاليا إحدى الوحدات الإقليمية من دولة اليونان، وهي جزء من منطقة ثيساليا، وعاصمتها مدينة فولوس، وبها ميناء تجاري كبير. From Wikipedia : (*Magnesia*)

٣) الخانقاه: بقعة يسكنها أهل الصلاة والخير، والصوفية، والنون مفتوحة، قال المقريزي: وقد حدثت في الإسلام في حدود الأربعمائة، وجعلت لمتخلى الصوفية فيها لعبادة الله تعالى. انظر تاج العروس: (جـ ٢٥ / صـ ٢٧٠).

٤) خط التعليق أو الخط الفارسي: هو خط من خطوط اللغة العربية يمتاز بجمال حروفه، وبالدقة والامتداد، والسهولة والوضوح.

٥) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، صـ ١٤٦.

أثناء تواجدها في مانيه مع زوجها السلطان سليم ياوز[١]، وكان ابنها سليمان القانوني على ولاية صاروخان[٢]، ويتألف هذا المجمَّع من جامع ومضيفة ومدرسة صغيرة، ومدرسة كبيرة، وتكية وحمام ومستشفى، وتم تشييد الجامع وقسم من المباني التابعة له عام: « ٩٢٩ هـ/ ١٥٢٣ م» أما الحمام والمستشفى ففي عام: «٩٤٥ هـ/ ١٥٣٨ م» وبعد وفاة حفصة سلطان عام: «٩٤٠ هـ/ ١٥٣٤م»، قام السلطان سليمان القانوني بإضافة بعض الملحقات إلى هذا المجمَّع، وكما فهم من إشارات سجلات الوقف فإن هذا المجمَّع قد تم تشييده في ساحة بما فيه تتسع نحو الوادي ويطلق على هذا المكان حديقة دمرداش أوغلي على بيك، وتم العمل على إسكان من بجواره في أطرافه الخالية، وتم عمل ٢٠ خانة بالجانب الغربي للجامع، وتم إعفاء هذه المباني من جميع وسائل ضرائب التكاليف «الضرائب التكليفية» وبمرور الوقت أخذت المدينة في الاتساع، واتسع هذا المبنى أيضا، وهناك وقفية لحفصة سلطان بتاريخ «شعبان ٩٢٩ هـ «يونيه يوليه ١٥٢٣م» تثبت المسئولية عن هذا المجمَّع وإيرادات ومصادر الدخل، وفي سجل قيد الأوقاف لعام: «٩٣٧ هـ/ ١٥٣١ م» يثبت أن عدد أصحاب الرواتب في هذا المجمَّع ١١٧ شخصا، وفى الجامع نفقات أخرى: إمامين وخطيب وأربع مؤذنين الخ وبالإضافة إلى ذلك فإنه يتم إخراج الطعام بصفة مستمرة في مطعم الجامع[٣].

وطبقا لإشارات السجل فإن مصاريف وتكاليف اللحوم بالمطبخ سنوياً بلغت ٩١,٥٠٠ كجرام، ويعمل به ٢٠ شخصاً، ويعمل بالمقرأة ٩ أشخاص وبالتكية ١٣ درويشاً، وبالمدرسة ١٠ طلاب، ويمنح كل طالب يومية ٢ أقجة، وبالجانب الغربي

---

١) أي: القاطع أو الشجاع.

٢) ولاية عثمانية، تقع حاليا في تركيا، على الساحل الغربي، وهي ولاية كبيرة، وعاصمتها مانيسيا.
From Wikipedia: (*Saruhanlı*)

(٣) Islam Ansiklopedisi, Turkiye Diganet vakfi, C. 15, Istnabul, 1997, S. 123

للجامع نجد إشارات تتعلق بالعاملين بالمستشفى، وبموجبها فإنه هناك باشـي طبيـب وطبيب ثان، ووكيل نفقات، وحكيم عيون، وجراح و٢٥ موظفاً آخرين[١].

وهذا المجمَّع الذي تبوأ مكانة مهمة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي المـدني واجه مجموعة أحداث في القرن السادس عشر، حيث أن طلاب هـذا المجمَّـع أخـذو الأسلحة عام: «٩٦٦ هـ/ ١٥٥٩ م» واستغلوا أموال الوقف أسوأ اسـتغلال، ومـن المعروف أنه تم العمل على تغيير قنوات المياه المؤديـة إلى المطعـم، واليـوم لا يوجـد قسم المطعم والتكية بهذا المجمَّع كما أن الأقسام الأخرى أصبحت متهدمـة غـير أن المديرية العامة للأوقاف أتمت إصلاحاته وأعادته إلى صورته القديمة التي كانت عليـه في عهد «حفصة سلطان». أما الجامع فهو على شكل شمسية له ثلاثة شـرفات مثـل جامع الخاتونية وايواوز باشا بالمدينة وقبته المركزية يبلغ ارتفاعهـا ١٢,٥مـتر، وبـه قبتان صغيرتان أيضا، ومصلى للحريم، وهذا المبنى يترك انطباع بأنه ذو قبة واحـدة بحالته هذه. أما المدرسة فأنشأت بالجانب الشمالي للجامع التي أصبحت على ثلاثـة جوانب في فناء هذا الجامع. وهكذا فقد تم استخدامها مشتركة مع هذا الفناء وتحول الجامع إلى تركيبة من المدارس بعد الإجراءات والتعديلات الـتي قـام بهـا كـل مـن سكان باشا وقره «أحـمد باشا وقادرجة صقوللى» في المجمَّـع، وأصـبح لهـا طـابقين لإلقاء الدروس، وفي الحافة الشرقية للفناء توجد حجرات وغرف الموالى، وهي على نفس الأبعاد تقريبا. وبالنسبة للغرف في الناحية الشمالية والغربية فهـي ذات أبعـاد متعددة وتغطيها قبة أو قنطرة، وتم رفع هذه المدرسة التي كانت على أربعـين درجـة إلى خمسين درجة. وتم إنشاء الحـمام في صورة الحـــمام الأثـري المشـترك، ويبـدو في الركن الشمالي الشرقي لهذا المجمَّع، مع تخصيص القسم الشـمالي للنسـاء والقسـم الجنوبي للرجال، وهذين الحـمامين تتخللهما الأنوار العديـدة مـن خـلال النوافـذ والشرفات التي تتلألأ كالنجوم في حلقات وأقسام للبارد والدافئ[٢].

---

(١) المرجع السابق.

٢) Islam Ansiklopedisi, Turkiye Diganet Vakfi, C. 15, Istnabul, 1997, S. 124.

وعـن المدرسـة الابتدائيـة فهـي عبـارة عـن مسـبك ذو قبـتين علـى الطـراز الكلاسيكي تم تشييده بـين الحـمام والمدرسـة الكـبيرة تغطـى جدرانـه بـالطوغلى والمولوز[١].

وأما المستشفى فهو مبنى تم تشييده في صورة مربعة وجدرانـه مغطـاة بـالمولوز والطفلى تماما ولـه قبتـان أيضـا، وطبقـا لإشـارات الوقفيـة، فـإن المـوظفين بهـذه المستشفى هم جراح واثنان مـن أطبـاء العيـون وخـبير أمـراض عقليـة وصـيدليين ومساعدين، وأربع ممرضات بالتناوب ليلا، وإداري وكاتـب واثنـان مـن الطبـاخين وغسالة، ولا يزال هذا المستشفى موجود في صـورة متحـف صـحي. وأمـا المطعـم الذي تبوأ مكانه في الجانب الغربـي للجـامع فيتشـكل مـن مطـبخ، ودورة، ومحطـة ومخزن ولم يتم تعرض هذا المبنى لأي تخريب قـط، وتجـاوره التكيـة الـتي أصـبحت أطلالا منـذ عـام «١٣٥٤ هــ/ ١٩٣٥م»، فقـد تحولـت إلى مسـميات أخـرى مثـل المدرسة والمدرسة الخارجية وتعرضت للترميم مرات عديدة[٢].

وقد توفيت حفصة سلطان عام: «٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م»، ودفنت في اسطنبول في مسجد السلطان سليم[٣].

- **خديجة رامي قادين:**

كانت الزوجة السادسة للسلطان محمود الأول، ابتنت مدرسة وسبيل وعين ماء أمام جسر بشيكطاش باسطنبول[٤].

- **خديجة طورخان والده سلطان:**

زوجة السلطان إبراهيم، وأم السلطان محمد الرابع، وهي من أصـول أوكرانيـة فقد أسرها التتار في إحدى غاراتهم على أوكرانيا وهي في الثانية عشرة من عمرهـا،

---

١) المصدر السابق: صـ ١١٢ .

٢) المصدر السابق: صـ ١٢٤.

٣) كان يقوم بتقديم الطعام مجانا للفقراء وطلبة المدارس انظر Pakalin,c.1,s.730. Erdem Yucel s.47, ve, Cagatay, Padisahlarim, s.2930.

٤) ماجدة مخلوف، الحرم، صـ ٢١.

وقدموها هدية إلى كوسم سلطان، فأشرفت على تربيتها، ثم قدمتها هدية إلى ابنها السلطان إبراهيم، فأنجبت له ابنه محمد، ثم أصبحت والدة سلطان ونائبه للسلطنة عندما تولى ابنها العرش وهو في السابعة من عمره، ومن أعمالها الخيرية استكمال بناء الجامع الجديد الذي بدأته صفية سلطان، كذلك بناء مدرسة ودار الحديث، وسبيل، وعين ماء، وسوق، وبناء قلاع على بوغاز «جناقلعه»[1] من مالها الخاص والجامع المجاور لها، وأوقفت بعض الكتب على هذا الجامع، ولها وقفية مؤرخة: «١٠٧٤هـ / ١٦٦٣م»[2].

- **خورم سلطان:**

زوجة السلطان سليمان القانوني، وهي أيضا من أصل سلافي، فأبوها راهب أوكراني، وقد وقعت أسيرة في أيدي تتار القرم في إحدى غاراتهم، فقدموها هدية إلى القصر السلطاني، فانضمت إلى الحريم كجارية ثم أصبحت زوجة للسلطان سليمان القانوني، وقد أوقفت كل أملاكها، كما ابتنت هي وابنتها مهرماه سلطان جامعاً، ومدرسة، وحماما، وقصرا للقوافل، وعددا من الأسبلة، كما ابتنى لها المعماري سنان، كليةً اشتهرت باسم «خاصكى» وتضم مستشفى وعمارة، ومدرسة للصبيان، وسبيلا، كما ابتنى لها أيضا حمامان يحملان اسمها، يعتبران نموذجا لعمارة الحمامات العثمانية، وقد توفيت عام: « ٩٥٦هـ / ١٥٥٨م» ، ودفنت في فناء جامع السليمانية في مقبرة تحمل اسمها[3].

- **دايا خاتون:**

وهي مربية السلطان سليمان القانوني، ولها جامع في حي داود باشا[4].

---

١) "بو غاز جناقلعة" هو الاسم التركي لمضيق الدردنيل، و«جناق قلعه» مدينة تركية تقع على الجزء الجنوبي من بحر مرمرة، ويصل بين أراضيها الموجودة في آسيا وأوروبا بوغاز، وهو تعبير من علم البحار، ويعني المضيق المائي الصغير أو المدخل، ويحمل هذا البوغاز اسم المدينة لدى الأتراك، انظر يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية صـ ٦٥٦. والموسوعة الحرة ويكيبديا (الدردنيل).

٢) ماجدة مخلوف، الحرم، صـ ٤٥.

(٣) Cagatay ,a.g.e. S. 34, وماجدة مخلوف، الحرم، صـ ٤٥.

(٤) المرجع السابق: صـ ٤٧.

- **شمس رخسار قادين:**

كانت جارية للسلطان مراد الثالث ثم تزوجها، لها وقفية مؤرخة ١٠٢٢هـ جاء فيها أن «صاحبة الخيرات والحسنات، وراغبة الصدقات والمبرات شمس رخسار خاتون بنت عبد الغفار، أوقفت مبلغ ألف ومائة على ثمانية أشخاص يقومون بتلاوة القرآن الكريم على زوجها في المسجد النبوي في المدينة المنورة».

- **شب صفا قادين:**

الجارية السادسة للسلطان عبد الحميد الأول، ولها جامع، ومدرسة للصبيان مبنيان بأسلوب الباروك(١).

- **صفية والده سلطان:**

كانت زوجة للسلطان مراد الثالث، ثم أصبحت والده سلطان عندما اعتلى ابنها محمد الثالث العرش سنة «١٠٠٣هـ/ ١٥٩٥م» التحقت بالحريم وهي في الخامسة عشر من عمرها، فقد قدمت كجارية هدية إلى مراد الثالث عندما كان أميرا في مغنيسيا، فأعجبه ذكاؤها وجمالها فتزوجها، توفيت عام: « ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م» عن ثمان وخمسين عاما؛ ودفنت في قبر السلطان مراد الثالث في آيا صوفيا. وأهم خيراتها الجامع الجديد في اسطنبول، وجامع آخر في إحدى قرى إسكودار، وعين ماء وسبيل(٢).

---

١) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، صـ ١٤٨.

أسلوب الباروك: اصطلاح مستعمل في فن العمارة والتصوير، معناه الحرفي: شكل غريب، غير متناسق، معوج. وقد ظهر هذا الفن أول مرة في روما في السنوات الأخيرة من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. ويتميز الأسلوب الباروكي بالضخامة، ويمتلئ بالتفاصيل المثيرة. وكان فنانو الباروك يغرمون بالجانب الحسى للاشياء ويعتنون في وصفها بتفصيل وتنميق، وكانت إيطاليا وعاصمتها روما في القرن السابع عشر هي المركز الرئيسى للنشاط الفنى الكبير، كما كانت أهم مصدر للفنون في أوروبا. انظر:
Martin Shaw Briggs: **Baroque Architecture**, T: Fisher Unwin, London 1913, P: 21

٢) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، صـ ١٤٨. و Cagatay,a.g.e. s.44
.

- **قمر خاتون**

مربية السلطان سليم الأول، ولها جامع في بك أوغلو، ومدرسة للصبيان بجوار«يدى قوله» في اسطنبول[١].

- **كّل فَم خاتون:**

إحدى زوجات السلطان سليمان القانوني، انضمت إلى الحريم باعتبارها جارية، ثم صارت زوجة للسلطان، وكانت وفاتها عام « ٩٦٩هـ / ١٥٦١م» ابتنت جامعا وعمارة في أسكودار، ورتبت وقفية لهما في عام: « ٩٦٨هـ / ١٥٦٠م» لصرف رواتب إمام وخطيب الجامع والمفسر وسبع من القراء، وهذه الأوقاف عبارة عن: أربع وعشرين غرفة في أحد أحياء اسطنبول، وعشر غرف أخرى، ومنزل وأربع دكاكين وستة منازل أخرى بجوار حمام: «الآجه» وخمسة بيوت في حى جلبى أوغلي، ومخبز وثلاثة بيوت ومحل قصاب بجوار قصر قوافل المولى الكورانى، وحديقة في أسكودار وبيت في غلطة، ويؤخذ من هذه الأوقاف لتوفير الطعام اللازم للعمل يوميا، وهو عبارة عن خمسة عشر أوقية من اللحم، وأحد عشر كيلة ونصف من القمح لعمل الخبز، ويقدم القمح المطبوخ مرة كل يومين، وكذلك يقدم طوال شهر رمضان وفى ليلة الجمعة من سائر شهور السنة، كيلتان من الأرز، والعسل والملح والزعفران والحطب[٢].

- **كل نوش أمه الله والده سلطان:**

أصلها من جزيرة كريت، قدمها ولى خسرو باشا هدية إلى القصر العثماني بعد فتحه قلعة راسمو Rasmo ، فأصبحت خاصكي للسلطان محمد الرابع بعد أن أنجبت السلطان مصطفى الثاني، ثم أصبحت والده سلطان بجلوس ابنها على العرش عام: «١١٠٦ هـ/ ١٦٩٥م»، ومن فرط حبّ زوجها لها، أطلق اسمها على كل الجوامع التي كانت كنائسا في لهستان «بولندا» بعد فتحها. كانت سيدة متدينة

---

١) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، صـ ١٤٩.

(٢) Padisahlarin.. , s.37,37/5 Cagatay

وذات خيرات، ابتنت عمارة باسمها في مكة المكرمة، كما وفرت عيون الماء والسبلة على طريق الحج، بالإضافة إلى المنشآت التي تحمل اسمها والتي أقامها لها ابناها السلطان مصطفى الثاني، والسلطان أحمد الثالث، وهي عبارة عن جامع في حي غلطة باسطنبول، وكلية تضم جامعا وعماره ومدرسة للصبيان وموقتخانه وسبيل وعين ماء[1].

- **ماء بيكر كوسم والده سلطان:**

زوجة السلطان أحمد الأول، وأم السلطانين مراد الرابع وإبراهيم. وهي ابنة قسيس، قدَّمت هدية إلى السلطان أحمد الأول فتزوجها بعد أن أسلمت، وهي سيدة ذات خيرات كثيرة، فقد كانت تؤدى ديون المعسرين، وأنفقت على زواج كثير من الفتيات الفقيرات والجواري. لها جامع في أسكودار[2] مشهور باسم الجامع ذو الخزف، مزين بأفخر أنواع البورسلين والخزف، ويعتبر تحفة فنية رائعة، وابتنت أيضا حماما ومدرسة للصبيان وسبيل وعين ماء، ولها وقفية مؤرخة: «١٠٥٠هـ / ١٦٤٠م» أوقفت فيها أموالا كثيرة للإنفاق على الفقراء الذين يقيمون على الطريق إلى مكة المكرمة، وكانت هذه الأموال ترسل في كل عام مع الصرة. كما أن لها خيرات أخرى كثيرة في مكة المكرمة والمدينة المنورة. لها خان كبير معروف باسم خان الوالدة أوقفته للإنفاق على الجامع ذو الخزف، ماتت سنة: «١٠٦١هـ/ ١٦٥١م»[3].

- **مهرشاه والده سلطان:**

كانت كبيرة زوجات السلطان مصطفى الثالث، ثم أصبحت «والده سلطان» عندما تولى ابنها سليم الثالث العرش، وهي سيدة ذات خيرات، ابتنت عدداً من المساجد في جميع أحياء اسطنبول، ومدرسة، وسبيل، وعين ماء بنتها ترحما على

---

(١) VakiflarYapan Kadinlar 2 , Mari1971, S. 45..

(٢). هي إحدى بلديات محافظة اسطنبول حالياً، تقع على الجزء الجنوبي من الضفة الشرقية لمضيق البسفور. انظر الخريطة في الملاحق.

٣) شمس الدين سامي، قاموس الإعلام، جـ ٥، صـ ٢١ .

روح واحدة من جواري الحريم تدعى زينب أوسطى، كانت تعمل خبيرة طاهية في الحريم. وقد أوقفت أيضا عددا من عيون الماء في أنحاء متفرقة من اسطنبول، وخصصت لهذه الخيرات أوقافا كثيرة في مقدمتها العمارة الواقعة بجوار قبر أبى أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وإلى جوارها سبيل وعين ماء، ولها وقفية تتضمن: «أنه في يوم الخميس من كل أسبوع، وأيضا يوميا طوال شهر رمضان، تقدم ٨٣ أوقية أرز، و١٢٣ أوقية من لحم الغنم، و ٥٠ أوقية من العسل الصافي لإطعام الفقراء . وكانت تدفع رواتب العمال - معلمين وشيخ المقرئين والحارس- الذين يعملون في المدرسة الواقعة بجوار ضريح سيدنا خالد رضي الله عنه، ومقدارها ثلاثمائة وثلاثين قرشا شهرياً، وكذلك رواتب طلبة المدارس، كما يصرف لهم ما يلزمهم من الملابس، وأنشأت أيضا مكتبة داخل جامع أبي أيوب الأنصاري[1].

- **نازيرور قالفه:**

مربية السلطان سليم الثالث، ولها مدرسة للصبيان وسبيل ماء في داود باشا في اسطنبول[2].

- **نقش دل والده سلطان:**

هي والدة السلطان محمود الثاني «١٢٢٣- ١٢٥٥ هـ / ١٨٠٨ – ١٨٣٩م»، ومن خيراتها مدرسة للصبيان وسبيل في حي الفاتح، وعدد من عيون الماء في أماكن متفرقة من اسطنبول، وعمارة لإطعام الفقراء[3].

- **نوربانو والده سلطان:**

كانت كبيرة زوجات السلطان سليم الثاني، ويذكر أنها كانت يهودية انضمت إلى الحريم في سن صغيرة، وتربت بداخله، وقد جذبت اهتمام السلطان سليم الثاني بجمالها، فتزوجها، ثم أصبحت والدة سلطان عندما تولى ابنها السلطان الحكم. وقد

---

١) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، صـ ١٥١ .

٢) نفس المصدر السابق، صـ ١٥١.

(٣) Erdem. s. 47.Ve Vagatay,a.g.e. s.107, 108.

ابتنت مدرسة في اسكودار تعرف باسم «والده عتيق» أوقفتها لأعمال الخير، وتضم هذه الكلية جامعا ومدرسة، ومستشفى، وعمارة، وحمامات، ومدرسة للصبيان، وكلها من آثار المعماري سنان، وقد جمعت نوربانو في هذا الجامع أجمل نماذج فن الخزف العثماني، وأوقفت عليه أوقافا غنية، منها حمام كبير، وحمامان آخران في قلب اسطنبول، وحمام آخر به حوض، كما أنشأت سبيل ماء لخدمة هذه الكلية فكانت تجلب له الماء من ثلاثة منابع واقترنت به مؤسسات اجتماعية ودينية[1].

- **هند خاتون:**

وهي مرضعة السلطان محمد الفاتح، ولها أوقاف كثيرة بالقرب من المنطقة المعروفة باسم محمود باشا في اسطنبول.

وقد تناولنا فيما سبق بعضا من الإسهامات والإنجازات الهامة التي قامت بها نساء السلاطين العثمانيين، وتعرضنا للتقسيمات الخاصة بهن من مواقعهنّ داخل الحرم الهمايوني، واعتباراً من نهاية فترة السلطان محمود الثاني: «١٢٢٣ هـ/ ١٨٠٨م – ١٢٥٥ هـ/ ١٨٣٩م» في القرن التاسع عشر، بدأت نساء القصر العثماني في الخروج خارج الحرم، وارتداء الملابس الخاصة بهن، والذهاب إلى بعض الأماكن الخاصة، والقيام بجولات مختلفة، فقد روت الكاتبة الأمريكية ماري باتريك التي زارت اسطنبول في عهد السلطان عبد العزيز كيف كانت نساء الحرم يخرجن للنزهة في عربات مذهبة تجرها الخيول ذوات السروج المذهبة أيضا، وربما مرت في وسط الأسواق العامة والحوانيت الكبرى، وتقصد أحيانا جسر غلطة لتسرح وتمرح كما تشاء في الضواحي، حيث يتاح للحريم الاستمتاع بأكبر قسط من الحرية، وكان الخصيان السود هم من يتحكمون في سَوْق هذه العربات، ويتشرفون وحدهم بالخروج مع الحريم للنزهة، ولم يكن عدد نساء الحرم حينها قليلا أو محدودا، فقد بلغ حريم السلطان عبد العزيز تسعمائة امرأة، حتى أن الوزراء طلبوا من السلطان

---

(١) Erdem, s. 48

إنقاص عدد جواريه؛ لأن نفقاتهن ترهق الخزينة، فوعد ولكنه لم يف بذلك، ولم تسلم الدولة من تدخلات هذا العدد من الغانيات(١).

وهكذا لم تكن النساء فى الحريم يعشن حياة مغلقة تماماً، فلقد كن يتمتعن بأنواع من التسلية، كالخروج للتنزه في الصيف، وبعض الهوايات الموسيقية الخاصة، ففى الصيف كانت هناك رحلات قصيرة خارجية، على الشواطئ، وكانت تنصب الخيام هناك، وتعد طرق السير، والتأمينات الضرورية حتى لا يختلط الجنسان، ويمكن للنساء والعبيد السير بحرية بدون أن يلاحظهن أى رجل ممن ينضم إلى الرحلة، ولكن يقيم خارج حدود معينة، وكانت تلك الإجراءات تحدث أيضاً عند اجتماع العائلة فى حدائق القصر، ويشرف على تنظيم تلك الرحلات السكرتير الثانى للسطان، وكانت زوجات السلطان وبناته والعبيد والخدم يركبون العربات وينطلقون إلى مكان النزهة، ثم يتبعهم الأغوات على ظهور الخيل(٢).

وفى إجراء استثنائي قام السلطان محمد رشاد بإحضار زوجته وسيدة القصر في مراسم الحفل الذي أقامه «لاشفافه» ملك البلغار وزوجته الملكة، أما في عهد السلطان عبد الحميد فقد بات واضحاً للجميع اهتمام السلطان بزوجتيه عائشة وشادية، وكانتا قريبتين منه كثيراً، ويخصص لهما عناية خاصة واهتماماً بالغاً. ويصور الكتّاب الغربيون حياة الحرم قبل وبعد هذه الفترة بصور من ضرب الخيال، ولكن من الواضح أن حياة النساء في الحرم الهمايونى كانت منضبطة أكثر من الحياة في قصور الغرب(٣).

وتأتى الجواري على رأس نساء الحرم في اهتمام الكتاب والمؤلفين بهنّ، حيث شكلن موضوعاً خصبا لآثار ومؤلفات فنية عديدة، تحدثت بصورة أكبر عنهن من

---

١) ماري ملز باتريك، سلاطين بني عثمان الخمسة، تعريب حنا غصن كامل ، كامل صموئيل، مطبعة صادر ١٩٣٣ م، صـ ٣٥.

٢) Women and the Ottoman Empire, The Imperial Harem, Leslie P. PERCE, New York - Oxford, Oxford University Press- 1993 . P: 615

٣) Islam Ansiklopedisi, Turkiye Diyanet Vakfi, C. 16 Istanbul, S. 136 .

بين نساء الحرم السلطاني، فهناك مؤلفات تناولت الحقيقة التي تؤكد أن الحروب كانت المصدر الأساسي للجواري، لكن بعد فترة أصبح هذا المصدر غير كاف، وبدأ الحديث عن الجواري التي تباع وتشترى. والجواري التي كانت تدخل القصر العثماني، كان يتم تربيتهن على أصول إسلامية فيتعلمون العلوم الدينية، والقراءة والكتابة، ثم يتم منحهن دروسا في الموسيقى والنحت والحياكة تبعاً لقدرتهن، وقد يتعلمن كيفية إعداد المائدة للطعام. وكان للمرأة العثمانية في القرن التاسع عشر دوراً هاماً، حيث عملت من خلال وظيفة معلمة لخدمة الدولة، وطلبت المرأة التركية في هذه الفترة بالمساواة حتى تجد إمكانية في التربية والتعليم، حتى أن شعراء وكتاب ذلك العصر نادوا بحرية المرأة وعلى سبيل المثال فإن «توفيق فكرت» -كاتب وشاعر تركي يقول: إذا كانت المرأة بائسة فإنها ستنتج البؤساء[١].

وكانت النساء في عصر السلطان عبد الحميد في القرن التاسع عشر يتجولن في المدينة بالعربات والمركبات، وكانت جولات السيدات بهذه العربات تبعث البهجة على نساء الحرم، وتأتى بنات السلطان في بداية الجولة ومن ورائهم الجواري صاحبات لقب «الأسطى» ثم بعد ذلك تأتى «القالفة»، ثم الجواري والباقيات، ويوجد في الحرم السلطاني مجموعة من العازفات على الآلات المختلفة، وكان لهم اهتمام خاص بها، حتى إن اللاتي يتقدمن في عزف آلة القيثارة ترقي إلى منصب القالفة[٢].

وفي عصر التنظيمات بدأ التطور الفكري والاجتماعي الحر بين أفراد الرعايا العثمانيين وأصبحت هناك إمكانات لفتح مدارس جديدة لتعليم الفتيات، وكذلك أصبح بإمكان المرأة الدخول ضمن الكيانات المثقفة، وتأثرن بتعليمهن الدينى في حياتهن. وفى عام: ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م تم افتتاح أول مدرسة ثانوية للفتيات،

---

١) المصدر السابق: صـ ١٣٧.

٢) Islam Ansiklopedisi, A.g.e. S. 136.

بالإضافة إلى وجود مدارس إعدادية لهن أيضاً، فتطور دور المرأة بعد ذلك في المجتمع العثماني وكان لها دوراً اجتماعي في خدمة المجتمع[١].

ونساء القصر العثماني، وخلافا للمرأة العثمانية العادية، عشن عيشة اتسمت بالبذخ والترف في الملبس والمأكل والمشرب، واعتمد الباحثون في تقصي الحقائق عن حياة المرأة داخل القصر العثماني على سجلات ممتلكاتهن مستعينين بالنقوش المكتوبة أحياناً على المباني المملوكة للمؤسسات الخيرية ما سمي بسجل «ستانجيباش دفتر ليرى» ويشمل قائمة بأهم القصور المطلة على بحر البسفور حوالى عام: «١٢١٤هـ ١٨٠٠م»، وهي تضم القصور المملوكة للأميرات وللنساء الحضريات الثريات، بالإضافة إلى ذلك فإن بعض سيدات القصر تركن أعدادا كثيرة أو قليلة من الرسائل، كما أنه لا تزال هناك بعض قوائم الهدايا القيمة التي حصلت عليها الأميرات بمناسبة زواجهن، وغالبية تلك الوثائق موجودة في أرشيف قصر طوب قابي، وفي حالة الملكية مدى الحياة، نجدها في أرشيف باشا كانليك والأرشيف العثماني في اسطنبول. ومنذ عام: «١١١٤ هـ/ ١٧٠٣م» حين اضطر أحمد الثالث إلى التعهد بأنه من الآن فصاعداً سوف يعيش في اسطنبول، بدأت بناته، وفيما بعد أيضاً السلالة النسائية لباقي السلاطين، في لعب دور هام في تكوين الصورة العامة للأسرة الحاكمة. وقد انعكس ذلك في القصور الأنيقة المطلة على شواطئ البسفور التي وهبت لهؤلاء الأميرات في كثير من الأحيان بعد ميلادهن بوقت قصير، أو على الأقل حين يتم تزويجهن للوزراء في سن صغيرة، حيث أن أزواج الأميرات كانوا في كثير من الأحوال يرسلون إلى الأقاليم، في حين تبقى الأميرة بالعاصمة، وبالتالي أصبحت تلك العمائر الأنيقة مرتبطة بساكناتها الدائمات[٢].

---

١) Osmanli Imparatorlugu ve Modern Turkiye, S. 93 .

٢) Osmanli Pevletininsaray Tesilati. Ismail H. Vzuncarsi (I, Ankar, 1984 .s 116). مع الاستعانة بترجمة عايدة سيف الدولة لمداخلة ثريا فاروقي عن: النساء في العالم العثماني، منتصف القرن الثامن عشر إلى أوائل القرن العشرين. مرجع سابق.

وقد انعكس هذا الأمر في الهندسة المعمارية فكثيراً ما كان قسم الحريم أكثر أناقة من ذلك المخصص للوزير وزواره من الرجال، والأرجح أن ذلك الرقي الاجتماعي اعتبر أمراً ضرورياً حيث كثيراً ما كان السلاطين يزورون بناتهم أو أخواتهم على شواطئ البسفور. كذلك فإن بعض الأميرات اهتممن كثيراً بإعادة بناء قصورهن لذلك قامت «هاتيس سلطان» ، شقيقة سليم الثالث، بتكليف المهندس الفرنسى «أنطون ايغانس ميلينغ» ببناء أولى مباني اسطنبول على الطراز الكلاسيكي الجديد، والمراسلات التي دارت بين هذه الأميرة وفنّان بلاطها، المصمم متعدد المواهب، ميلينغ، ما زالت موجودة، وكانت زوجة الأخير تقوم بدور الوسيط. وفى حالة وفاة أية أميرة لا ينتقل قصرها إلى ملك ورثتها، وإنما كان يعطى كمحل إقامة رسمي لأميرة أخرى. وعلى العكس من رفيقات السلطان اللاتي كنَّ يعشن في القصر، وكانت لهم صلات قليلة بالعالم الخارجي، فإن بعض بنات وأخوات سلاطين القرن الثامن عشر المتزوجات كن قادرات على خلق شخصية عامة لأنفسهم، وقد شمل ذلك ظهورهن في الفنون، لذلك فقد أهدى الشاعر المولوي – الشيخ غالب – بعض من أعماله إلى بيهان سلطان: (١١٧٨هـ/ ١٧٦٥م- ١٢٣٩ هـ/ ١٨٢٤م) وهي إحدى أخوات سليم الثالث، وقد شاركت أخاها اهتمامه بالفنون[١].

وقد تم إعطاء الدروس الموسيقية للواعدات من فتيات الحرم بعد تخصيص رفقة ملائمة لهن، وذلك على أيدي أفضل المدرسين البارزين الموجودين، وكانت تلك الدروس تتناول الموسيقى العثمانية والأوروبية. وقد ظل التدريب الموسيقى حتى نهاية تلك الأسرة الحاكمة أمراً هاماً بالنسبة لأقارب السلاطين من النساء اللاتي كان يتم تصويرهن جنباً إلى جنب مع أدواتهن الموسيقية. كما وأسست بعض نساء الأسرة العثمانية مؤسسات دينية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر[٢].

١) Stanford Shaw, Osmanli Impararorloğu Ve modern Türkiye S. 130

٢) المصدر السابق: صـ١١٠ .

لقد ركزت العديد من الدراسات على دخول الصيحات أوروبية الطراز إلى الدوائر الخاصة للميسورات من النساء، وقد عرف هذا النمط من الحياة باسم كوشك حياتي، وبداية من ثمانينات القرن التاسع عشر كانت هؤلاء النساء والأميرات أيضاً يرتدين الملابس المستلهمة من الطراز الفرنسي في المنزل، وفى الحفلات الخاصة مع تغطية تلك الملابس بالمعاطف والحجاب عند الظهور في مكان عام. وقد كانت تلك السنوات هي التي شهدت بعض النساء لأول مرة ارتداء «الشيف» الأسود الذي يحيط بكل شيء، والذي لم يكن يوماً جزءاً من اللباس العثماني التقليدي، بل إن واقع الأمر هو أن السلطان عبد الحميد كان قد منع ارتداء هذا اللباس على مقربة من أسوار القصر لأنه كان يرى فيه خطر أمنياً. ومن المثير للاهتمام بشكل خاص هو أنه لم يحدث تبين كامل للصيحات الأجنبية بل تم المزج بينهما وبين عناصر من أنماط الملابس القديمة، وبالتالى فقد نجد ثوباً عثمانياً مزخرفاً بتفاصيل مأخوذة من الموديلات الفرنسية، أو قد يكون القماش محلياً ويتم تفصيله باستلهام أجنبي. إن هذا النوع من المزاوجة بالإضافة إلى الفوارق في خطوط الموضة بين جيل وآخر يمكن استقراؤه من الصور التي التقطت في استوديوهات التصوير التي انتشرت بين العائلات العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين وتتفق تلك الملاحظات مع ما سبقها من أن صناعة النسيج العثمانية لم تنهار مع دخول المنتجات الأجنبية المصنعة آلياً إلى سوق الشرق الأوسط بل إن الكثير من المنتجين تمكنوا من الاستمرار بسبب قدرتهم على الاستجابة للأذواق المحلية[1].

---

(١) Turkiye Tarihi, 111. Osmanli Donemi (1 s66 – 1130). Dr. Yasary Uce, Dr. Alisenim, Ankara. 1991, s. 111.

وهناك نوع آخر من الاستهلاك لم يقدر عليه سوى الأثرياء، ألا وهو امتلاك العبيد، وقد خصصت «ليلى ساز[١]» فصلاً من مذكراتها لعبيد المنازل في بيوت الصفوة من سكان اسطنبول، والذى كان شأنا أنثويا. وكانت نساء العبيد من الأفارقة عادة ما يتم تشغيلهن كخادمات، على حين كان الملاك من الذكور يفضلون النساء القوقازيات كمحظيات. وحيث أن ذلك التفضيل سرى أيضاً على حريم السلطان، فقد حدثت اتفاقات غير معلنة مع الأسر الشركسية المقيمة في الأناضول التي لم تكن تعاليم الدين الإسلامي الحنيف قد رسخت فيها بما فيه الكفاية، من أجل بيع بناتها في سوق العبودية، ومعلوم بالضروة أن استعباد مواطني أي حاكم مسلم، بغضّ النظر عن عقيدته ممنوعاً بحكم الشريعة السمحة، وأن الاسترقاق محدود في أسرى الحرب، وكأحد الخيارات المتاحة فقط. ورغم منع تجارة العبيد السود عام: ١٢٩٢ هـ/ ١٨٧٥م إلا أنها استمرت بشكل غير رسمي خلال القرن التاسع عشر، وإن كان العدد قد انخفض بدرجة كبيرة. ومن بين المثقفين ساهم الكتاب العثمانيون بداية من سبعينات القرن التاسع عشر في تحريم تلك الممارسة. وفيما يخص العبودية في إقليم أنقرة ما بين حوالي عام ١١٩٩ هـ/ ١٧٨٥م، وعام ١٢٨٧ هـ/ ١٨٧٠م كان المعتاد بين الموسرين، كما في ذلك القلة من رعايا العثمانيين من المسيحيين أو حتى المقيمين من الأجانب، أن يحصلوا على العبيد رجالاً ونساءً، عن طريق تجَّارِ عبيد مصرح لهم، ورغم أنه يبدو أن غالبية مالكي العبيد كانوا من الذكور إلا أنه من الموثق أن بعض النساء كن يملكن العبيد، وكان الكثير من هؤلاء يوصف بأنه آت من «عرب وأسم» وهو مصطلح يفترض أنه يشير إلى السود، وسكان القوقاز «أسم» والذين كانوا أحياناً يوصفون بقدر أكبر من الدقة بأنهم جورجيون. وظهر في الأقاليم العربية في الدولة العثمانية أن الصلات كانت

---

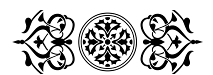
١) ليلى ساز ابنة أحد أطباء السلطان عبد الحميد الثاني، هيأ لها قربها من القصر ونشأتها بالحرم العثماني كرفيقة لإحدى الأميرات، فرصة متميزة، فكانت كاتبة وشاعرة، ولها مذكرات تتناول الحياة في تلك الفترة (١٢٦٦ هـ/ ١٨٥٠م – ١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٥م). انظر ثريا فاروقي، مرجع سابق.

تعقد فيما بين وداخل مجموعات النخبة عبر علاقات المصاهرة من خلال الزيجات. وحين كانت تدور المفاوضات بشأن تلك الصلات كان سن العرائس الصغير يحول بينهن وبين أن يكون لهن رأى في الأمر. لكن من بين هؤلاء كانت هناك بعض النساء اللاتي تمكن في مرحلة لاحقة من حياتهن من الدفاع عن ميراث أسرهن، ومن ثم تبوأن مواقع ذات سلطة في تلك الأسر أما بالنسبة للبلقان والأناضول، فإن عدد الدراسات التي بحثت في دور النساء في أسر أعيان الحضر والريف أقل بكثير. مع ذلك فهناك مقال عن أسرة بيانى من شبه جزيرة المورة، جنوب اليونان، والتي انضمّ ربّ الأسرة إلى انتفاضة شبة الجزيرة بعد نزول فريق روس في عام ١١٨٤ هـ/ ١٧٧٠م، واضطر نتيجة لذلك إلى الفرار حرصاً على حياته فقد كان لهذا الشخص إحدى القريبات التي بقيت في المنطقة العثمانية وتمكنت في النهاية من استعادة جزء لا بأس به من الميراث المفقود، وهناك أيضاً نساء أخريات عرف عنهن أنهن ساهمن في مؤسسات عائلية، الأمر الذي يفترض درجة من التحكم في ممتلكاتهن الخاصة، بل وأيضاً في مصيرهن[١].

ونجد في بعض طرق الدراويش أنه يمكن لزوجة شيخ ذي سلطة كبيرة أن تتبوأ هي الأخرى وضعا ذا نفوذ. وبالتالي فإن مثل تلك الشخصية بين أعيان اسطنبول كان يمكن أن تتحمل بعض المسئولية فيما يخص النزلاء والضيوف، ومن ثم تصبح معروفة باسم «أم الدراويش» أما النساء الأخريات من سلالة شيوخ الدراويش فقد يرثن مناصب كمديرات للمؤسسات، وإن كان يكاد أن يكون من المستحيل أن يحدد حجم السلطة الحقيقة التي تتيحها تلك المناصب لشاغليها. وفيما يخص النساء اللاتى تمكن بقدر من الثراء أو المكانة الاجتماعية، فقد أثارت الظروف التي تمكن فيها من تمثيل مصالح الأسرة في مواجهة السلطات العثمانية اهتماما كبيراً وكان يمكن لهذا التمثيل أن يحدث في الحالات التي يكون فيها الأزواج عاجزين بسبب مشاركتهم في الحرب أو بسبب المرض أو السن المتقدمة. هذا وقد تم التوثيق بشأن

(١) Turkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi, cilt 18. Istanbul, 1998. s . 42.

النساء اللاتى كن يمثلن مصالح أسرهن بالأساس حين كن يلجأن إلى الإدارة المركزية للشكوى من أشكال الظلم التي وقعت على أقاربهم من الرجال، أو بدرجة أقل أقاربهن من النساء، وذلك من الأعداء المحليين الذين نكاد لا نملك بشأنهم أية معلومات موثقة، مما يتهمون به من ابتزاز وتخويف، وفى أحيان أخرى حتى بالقتل. ومن الجدير بالذكر أنه في القرن الثامن عشر على الأقل لم يكن باقي الأقارب من الرجال يتدخلون تلقائياً للدفاع عن مصالح الأسر التي كانت تحرم من عائلها لسبب أو لآخر(١).



(١) Turkuge Diyanet. Vakfi Islam Ansiklopedisi, S. 119. S. 181.

المبحث الثالث

دور المرأة في الحياة الاقتصادية

دور المرأة

في الحياة الاقتصادية:

قامت المرأة في الدولة العثمانية بدور كبير في المجال الاقتصادي، وقد عملت على مساعدة الفقراء وإقامة المستشفيات والمدارس والمجمَّعات الخيرية والأوقاف، مما كان له الأثر الكبير في اقتصاد الدولة، وقد تفاوتت هذه الجهود والأدوار من سيدة لأخرى، كل بحسب مكانتها وقربها من السلطان وكبار الدولة، وقد وصلت بعض النساء في سلك موظفات الحرم، حتى أصبحت مسئولة عن خزينة السلطان[1].

وقد أسهمت الأوقاف بدور كبير في المجتمعات الإسلامية سواء في الجوانب الاقتصادية أو غيرها، وكان لها أثرها في هذه المجتمعات باعتبارها مؤسسة دينية[2].

والوقف من أعمال البرِّ الشائعة في المجتمعات الإسلامية باعتباره صدقة جارية، لما ورد فيها من ترغيب يطمع فيه كل مؤمن، قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[3]، وقد اتسعت الأوقاف في الدولة العثمانية، وأصبحت شاهدا على الحضارة العثمانية، ومن الأوقاف شيدت الجوامع والمدارس والمستشفيات والمساجد ودور الكتب، وأقيمت الجسور والسدود والقلاع وبيوت الأرامل، والأيتام، مما كان له الأثر البالغ في تحسين الظروف الاقتصادية

---

١). حسام علي الخلاف: موقف الدولة العثمانية ط٢ ـ دار الهدى ـ بيروت ١٩٩٠ م.

٢). جمال بدران: الجواري والحظايا – ط١ ـ القاهرة – ١٩٩٣ م

٣). صحيح مسلم (٣ / ١٢٥٥) برقم: ١٦٣١.

والاجتماعية للمواطنين، وكان آغا البنات هو المسئول عن متابعة هذه الأوقاف، الخاصة بنساء الحريم(١).

وقد أسهمت نساء الحريم السلطاني وجواريه في هذه الأوقاف، فأنشأن كثيرا من المؤسسات التي أوقفت لأعمال الخير ، كما سبقت الإشارة إليه في المبحث السابق.

إن دراسة دور النساء في الأوقاف تخرجنا عن الإطار الاجتماعي لدراسة الأثر الاقتصادي للأوقاف على فئات المجتمع، على أساس أن النساء ليست فئة اجتماعية متجانسة، بل ينتمين إلى شرائح متعددة تختلف بحسب موقعها في الهرم الاجتماعي. وعلى أية حال فإن أهمية دراسة دور النساء في الأوقاف يرجع إلى محاولة الإسهام في مراجعة دورهنّ في الحياة الاقتصادية بصفة عامة، ومن خلال متابعة الآثار الاقتصادية للأوقاف على النساء، ومدى تعامل المرأة مع الوقف كنظام اقتصادي، فضلاً عن خصوصية وضعها بالنسبة للاستحقاق بريع الوقف، وكذلك استغلال النساء للعامل الاقتصادي في الوقف للتاثير في شئونهن العائلية. وإذا نظرنا إلى أوقاف النساء فإنه من الجدير بالملاحظة، تناسب حجم أوقاف النساء مع طبيعة أوضاعهن الاجتماعية، وضآلة حجم أوقاف الشريحة الدنيا من المجتمع بالمقارنة مع أوقاف نساء الشريحة الوسطى والشريحة العليا من نساء الأمراء والمتنفذين، مع ملاحظة ازدياد حجم بعض أوقاف نساء الشريحة الوسطى ـ في بعض الأحيان ـ عن أوقاف نساء الأمراء، إلا أن الغالب تناسب حجم الوقف مع الوضع الاجتماعي الاقتصادي للموقفة. وإذا كانت بعض أوقاف نساء الشريحة الوسطى قد استلمت على شكل عقارات أو رزق زراعية، فالملاحظ في أوقاف نساء المتنفذين وجود

١). جمال بدران: الجواري والحظايا – ط١ ـ القاهرة – ١٩٩٣ م: صـ ٦٧.

مساحات شاسعة من الأطياف الزراعية، فالمصونة حفصة حفيدة الخليفة العباسي[١] توقف في عام ٩٤٥ هـ: ٧٧٦ فدانا قطعة واحدة، فضلا عن حصص زراعية غير محدودة المساحة. وكذلك فاطمة بنت عبد الله الشركسية[٢] التي توفيت عام ٩٣٦ هـ/ ١٥٩٢ م، أوقفت جزيرة زراعية بالصعيد غير محدودة المساحة وازدياد مساحات الأراضي، هذا يعود إلى حوزتهنّ على الأموال اللازمة لعمليات الشراء، فضلا عن نفوذ المتنفذين اللازم لإتمام الشراء، واشتراك معظم الأوقاف هنا أيضا في الوقف على النفس وعلى النسل والذرية والأقارب. وبالنسبة لوضع المرأة في درجة الاستحقاق في الوقف، فلقد احتلت المرأة وضعا خاصا، ومتباينا على حد كبير، حيث حرم بعض الواقفين بناتهم من الدخول في الاستحقاق بأوقافهم مثل الأمير أحـمد بيك، أمير اللواء السلطاني الذي يوقف على أولاده الذكور فقط دون الإناث[٣].

وكذلك القاضي شهاب الدين الخطيب الذي حرم دخول البنات في الاستحقاق بالوقف، وإن كان قد شرط للإناث من ذريته السكن بموقوفاته، وهن عازبات أو أرامل، مع خروجهن من السكن إذا أتين بفاحشة أو تزوجن، وقد رأى بعضهم أن الذكر والأنثى سواء في ريع الوقف، وفي درجة الاستحقاق بالنظر، مع إمكان تولية النظر على وقفيته لابنته الكبرى مع شرط الحج. ويرى آخرون أن للذكر مثل حظ الأنثيين، أي: نفس قاعدة الوراثة في الفقه، كما نصّ عليه في كتاب الله العزيز: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ

١) آخر الخلفاء العباسيين بمصر هو المتوكل الثالث، وقد أسره السلطان العثمان سليم الأول بعد دخوله القاهرة وانتصاره على المماليك. انظر في أصول التاريخ العثماني صـ ٨٦.

٢) لم أحصل على معلومات إضافية عنها.

٣). محمد عفيفي، الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكشف، ١٩٩١، صـ ٢٤١.

ﭐﻟۡﺄُﻧﺜَﻴَﻴۡﻦِ﴾[١]، ولعل حرمان النساء من ريع الوقف وتركيزه في يد الذكور، كان المقصود به الحفاظ على ثروة العائلة، وعدم خروجه من محيطها عن طريق أزواج البنات. كما استغلت النساء ريع الوقف لدوام حياتهن العائلية، مثل المصونة ابنة الشمس محمد إبراهيم، التي أوقفت وقفها زوجها بشرط أن لا يطلقها أو يتزوج عليها، فإن طلقها أو تزوج عليها أو مات يكون ذلك الوقف خارجا عن استحقاقه، ويدخل في استحقاق الأولاد، وفي حالة هدوء الحالة العائلية، نجد بعض النساء مثل الحرمة جان تكلي تسقط عن زوجها الحق في نظارة وقف عمها، وهناك زوج آخر يخرج اثنين من المستحقين بريع وقفه ليدخل مكانهما زوجته وربيبته. وفي حالة عدم الاستقرار العائلي نجد الزوجة حُورسور ابنة عبد الله البيضاء تخرج زوجها الزيني خسرو بن عبد الله من النظر على وقفها ليحلّ محله آخر، وتعليل ذلك: «لما علمت لنفسها في ذلك من الحظ والمصلحة» وبطبيعة الحال وجد من الرجال أمثال الشيخ أبي العباس أحمد الاستانبولي الذي يشترط أنه بعد وفاته تستحق أرملته نصيبها في ريع وقفه، فإذا تزوجت انقطع عنها الريع[٢].

وإذا انتقلنا إلى الدور الذي لعبته المرأة في الوقف فسنجد من النساء من آلت إليها نظارة أحد عشر وقفا، مثل حفيدة شيخ الطريقة الكلشنية الصوفية، وتولت حفيدة السلطان المملوكي أحمد بن أينال[٣] وظيفة النظارة على وقف جدها السلطان أينال، والسيدة قمر زوجة محمد أبي السرور البكري هي

---

١). سورة النساء: الآية : (١١).

٢). محمد عفيفي، الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني: صـ ٢٤٣.

٣). السلطان الثالث عشر من الدولة المملوكية البرجية الشركسية، وهو أبو الفتح شهاب الدين أحمد بن الملك الأشرف إينال العلائي، كان محمود السيرة، تولى السلطنة لفترة قصيرة في حدود أربعة أشهر. توفي سنة ٨٩٣ هـ/ ١٤٨٨ م. انظر مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة ليوسف بن تغري، الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين، دار الكتب المصرية، القاهرة: جـ ٢ / صـ ١٧١.

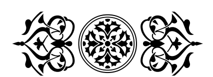
الناظرة على وقف أبيها، والحاجة صفا ابنة عبد الدائم هي الناظرة على وقف والدها، ولا أدل على سطوتها من ادعاء أحد التجار بأنها تعدت على وقف والده، ولا يستطيع فعل شيء حيالها، سوى رفع شكوى لدى القاضي، وفي المنصورة كذلك نجد ثريا ابنة الحاج علي الطاحي الناظرة على وقفها، تقوم بإجازة بيتين من وقفها إلى أحد الأمراء، وبالنسبة لنساء الأمراء نجد المرأة سعد الملوك ابنة الأمير جانم بن أرغون الناظرة على وقف كزل الناصري تؤجر لآخر حانوتا جاريا في الوقف، فضلا عن معالجة الناظرة على الوقف لمشاكل المستأجرين، مما يعطينا انطباعا عن حرية تصرف المرأة كناظرة للوقف، في إدارته ومواجهة المستأجرين ومتابعة شئونه أمام القضاء[١].

وبالنسبة لاستثمار المرأة لرأس مالها في القيام بعمليات انتفاع اقتصادي مع الأوقاف، فهناك العديد من الأمثلة عن انتشار استثمار المرأة للأموال في أساليب الانتفاع الاقتصادي مع الأوقاف، فالحرمة زين ابنة أحـمد بن عبد الله المعروف بالصاوي تستأجر من وقف حصة النصف من بستان بلح وفواكه أخرى، بل وتعقد مع ناظر الوقف عقد مساقاة على أراضي البستان بأنها تستعين بمن يقوم بزراعته لحسابها الخاص، دون أن تكلف الوقف شيئا، وتقوم فاطمة بنت صلاح الدين بن علي الشهير بالحنبلي باستئجار وكالة وقيسارية من وقف اسكندر باشا لمدة سنة، وتبلغ قيمة الإيجار السنوي ٢٣٠ دينارا، وتقوم المصونة رحمة ابنة أحـمد الشوربجي باستثمار أموالها في شراء حق الخلو في حانوت جار في وقف. وكذلك دخلت النساء ميدان التجارة في وظائف الأوقاف، فالمرأة زمزم ابنة أحـمد بن بيرم جحا، تشتري الثلث من وظيفة نظر، ولما كان لها من قبل ثلثا الوظيفة، فبالتالي مؤول لها كامل وظيفة النظارة، هكذا

---

١). محمد عفيفي، مرجع سابق صـ ٢٤٤.

تبين لنا الدور الذي لعبته نساء الشريحة الوسطى والمتنفذين في الأوقاف وحرية التصرف الاقتصادية والإدارية للمرأة في الأوقاف، واستثمار المرأة للدور الذي لعبته في الأوقاف لصالحها، سواء بالنسبة لحياتها الخاصة أو العائلية، وهكذا يتضح لنا أهمية الدور الذي لعبته الأوقاف في المجتمع المصري، ربما عن غير إدراك من الأوقاف، فيما يتعلق بشؤون التجارة الداخلية والخارجية، ويتضح لنا أيضا مدى إدراك معظم فئات المجتمع لأهمية استغلال الأوقاف في تعضيد أساسها الاقتصادي والاجتماعي، ودور الأوقاف في إبراز نوع من الوعي الطبقي لدى فئات المجتمع، وضح في تكون جماعات أصحاب مصالح تصطدم حتى مع الدولة في الدفاع عن مصالحها(١).



١). الأوقاف والحياة الاقتصادية في العصر العثماني، صـ ٢٤٥.

المبحث الرابع
دور المرأة في الحياة الدينية

دور المرأة
في الحياة الدينية

لقد ظل السلاطين العثمانيون يحيطون نساءهم بنظام قوي داخل القصور أطلق عليه «الحريم السلطاني»، وكانت أسرة السلطان هي مركز الدائرة بالنسبة لجميع الهيئات والطوائف التي تعمل في منطقة الحريم، ومما هو جدير بالذكر أن الاطلاع على موضوع الحريم السلطاني من الموضوعات الصعبة للغاية في تاريخ الدولة العثمانية، نظرا لقلة المادة العلمية عنه، فهن يعشن وراء الأسوار العالية بعيدا عن العالم الخارجي، وينطبق هذا على معرفة دورهن في الحياة الدينية. يحظر على الحريم الاحتكاك بالعالم الخارجي، وعلى العاملين في خدمة قسم الحريم من الرجال توفير كل ما يحتجن من الأسواق، فتكتب النساء احتياجاتهنّ من الأقمشة والأحذية وأدوات الزينة في ورقة يدفعن بها إلى آغا البنات ويقوم بدوره بإبلاغ الخدم بما يجب شراؤه من الأسواق، وبعد يوم أو يومين، يؤتى بما سبق طلبه، ومعه بيان الأسعار، فتأخذ الحريم ما يروق لهنّ ويرجعن ما سواه[(١)].

وكمثال فإن بزم عالم والدة سلطان، زوجة السلطان محمود الثاني، وأم السلطان عبد المجيد الأول، عرف الرجال والعاملين في خدمة أجنحة الحريم الدخول إليها غير أنه كان بإذن خاص من السلطان، وفي حالة الضرورة القصوى[(٢)].

كانت منطقة الحرم تحاط بأسوار عالية، تقوم عليها حراسات مشددة، وكان الطريق المؤدي إلى الحريم السلطاني عبارة عن ممر طويل له أربعة أبواب،

---

١). الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها: (١/ ٥٥٩).

٢). Sidat Kumbarci, Harem, Hakind Bilmediklerimiz, H. Farih, Ocak 1972 - S. 44.

بابان منهما مصنوعان من الحديد، وبابان من ليروز، وكان رئيس الخصيان السود وعدد من هؤلاء الخصيان التابعين له من رتبة «نوبت قلفه سيه»[١] ، وهم من الصف. ويلاحظ أن عزلة النساء كانت من التقاليد القديمة في العالم الإسلامي حيث كانت المجتمعات في ذلك الوقت مجتمعات دينية إسلامية؛ لذلك لم يكن يسمح لأي سيدة ابتداء من زوجات السلاطين حتى الخادمات بالخروج من القصر إلا في حالات نادرة، كان السلطان يصحب بعضهن لأحد القصور، وكانت عبارة «الحريم السلطاني» تعني الشيء المقدس، ويحرم على الغير الاقتراب منه أو النظر إليه، سوى السلطان والخصيان، ورؤساؤهم أي: أغوات الخصيان[٢].

وفيما يخص العبادات كانت المواظبة على أدائها أمرا ملزما استمر حتى نهاية الدولة العثمانية؛ فإقامة الصلاة في الحريم أو القصر أمر إجباري، يُحرص على الاستيقاظ مبكرا لأدائها جماعة، ومن يتخلف عن أدائها يعزَّر تعزيرا شديدا[٣]، فالسلطان محمد رشاد الخامس أصدر إرادة سنية[٤] نصها: «إن خبزي وملحي حرام على تارك الصلاة والصوم، هذه إرادتي وعلى المعلمة أن تبلغها لتلاميذها داخل الحريم»، فقد كان السلطان محمد رشاد متدينا يؤدي الصلوات

---

١). (نوبت) كلمة تركية مقتبسة من اللفظة العربية (نوبة)، أما (قلفة) فمعناها: رئيس، ومعنى العبارة: (رئيس نوبة الحراسة). انظر رتبة هذه الطائفة من الخصيان في صـ ٥٥٨، حاشية رقم ٢، من المصدر السابق.

٢). Gibb, Hamilton and Bowen Harold, Op. Islamic Society and the West. Cit. Vol 1,(Oxford U. p. 1953) Part. 1 P. 72

٣). Sidat Kumbarci, Harem - S. 44

٤). مصطلح إداري يستخدم في البرتوكول العثماني، مكون من كلمتين، إرادة: وتعني الرغبة أو الطلب، وسنية: وتعني ما يتعلق بالسلطان، أي: الطلب السلطاني، أو المرسوم السلطاني، يلماز أوزتونا، المدخل إلى التاريخ العثماني، ترجمة أرشد الهرمزي، الدار العربية للموسوعات، بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ. صـ ١٤٦صـ ٢٤٨.

الخمس في أوقاتها، شديد التمسك بقواعد الدين، وتلك كانت الصفة الغالبة على السلاطين العثمانيين(١).

وكان السلاطين العثمانيون حتى نهاية عهد الدولة العثمانية يأتون بالمعلمات إلى الحريم لتعليم من فيه من النساء والجواري، قراءة القرآن الكريم على الوجه الصحيح، وكانت الأميرات ملزمات أولا بختم حفظ المصحف قبل البدء في تلقي العلوم الأخرى، وعندئذ يقام احتفال خاص داخل الحريم يحضره السلطان بنفسه، تقدم فيه التهنئة بهذه المناسبة(٢).

وفي شهر رمضان يسود القصر السلطاني كله بما فيه القسم الحريمي جوّ ديني عميق، فيحضره الوعاظ والأئمة لإلقاء الخطب الوعظية، وإقامة صلاة التراويح كل ليلة، ويتحول الحريم إلى ما يشبه المسجد، فكل من فيه صائم ومشغول بالعبادة، وقراءة القرآن، ليلا ونهارا، ويؤتى في هذا الشهر بماء زمزم من مكة المكرمة إلى اسطنبول، ليكون أول ما يبدأ به الصائمون إفطارهم في القصر والحريم العثماني(٣)، كما يصوم الحريم أيضا في كل الأيام ذات المناسبات الدينية من ليلة الإسراء والمعراج، وليلة النصف من شعبان، ويبدأ التدريب على هذه العبادات في سن مبكرة(٤).

وفي الإطار الديني أباح الإسلام للرجل أن يتزوج بأكثر من زوجة، ولكنه وضع لهذا التعدد قيودا وشروطا منها أن لا يحتفظ الرجل بأكثر من أربع زوجات في وقت واحد، واشترط أن يلتزم الزوج بإقامة العدل بينهنّ، قال الله

---

١). Safiye, S.21 ، في مذكرات عن قصر طوب قابي، أن السلطان العثماني مهما بلغت درجة انشغاله بأعمال الدولة لم يكن يفرط في أداء الصلوات الخمس في أوقاتها، وهي قاعدة يحرص عليها الأتراك، انظر S. B. Teuernier ،Sarayinda, Yasam , Ceveren. Ustundag. S. 143 – .144 يذكر B. Tavernier Top Kapi

٢). Ag. E. S. 34 , 88

٣). Ayse S.95

٤). Leyla Saz S.123

تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣) ﴾[1].

لقد قصدت الشريعة الإسلامية بالعدل أن يقيم الرجل العدل بزوجاته في المعاملة والحقوق الظاهرة، مثل توزيع مبيته عندهن، والإنفاق عليهنّ، وما إلى ذلك، فلا يكون الأساس في معاملة الزوج لزوجاته: الزوجة القديمة، أو الزوجة الحديثة، أو الجميلة، أو القبيحة، أو الزوجة التي تنتمي إلى أسرة غنية، والأخرى التي تنتمي إلى أسرة فقيرة، وفي الحديث الشريف: «إذا كان عند الرجل امرأتانِ فلم يعدلْ بينهما جاء يومَ القيامةِ وشقُّه ساقطٌ»[2] ، أما العدل في توزيع عواطف الرجل نحو زوجاته، وهو ما يعبَّر عنه بالمْيْل القلبي، فلا قبِل فيه لإنسان، ولا تكليف به ما اتقى إظهاره في المعاملة، وتأثيره على حقوق الزوجات الأخريات، ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٢٩) ﴾[3].

---

١). سورة النساء، و﴿ تَعُولُوا ﴾: أي: تجوروا، يقال: عال في الحكم: إذا قَسَط وظلم وجار، قال أبو طالب في قصيدته المشهورة في مدح النبي ﷺ:

بميزان قسطٍ لا يَخيس شعيـرة له شاهد من نفسه غير عائــل

انظر أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م: (٢/ ٢١٢).

٢). أخرجه الحاكم عن أبى هريرة رضي الله عنه: (٢/ ٢٠٣ ، برقم: ٢٧٥٩)، وقال : صحيح على شرط الشيخين . ووافقه الذهبي، وأخرجه أبو داود بلفظة: (مائل) في سننه: (٢ / ٢٠٨، برقم: ٢١٣٥)، وقال الألباني: صحيح. انظر : محمد ناصر الدين الألباني، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، الناشر : المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة : الثانية، ١٤٠٥ – ١٩٨٥، عدد الأجزاء : ٨، (جـ ٧ / صـ ٨٠).

٣). سورة النساء، و﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا ﴾ أي: في المحبة، و﴿ كُلَّ الْمَيْلِ ﴾ أي: إلى الزوجة التي تكنون لها حبا يفوق حبكم للزوجات الأخريات، فتؤثرونها بكثرة الإنفاق عليها وقضاء الوقت عندها، وما إلى ذلك. و﴿ فَتَذَرُوهَا ﴾ أي: تتركوا الزوجة الممال عنها. و﴿ كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾: لا هي ذات بعل، ولا هي أيم، أي: لا هي متزوجة ولا هي مطلقة. انظر البغوي، تفسير البغــوي: (٢ / ٢٩٥).

وعلى ما سبق فإن الإسلام أباح التعدد، ووضع في تطبيقه قيودا كانت أقصى ما يمكن من الاحتياط، وبناء عليه فإن الحريم السلطاني لم يعارض تعدد الزوجات، بل قبلن به، فيكون من أهم أدوارهم في الأمور الدينية، حيث شجعن التعدد، الذي لم تجد البشرية حتى الآن حلا أفضل منه لبعض الظروف الاستثنائية(١).

وفي الليلة الخامسة عشر من شهر رمضان تزور والدة السلطان ونساؤه والكبيرات من موظفات القصر حجرة المقتنيات النبوية التي تضم الآثار الشريفة للرسول ﷺ(٢).

وطوال الشهر الكريم يقوم الوعاظ والمحفظون بوعظ النساء داخل الحريم، وتحفيظهنّ القرآن الكريم، وإقامة صلاة التراويح. وفي نهار رمضان يقوم الحريم بزيارة أولياء الله الصالحين، ويؤدين الأدعية والاستغفار في انتظار موعد الإفطار، فيبدأن بشرب ماء زمزم وتناول التمر، ثم يقمن صلاة المغرب، وبعد ذلك يتناول الجميع طعام الإفطار(٣).

وللدعاء داخل الحريم السلطاني مكانة رفيعة، ففي كل تحرك بداخل الحريم يكون مصحوبا بالدعاء المناسب له(٤)، فعند إغلاق باب قسم الحريم أو فتحه هناك دعاء خاص يردد، وعند التحاق الأميرات بالمدرسة يردّد الحريم الدعاء بأن يشرح الله صدورهن لنور العلم(٥)، كما أن كل قاعات وأبواب الحريم تعلوها الآيات القرآنية التي تناسب المكان الذي يؤدي إليه، فالباب

---

١). انظر سيد قطب إبراهيم، فى ظلال القرآن دار الشروق ـ القاهرة، صـ ٩٦.

٢). Cagatay, Harem, S. 162 - 163 .

٣). Leyla Saz S.123

٤). إن الدعاء بالأدعية والرقى، مشروع إذا كانت الأدعية مشتملة على ذكر الله تعالى، وهو من السنة النبوية المطهرة. انظر سيد سابق، فقه السنة: جـ ١/ صـ ٤٩٤، فقه السنة، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٥). Ayse,S 118

الرئيس في قسم الحريم تعلوه آية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾[1]، والباب المؤدي إلى القسم الذي يقطنه أغوات الحريم تعلوه آية: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾[2]، وهكذا.

وقد تمسكت المرأة في العهد العثماني بالآداب الإسلامية، فكان للحياة داخل الحريم قواعد وآداب تحكم السلوك الشخصي لكل من يعيش بداخله، وتتعلق بالمظهر العام، وتدور كلها في إطار ما أمر به الإسلام من نظافة وطهارة وحسن مظهر، فالجواري كلهن دائما نظيفات، يحظر عليهن التثاؤب[3]، والتمخط على الملأ، أو السير حافيات الأقدام، وارتداء ملابس غير مهذبة أو متناسقة، أو غير نظيفة، ويجب عليهن تقليم الأظافر في مكان منعزل والاستحمام مرة كل أسبوع[4]، وغسل الوجه بالماء والصابون كل صباح قبل الوضوء، واستخدام منشفتين للوضوء، واحدة للوجه ، والأخرى للقدمين، وتغسل المناشف مرة كل أسبوع، هذا غير المناشف الخاصة بالاستخدام اليومي[5]، وتتولى النائبات والمستجدات تنظيف كل أجنحة الحريم، والطرقات، والسلالم، والحمامات والطابق السفلي «البدروم» في قسم الحريم مرة في أول كل شهر، فيغسل الحصير المصري الذي يغطي الأرضيات بالماء

---

١). سورة النور.

٢). سورة الزمر.

٣). النهي عن التمادي في التثاؤب، من السلوك الإسلامي؛ حيث حثّ عليه الرسول ﷺ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: (إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب؛ فإذا عطس فحمد الله فحقٌّ على كل مسلم سمعه أن يشمته، فأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان، فليرده ما استطاع؛ فإذا قال: ها، ضحك منه الشيطان) البخاري : (برقم: ٦٢٢٦).

٤). وفي الاستحمام وقصّ الأظافر مرة كل أسبوع اتباع للسنة النبوية المطهرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (حق على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام، يوما يغسل فيه رأسه وجسده)، انظر صحيح البخاري: (١/ ٨، برقم: ٨٩٧). كما أنه ﷺ ذكر أن خمسا من الفطرة، ذكر منها: تقليم الأظافر، أخرجه البخاري ومسلم برقم: (٥٨٨٩) و (٢٥٧). وانظر سيد سابق، فقه السنة: (١/ ٣٨) و (١/ ٧١).

٥). Ali Riza mart 1981. S. 32

والصابون، وينظف بمنتهى الدقة، وعند مرور واحدة من الجواري، بمختلف درجاتهنّ، من حجرة إلى حجرة، عليها أن تقول: «دستور» وهي كلمة تعني طلب الإذن بالمرور، ويحظر على كل من في الحريم أن يتكلمن بصوت مرتفع، وتقوم قدامى النائبات بمراقبة هذه السلوكيات بدقة، والقاعدة في التعامل داخل الحريم هي احترام الصغير للكبير وطاعته، وعطف الكبير على الصغير، ومعاملته بحب، وشموله بالرعاية، وهو خلق إسلامي أصيل، وكان كل قسم في الحريم يدرك هذا ويراقبه(١)، وفي هذا السلوك امتثال للسنة النبوية المطهرة، التي أوصت بأن يوقر صغيرنا كبيرنا، ويعطف كبيرنا على صغيرنا(٢).

وفي إطار دور المرأة في الحياة الدينية، فقد كانت علاقة حريم السلطان العثماني تربطها علاقات الإسلام، لقد عرف المجتمع الإسلامي الرقّ كنظام معترف به، وكان الرقيق، رجلا كان أو امرأة أو طفلا، ملكا خاصا لسيده، مجردا من كل الحقوق، وجاء الإسلام فجعل للرقّ قيودا أو شروطا شرعية، وللرقيق حقوقا إنسانية، فقد حث على عتق الرقاب في أكثر من موضع في القرآن الكريم، وجعل هذا العتق كفارة للذنوب، كقوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴿٩٢﴾﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴿٣﴾﴾(٤)، كما أوصى الإسلام بالإحسان إلى الرقيق والتلطف بهم، وعدم إيذائهم بمناداتهم بلفظ العبودية، وإكرامهم في المأكل والملبس، وأن لا يكلفوا ما لا يطيقونه، وندب إلى العناية بهم وتربيتهم

---

١). Leyla Saz: S.100

٢). وهو من الخلق الإسلامي الأصيل، الذي ربى عليه النبي ﷺ أمته، فقد روي عنه: ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا، سنن الترمذي: (٤ / ٣٢١). ورواه ابن حبان أيضا، انظر صحيح ابن حبان: (٢/ ٢٠٣، برقم: ٤٥٨). وقال عنه الألباني : صحيح.

٣). سورة النساء.

٤). سورة المجادلة.

وتهذيبهم[1]، وقد قال ﷺ: «إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس»[2]، وقد عرفت الدولة العثمانية كغيرها من الدول الإسلامية التي سبقتها، كالأمويين والعباسيين وغيرهم، عرفوا الجواري، وكانت النساء العثمانيات حريصات على التعامل مع خادماتهن من الرقيق بما وصَّى به الإسلام، فكن يولين الإماء والجواري كل اهتمامهن، ويحترمن كل الرقيق في القصر الحريمي، وقد ارتاحت الغالبية العظمى من سلاطين الدولة العثمانية إلى مبدأ تعدد الزوجات، وكانت الحرائر من نسائهنّ يحترمن الجواري، ويعشن جميعا في احترام. لقد اعتنقت عدد من الزوجات الأجنبيات الكتابيات الإسلام بمجرد التحاقهن بالقصر السلطاني، فكانت الواحدة منهنّ تسعى للتأثير في الدعوة إلى الإسلام بين أهلها، وقد أطلق لفظ «أسلمي» أو «مسلماني» على كل من اعتنق الإسلام، يهوديا كان أو نصرانيا، وكان من بين المهتدين فتيات صغيرات وجوار مملوكات ليهود، وكذلك الصبية، فكانت العثمانيات يهتممن بهم ويربونهم ويدرسونهم، ويثقفونهم بأمور دينهم[3].

ومن دور المرأة العثمانية في الحياة الدينية أن إسلام الزوج كان ينشئ وضعا جديدا فيما يخص علاقته مع زوجته وأهل بيته؛ إذ سارعت الكثير من الزوجات إلى طلب الطلاق، سواء قبل أو بعد الدخول بها، على أن تبرِّئـه من صداقها وسائر حقوقها الزوجية، بحيث لم تذكر سوى حالة وحيدة بادر فيها

---

١). مصطفى الجداوي ـ الرقّ في التاريخ والإسلام ـ (٢/ ١٣٩ ـ ١٤٠) نظام الرق في الإسلام.

٢). صحيح البخاري (٣/ ١٢٣ ـ رقم: ٣٠) ـ ط. دار الفكر: ١٩٨١.

٣). انظر محمد شومان، اليهود في مصر منذ الفتح العثماني حتى القرن التاسع عشر، ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ القاهرة ٢٠٠٧.

الزوج من تلقاء نفسه إلى تطليق زوجته رغم ما عليه من مؤخر صداق كبير بلغ مائتي قرش عثماني[1].

ويعقب فضّ العلاقة الزوجية معالجة الآثار الناشئة عنه من تقرير نفقة الحمل إلى حين الوضع، والطفل الرضيع إلى حين انقضاء الرضاع، والكسوة إلى بلوغ سن معينة ما دامت عازبة لم تتزوج بعد، فإن تزوجت أو قبلت التنازل عن ولدها وتسليمه لأبيه، أصبح من حقه أن يأخذه ليقيم معه، إلا إذا تكفلت الأم بنفقة الطفل، حسبما يتفق الطرفان، وقد أبدت بعض اليهوديات تسامحا كبيرا تجاه مسألة إسلام الزوج، فآثرت الإبقاء على رابط الزوجية، أو العودة إليه ثانية بعد فترة من الطلاق، والعيش معه، فقد استمر زواج قمر ابنة شحاذة الربانية من أحمد بن عبد الله المهتدي لعدة سنوات تأخر عليه منها كسوة أربع سنوات، وعادت تركية بنت راحمين الربانية المغربية إلى عصمة مخالعها محمد بن عبد الله المهتدي على صداق مؤخر ضئيل قدره مائة ونصف، عن رضا وطيب خاطر، بعد أن اطمأنت إلى استقرار حياتها الزوجية بثلاثة شروط:

١. أن لا يجمع معها في عصمته غيرها بوجه من الوجوه.
٢. أن لا يضربها ضرباً مبرحاً يظهر أثره عليها في غيظ.
٣. أن لا ينقلها من حارة زويلة إلى غيرها من الجهات بغير رضاها[2].

ومشاركة من المرأة العثمانية في الحياة الدينية أيضا نرى بعض العثمانيات قد قمن ببناء المساجد والمدارس والمستشفيات، ونشير هنا إلى أنه قد يتداخل دور المرأة العثمانية من الناحية الدينية والاقتصادية والاجتماعية، فإشارة إلى ما قد ذكرناه في المبحث الاقتصادي لا يسعنا إلا أن نذكر نماذج للمرأة العثمانية ممن خدمن الناحية الدينية، ونورد هنا قائمة ببعض أمهات السلاطين وآثارهنَّ

---

١). محمد شومان، اليهود في مصر من الفتح العثماني، ، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ٢٠٠٧، صـ ٤٣٢.
٢). المرجع السابق: صـ ٤٣٣.

الخيرية، والتي تمثل انعكاساً حقيقياً للتربية الدينية التي أشرنا إليها سابقا في حريم القصر العثماني، وتجسيدا لما غرسه الإسلام في نفوس أبنائه من حب الخير ومحاربة شحّ النفوس حين ينفقون أموالهم في سبيل الله، ويخفّفون عن إخوانهم من الضعفاء والمحتاجين وطلاب العلم وعابري السبيل من خلال صدقة جارية تدرّ على صاحبها من الأجر والخير حتى بعد مماته، ولا يخفى ما في العمل الخيري من مصلحة اجتماعية واقتصادية ودينية:

- بروتونيال والدة السلطان:

كانت المستولدة الثانية للسلطان محمود الثاني، وهي أم السلطان عبد العزيز، وقد كانت لها مشاركة في الحياة الدينية كبنائها للجامع الذي سجل باسمها، والذي بنته في حي آقسراي في اسطنبول، وابتنت بجانبه سبيل ماء، وموقنخانه[١]، ومكتبة ومدرسة، وقد أوقف على المكتبة الملحقة بالجامع «١٠٥٥» كتابا بين مخطوط ومطبوع، كما قامت بعمل إصلاحات وتوسعات في مستشفى فقراء المسلمين في مكة المكرمة والمدينة المنورة[٢].

- بنياز زينب قادين:

زوجة السلطان عبد الحميد الأول، توفيت سنة ١٢٣٨ هـ/ ١٨٢٣م، أوصت قبل وفاتها بعتق كل جواريها عقب وفاتها.

- جان فداير:

لها جامع كبير بجوار باب أدرنة، في اسطنبول، وجامع آخر عند مرسي آق بابا وسبيل ماء[٣].

---

١). دار التوقيت، (موقنخانة) مكان يلحق بالجامع الكبيرة، توضع فيه ساعات مختلفة الارتفاع والعيار لضبط الوقت، خاصة، مواقيت الصلاة، ويعين فيه موظف للقيام بهذه المهمة يسمى موظف دار التوقيت، انظر شمس الدين سامي ، قاموس تركي، صـ ، ١٤٣١ هـ.

٢). Erdem, S 47.

٣). Ismail, Haki, Uzuncarsili, Osmanli Tarihi, C. 3/1 S. 43/1.

- جوري قالفة:

وقد ساهمت في إثراء الحياة الدينية وبنت مدارس باسطنبول.

- مال خاتون:

وهي أم سليمان باشا، ومراد الأول، وحول آثارها الخيرية فلها تكية في بورصة، ولها مسجد، وقد قامت أيضا هذه المرأة بإنشاء تكية في إزنيق.

- حفصة سلطان:

أم السلطان سليمان القانوني تـ: «٤ رمضان ٩٤٠ هـ / ١٩ مارس ١٥٣٤ م»، لها جامع في مانية يحوي مدرسة وزاوية وتكية وحـمام بتاريخ «٩٢٩ هـ / ١٥٢٢م»، وقد تناول الكاتب إسماعيل حقي هذا المجمَّع الوقفي عندما تحدث عن تاريخ مانية.

- خورم سلطان:

زوجة السلطان سليمان القانوني، تـ «٩٥٦هـ/ ١٥٥٨م» قامت هي وابنتها مهرماه ببناء العديد من الجوامع، والتكايا، وحفرت الآبار بمكة المكرمة والمدينة المنورة.

- نوربانو سلطان:

وهي أم السلطان مراد الثالث، تـ «١٢ ذي القعدة ٩٩٠ هـ/ ٧ كانون الأول ١٥٨٢ م»، ومن آثارها الخيرية: مدرسة في فويتشاغي في أسكودار، وكذلك مسجد ومستشفى وتكية، ومدرسة للصبيان، ودار حديث ودار قُرّاء، ومَضْيفة كبيرة، ولقد تناول أيضا حافـظ حسـين جامع الوالدة العتيق وتحدث عنه.

- صفيـة سلطـان:

وهي أم محمد الثالث، تـ «٢٨جمادى الآخر ١٠١٤ هـ / ١٠ تشرين الثاني ١٦٠٥ م»، ومن آثارها الخيرية مدرسة ومجمَّع يحوي بنائه جامع ومدرسة، وهذا المجمَّع تم ترميمه من قبل طورخان سلطان.

- كوسم سلطان:

ما هبيكر قسام سلطان، أم السلطان إبراهيم ومراد الرابع تـ «١٦ رمضان ١٠٦١ هـ/ ٢٢ سبتمبر ١٦٥١»، لها مجمَّع به حـمام، وسبيل ماء، ودار حديث، ومدرسة في أسكودار، وقد قامت كذلك ببناء مسجد وخان، وكانت تقوم بتلبية حاجة الحجاج من المياه، وأوقفت العديد من الأوقاف من أجل مساعدة الفقراء، وقراءة القرآن في الحرمين.

- طورخان خديجة سلطان:

أم السلطان محمد الرابع، تـ «١٠ شعبان ١٠٩٤ هـ/ ٤ أغسطس ١٦٨٣ م». ومن آثارها الخيرية: قامت بإتمام جامع والدة سلطان، الجامع الذي قامت بإنشائه صفية سلطان، وقامت بإتمام جامع آخر قامت بإنشائه كوسم سلطان، وقامت بعمل مبنى أخيها يوسف آغا بجامع الوالدة في الأناضول.

- مهرشاه والده سلطان:

أم السلطان سليم الثالث،ابتنت عدداً من المسـاجد في جميـع أحيـاء اسـطنبول، ومدرسة، وخصصت لهذه الخيرات أوقافا كثيرة في مقدمتها العمـارة الواقعـة بجـوار قبر أبى أيوب الأنصاري رضي الله عنه، ، ولهـا وقفيـة تتضـمن إطعـام الفقـراء في شهر رمضان، وكذلك رواتب طلبـة المـدارس، كمـا يصـرف لهـم مـا يلـزمهم مـن الملابس، وأنشأت أيضا مكتبة داخل جامع أبي أيوب الأنصاري[1].

---

١) يلماز أوزتونا، تريخ الدولة العثمانية، صـ ١٥١ .

الفصـــــل الثانـــــي

زواج السلاطين العثمانيين من الأجنبيات

المبحث الأول: دوافع الزواج من الأجنبيات

المبحث الثاني: نماذج من زيجات السلاطين

المبحث الأول

دوافع الزواج من الأجنبيات

دوافع زواج

السلاطين العثمانيين من الأجنبيات

كانت المرأة التي يأخذها السلطان للفراش سواء كانت مسلمة أو مسيحية يطلق عليها المفترشة، أو امرأة الفراش، وغالبا ما كانت إحدى بنات الحكام الأجانب، وظل السلاطين الأُوَل على هذا النظام حتى القرن السادس عشر. ولقد أخذ عثمان غازي ابنة الشيخ الأول إده بالي(1)، وأخذ ابنه أورخان غازي ابنة أمير الروم كانتاك أمزان للعبور إلى الإمبراطورية البيزنطية، كما أخذ ابن أورخان مراد الأول ابنة امانويل إمبراطور بيزنطة أيضا(2).

وبعد أن أصبح يلدرم الحاكم في حياة أبيه أخذ ابنة سليمان شاه الكرمياني، دولت خاتون، وهي أم محمد الأول الملقب بجلبي أو السيد، المؤسس الثاني للدولة العثمانية(3)، كما أخذ حفصة خاتون كريمة عيسى بك، وكذلك ابنة صرب بك، وهي من أميرات بيزنطة، وتزوج جلبي محمد من إحدى بنات ذو لقادر أوغلي صولي بيك، كما تزوج مراد الثاني بيك بابنة جندر أوغلي إبراهيم بيك، وكذلك أخذ ايرين ابنة إمبراطور الصرب، كما تزوج السلطان محمد الفاتح(4) في حياة أبيه

---

١). أول مُفتٍ للدولة العثمانية، قرماني المولد، اتصل بخدمة السلطان عثمان الأول، ونال عنده القبول التام، وكانوا يرجعون اليه بالمسائل الشرعية ويتشاورون معه في أمور السلطنة، وكان عالما عاملا عابدا زاهدا. انظر الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية لأحمد بن مصطفى، طاشْكُبْري زَادَهْ، مصدر سابق: صـ ٦.

٢). انظر كتاب تشكيلات العصر للدولة العثمانية صـ ١٤٦.

٣). تولى السلطنة العثمانية خلال الفترة: من (٨١٦ هـ/ ١٤١٣م ـ ٨٢٤ هـ/ ١٤٢١م)، كان سلطان متدينا ونبيلا، وقد عد المؤسس الثاني للدولة لأنه بعد أسر والده السلطان بايزيد من طرف تيمور لنك ذهب إلى آماصيا وأعلن نفسه هناك سلطانا، ثم أصبح الوريث الشرعي الوحيد بعد مقتل أخيه موسى جلبي، واستطاع إنقاذ الدولة من التلاشي والانهيار، ولذلك عدّه المؤرخون مجدد القرن التاسع الهجري سياسيا. الدولة العثمانية المجهولة صـ ١٠٢.

٤). ولد السلطان محمد الفاتح ٢٧رجب ٨٣٥ هـ / ٣٠ مارس ١٤٣٢م فنشأ في كنف والده مراد الثاني، وتولى السلطة بعد وفاته في٥/ ١/ ٨٥٥ هـ ٧/ ٢/ ١٤٥١م وهو فاتح القسطنطينية وعمره لم يتجاوز٢٥ سنة وتوفي في٤/ ٣/ ٨٨٦ هـ.

مكرمة جاستون التي يطلق عليها ست خاتون، وهي إحدى بنات ذو لقادر أغولي سليمان بيك، وأنجب بايزيد الثاني من هذه المرأة، وتزوج بايزيد الثاني من عائشة هانم ابنة علاء الدولة يوزكورت ميدال ذو لقادر، ومع هذا فإنه يوجد هناك أبناء تم إنجابهم من جواري السلاطين العثمانيين. وطبقا للإشارات التاريخية فقد كانت توجد لدى السلاطين زوجات وجواري للفراش حتى بداية القرن السادس عشر، ولكن بعد هذا التاريخ واعتبارا من عصر السلطان سليمان القانوني فانه لم تكن هناك أي إمبراطوريات أخرى، أو عائلات حاكمة بالأناضول، ولذلك أصبح من المعقول أن يتزوج السلطان بأي امرأة جميلة تقدم له في القصر، ولكن عثمان الثاني خالف هذا التقليد والعرف الذي استمر من عصر القانوني وتزوج بابنة شيخ الإسلام أبو السعود أفندي، كما تزوج السلطان إبراهيم من إحدى الجواري[(١)].

ولقد اشتهر الحكام والسلاطين العثمانيون في مختلف فتراتهم وعصورهم الأولى بالزواج من بنات أباطرة بيزنطة، وملوك بلغاريا، والصرب، وأمراء الأناضول، والوجهاء في الأماكن التي تواجدوا بها في مختلف الأزمنة. وهناك دوافع سياسية وعسكرية وراء زواج السلاطين العثمانيين من الأجنبيات الكتابيات والجواري، وكان الدافع الأول لهذه الزيجات الأجنبية، أي: الزواج من فتيات غير تركيات، هو دافع سياسي بالدرجة الأولى، قبل أن يكون عسكريا أو عاطفيا؛ لأن الدولة العثمانية الجديدة كانت تريد من خلال هذه الزيجات التوسع في ملكيات الأراضي الجديدة، وتقوية مكانتها السياسية من خلال الزيجات المذكورة؛ فكان ذلك هو الهدف الأساس الذي تبناه بعض سلاطين الدولة العثمانية، ولذلك السبب فقد تزوج السلاطين العثمانيون من أجناس مختلفة غير أجناسهم، ومن أمثلة ذلك:

١). انظر تشكيلات العصر للدولة العثمانية صـ ١٤٧.

أخذهم ابنة اسفنديار[١]؛ لإبراز الصداقة والوئام وتقوية الروابط إزاء إمبراطورية الروم. كما أخذوا ابنة قرميان؛ لإبراز الصداقة مع القرمانيين، وأخذوا ابنة الذولقادريين بهدف التقارب مع المماليك. وتم بناء علاقات وطيدة وجيدة بين العثمانيين وهذه الأسر الحاكمة، الأمر الذي ساعد على توسيع نطاق الدولة العثمانية من خلال إرث هذه الأراضي بمصاهرات سياسية، ولهذا السبب أيضا تأسست صلة قرابة بملوك الصرب والبلغار، ولنفس السبب فقد تواصل الزواج من الجواري، وهو ما سهل دخول الجواري الأجنبيات ذوي الأجناس المختلفة من غير التركيات إلى القصر العثماني[٢].

والجدير بالذكر هنا أن الأميرات اللاتي تزوجهن السلاطين العثمانيون لم يغيرن أسماءهن بعد الزواج بل احتفظن بها؛ فأصبحت أسماء أميرات بيزنطية وصربية وبلغارية كما هي دون تغيير مثل طمارا ، نيسود ، ورا، اسيورجه، ودسبوانا[٣].

ونحن على قناعة بعد ما تقدم ذكره بأن هذه الزيجات قد استمرت حتى تدهور وسقوط إمبراطورية بيزنطة، وبعد قيام السلطان محمد الفاتح بتأسيس الدولة العثمانية العظمى لأبناء الدوشرمة أنشأ الحرم الهمايوني، وبناء عليه فإن نظام الدوشرمة في الحرم العثماني بدأ مع السلطان محمد الفاتح، وقد استمر زواج السلاطين العثمانيين بالجواري حتى سقوط الأسرة الحاكمة، وكانوا يتزوجون بهذا الأسلوب طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية، ولم يتم أي زواج يخالف الأحكام الشرعية المستمدة من ديننا الحنيف بين سائر السلاطين، ولم يوجد هناك داع لهذا

---

١). تزوج السلطان مراد الثاني خديجة أو حليمة خاتون ابنة إبراهيم بن اسفنديار أوغلو، ويقال في رواية غير صحيحة أنها أم محمد الفاتح. انظر الدولة العثمانية المجهولة: م. سابق: ١٥٠.

٢). كتاب الحريم في الدولة العثمانية صـ ٣٩ Harem2 .

٣). كتاب الحريم في الدولة العثمانية Harem2 صـ ٤٠.

الأمر من الأساس لأن الجارية طبق الأحكام الشرعية هي مال وملك يمين لمالكها وسيدها وله كامل التصرف فيها كما يشاء(١).

وبخلاف السلاطين المذكورين لا توجد أي معلومات أخرى حول وجود سلاطين قد تزوجوا بالجواري، وكما سنذكر فيما بعد فإنه قد تمت مراعاة تقاليد القصر في الزواج وأعمال العرس، وقد أعلن بعض المؤرخين أن دسبوانا الأميرة الصربية زوجة السلطان يلدرم قد وقعت في أسر تيمور، وشاع الخبر في سائر الأرجاء وغضب السلطان بشدة، ومن ثم قد انتهى هذا التقليد والعرف حتى لا يحدث مثلما حدث. وقد لا يكون هذا دقيقا تماما؛ فمن المعروف أنه بعد الواقعة المذكورة تزوج جلبي محمد من أمينة خاتون ابنة ذو لقادر أوغلي، وتزوج مراد الثاني بخديجة خاتون ابنة جندر أوغلى، وتزوج محمد الثاني بست قادين ابنة دلقادر اوغلى، كما تزوج السلطان بايزيد الثاني دحس شاه ابنة ناصوح بيك القرماني(٢).

وعلى أية حال يمكن تناول أسباب هذه الزيجات على النحو التالي:

لا شك أن سقوط إمبراطورية بيزنطة وغيرها، وسقوط ملوكها وأمرائها أولا، ثم سقوط باقي الإمارات الأخرى ثانيا، كان سببا في قبول الوجهاء والأعيان في هذه الممالك والإمبراطوريات بمصاهرة السلاطين العثمانيين، جيرانهم في الأناضول أصحاب الصولة والقوة، ومن الطبيعي أن يرغب السلاطين العثمانيون في الزواج من أولئك الفتيات النبيلات، ذوات النسب الأصيل من بنات الملوك والأمراء والأباطرة. ومنذ عصر السلطان محمد الفاتح تأسس عرف وتقليد عند الزواج بالجواري، وهو عدم إجراء احتفالات أعراس لهن، وعلى الرغم من ذلك فقد رأى بعض السلاطين العثمانيين أن هذا العرف لا يروق لهم بأي حال من الأحوال فرفضوه، ويأتي السلطان سليمان القانوني على رأس هؤلاء المتمردين على هذا

---

١). قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله في شرحه الشرح الممتع على زاد المستقنع: فإن وطأه إياها – يعني: الأمة– بملك اليمين أقوى من وطئه إياها بالعقد؛ **لأن ملك اليمين يحصل به الملك التام، فيملك عينها ومنافعها**، والنكاح لا يملك إلا المنفعة التي يقتضيها عقد النكاح شرعاً أو عرفاً: (١٢ / ١٥٢)

٢). الحريم في القصر العثماني صـ ٤١.

العرف، حين تزوج القانوني بالجارية الروسية السلافية خورم سلطان، وجاء من بعده الشاب عثمان وأخذ عاقلة هانم ابنة اسعد أفندي وتزوجها، وأصبح السلطان الثاني الذي خالف هذا العرف، وكذلك تزوج السلطان إبراهيم بهومت شاه مخالفا للعرف الذي سبق وأشرنا إليه . وكان آخر إجراء مخالف لهذا العرف هو قيام السلطان عبد المجيد بعمل الشيء نفسه عندما تزوج بالسيدة بزمارا هانم المصرية، التي أحبها كثيرا وجنّ جنونه عندما رآها، فلم يتمالك نفسه عند ذلك، ولقد أراد عمل الشيء نفسه السلطان عبد العزيز لكن الصدر الأعظم محي جرزاده قام بمنعه وجعله يتخلى عن ذلك، وقد قرر عبد العزيز الزواج من توحيده هانم قبل أخيه، وهي من عائلة محمد على باشا، واستدعى الصدر الأعظم فؤاد باشا، وعرض عليه هذه الفكرة، لكن فؤاد باشا عارض هذا الأمر بشدة، ولم يقتنع عبد العزيز بالعدول عن هذه الفكرة، ولم يتسنّ له ذلك؛ فاستقال من منصب الصدر الأعظم، غير أن عبد العزيز عندما رأى أن الأمر سيخرج عن السيطرة ويدخل في إطار أزمة وورطة أقلع عن الزواج بتوحيدة هانم. وكما ذكرنا فقد عرفت شهرة الجواري الشركسيات في القصور الشرقية من عهود قديمة، وتزوجن بالكثير من أبناء الأسر الحاكمة، وكان سوق الأسرى في اسطنبول يباع فيه الكثير من الشركسيات، والجورجيات والأباظيات، لكن الشركسيات كن الأكثر مبيعا، ويمكن تقسيم الجواري بشكل عام إلى ثلاثة أقسام:

- الجواري اللواتي يقمن بخدمات عديدة بداخل الحرم، ومنهن الجميلات وغيرهن.

- الجواري اللواتي يتم أخذهن للبيع بين أعمار الخمس والسبع سنوات، ويفترض تمتعهن بخصائص جمالية وجسدية باهرة.

- الأوضلك وهن أجمل الجواري وأكثرهن قيمة، ويتم بيعهن للسلطان في أعمار من ١٥ إلى ٢٠ سنة، ومنهن من ترقت إلى مناصب عليا في الدولة عندما أنجبن أولادا.

وقد عمد الكثير من سلاطين الدولة إلى الزواج من الكتابيات الأجنبيات، وكان الحريم السلطاني في أعلى مراتبه يضم غالبا زوجة كتابية أجنبية إلى جانب الزوجات العثمانيات المسلمات. وقد بدأت ظاهرة الزواج من الأجنبيات الكتابيات مبكرا منذ نشوء الدولة العثمانية في عهد مؤسسها الذي نسبت إليه: «٦٩٨ هـ/ ١٢٩٩م/ - ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٦م»؛ لما رأى عثمان أن إمارته أو دولته تحيط بها كيانات إسلامية ومسيحية معادية تتربص به الدوائر، أراد بذلك مواجهة حربية ضد تكتلات إقليمية عسكرية، وأدرك أنه لا يستطيع بقدراته المحدودة المتاحة لديه ممارسة سياسة التوسع الإقليمي المرحلي للدولة التي يتطلع إلى تكوينها، فإمارته ذات تعداد سكاني قليل مما جعله يلجأ إلى وسائل متعددة لتوطيد أركان دولته[١]، وكان من بين هذه الوسائل مصاهرة الدول والكيانات السياسية المجاورة، فاختار عثمان زوجة مسيحية من قلقيلية[٢]، ورشح سيدة يونانية مسيحية رائعة الجمال كزوجة لأبنه أورخان كان اسمها: نيلوفير، ومعناها: زهرة لوتيس[٣].

وكأن السلطان المؤسس قد وضع لبنيه وحفدته، ممن سيأتون بعده من أعضاء الأسرة العثمانية الحاكمة، تقليدا سيظل متبعا طيلة حكم الدولة العثمانية، وهو الزواج من الكتابيات الأجنبيات[٤].

وقد أنجب السلطان أورخان من تلك السيدة اليونانية ابنا تولى الحكم من بعده اسمه مراد، وهو السلطان مراد الأول «٧٦٠ هـ /١٣٥٩م - ٧٩١ هـ/ ١٣٨٩م»، وقد حذا حذو أبيه وجده فتزوج من ابنة ملك بلغاريا «سيشمان»،

---

١). عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (جـ ١ صـ ٥٧٦.

٢). اسم هذه الدولة أرمينيا الصغرى وهي دولة مسيحية.

٣). هذه السيدة مأسورة في إحدى الحروب وبقيت على مسيحيتها انظر هذا الكتاب Lybyer A . h ,op .cit ,p17

٤). من دلائل ميل السلطان أورخان إلى التوسع في تطبيق سياسة الزواج من الكتابيات الأجنبيات بين أعضاء الأسرة العثمانية الحاكمة أنه في معاهدة سكوتاري (١٣٥٩) التي عقدت بينه وبين حنا باليولوج إمبراطور الدولة البيزنطية اشتراطه أن يتزوج ابن السلطان أورخان من ابنة الإمبراطور حنا، وكان عمرها عشرة سنوات وهذا الزواج قد أدرج ضمانا لتنفيذها .

بعد أن طوقه العثمانيون في نيقوبوليس على نهر الدانوب، وارتضى هذا الملك أن يدفع الجزية للعثمانيين، وأن يزوج ابنته من السلطان[١].

ولما تولى العرش السلطان بايزيد الأول «٧٩١ هـ/ ١٣٨٩م-٨٠٥ هـ/ ١٤٠٢م» أراد أن يتخذ من دولة الصرب أو ما تبقى منها دولة حليفة له، كما يجعل منها دولة حاجزة بينه وبين دولة المجر التي يبدو أنها كانت ذات شوكة، مما جعله يخشى أن تنتهز فرصة انشغاله في جبهة أناضولية، فتغير على الأقاليم العثمانية في البلقان فتزوج من «أوليفرى» ابنة ملك الصرب «لازار» الذي كان العثمانيون قد قتلوه عقب معركة كوسوفو «Kosovo» الأولى عام «٧٩١ هـ/ ١٣٨٩م» ردا على قيام صربي يدعى كوبي ليتش ميلوش بقتل السلطان مراد الأول[٢]، وقد كان هذا الصربي جريحاً في أرض المعركة حينما اقترب منه السلطان ظاناً منه أن له وصية، أو أنه سيشهر إسلامه، فطعنه انتقاما لهزيمة بلاده طعنة سقط منها السلطان شهيدا في ساحة الحرب منتصرا يوم: « ١١ جمادى الآخرة ٧٩١ هـ/ الخامس من حزيران ١٣٨٩م»، وقد بذل الجنود العثمانيون جهودا جبارة حتى استطاعوا أسر ملك الصرب «لازار» وعددا كبيرا من النبلاء، وصدرت الأوامر بذبحهم جميعا أمام جثمان السلطان مراد الأول المسجاة في ساحة القتال[٣].

---

١). عبد العزيز محمد الشناوي، أوروبا مطلع العصور الحديثة الطبعة الأولى صـــ٥٩٩-٦٠٠ الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها صـــ٥٧٣.

٢). أحد أعظم السلاطين العثمانيين، صاحب الألقاب الكثيرة، فاتح البلقان، كانت صفاته وأخلاقه عالية جداً مكنته من تبوأ مكانة عالية بين السلاطين والحكام في عصره، حصل على ثقة الجميع أعداء وأصدقاء، كتب أحد المؤرخين المعاصرين له: خاض السلطان مراد ٣٧ حربا بنفسه، انتصر فيها كلها، وأصبحت له شهرة القائد الذي لا يقهر، وكتب عنه آخر: لا يمكن أن يعثر على حاكم بمستوى السلطان مراد، كان عسكريا قويا ودبلوماسيا رائعا، كان حاكما بالفطرة، جعل من العثمانيين أمة موحدة، لم يمت حتى أمن أسسا للدولة ضمنت لها مستقبل خمسة قرون. انظر يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية ترجمة: عدنان محمود، ومحمود الأنصاري، منشورات مؤسسة فيصل ـ اسطنبول ١٩٨٨.

٣). الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها صـ:٦٠٦-٦٠٧ ج ١ط ١.

وتمشيا مع السياسة الودية التي انتهجها بايزيد الأول ابن السلطان القتيل، وافق بايزيد على أن يحكم بلاد الصرب أبناء الملك «لازار» حسب قوانين الصرب وعاداتهم وتقاليدهم على أن يدينا له بالولاء، ويدفعا له الجزية السنوية وعددا معينا من الجنود يشتركون في فرقة خاصة بهم إلى جانب الجيش العثماني، واتخذ خطوات أخرى لاسترضائهما[(١)] بجانب زواجه من أختهما «أوليفرا»؛ فكان ذلك أكبر دليل على تحقيق المطامح السياسية والعسكرية. وسار على هذا النهج - الزواج من الكتابيات الأجنبيات - السلطان مراد الثاني: «٨٢٤ هـ/ ١٤٢١م- ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م»[(٢)]، وتزوج من «أمارا» ابنة أمير الصرب جورج براتكوفيتش، وكانت هذه الزيجة من الزيجات السياسية الناجحة القليلة التي آتت ثمارا طيبة في مجال العلاقات الدولية، فقد كانت سببا في توثيق عرى التحالف بين الدولة العثمانية ودولة الصرب التي امتنعت عن تقديم أي مساعدة للقائد يوحنا هنيادي[(٣)]، حين زحف في رجب ٨٥٢ هـ /سبتمبر ١٤٤٨م، على رأس جيش يتكون من ٢٥ ألف رجل من ألمانيا وسكان ألاشيا وبوهيما و المجر وترانسلفينيا، وقد كان في تقديره أنه سيجد دعما عسكريا من الصرب، لكن تقديراته خابت؛ فزحف مراد الثاني، وهو يقود جيشا بلغ عدده ٥٠ ألف جندي، حتى تقابل مع القوات المتحالفة في سهول قوصوه أو كوسوفا في ١٨ أغسطس ٨٥٢ هـ/ ١٧

---

١). نفس المرجع السابق صـ ٦١٠.

٢). هو السلطان مراد الثاني، سادس السلاطين العثمانيين، تولى السلطة بعد وفاة أبيه ٨٢٤ هـ وعمره ١٨ سنة وتوفي في أدرنة سنة ٨٥٥ وعمره آنذاك ٤٩ عاما .

٣). قائد مجري شهير، وهو ابن غير شرعي لملك المجر سيمسموند أنجبه من سيدة مجرية، وعين حاكما لإقليم ترانسلفينيا المجرية، أظهر صفات حربية ممتازة في صد العثمانيين حين كانوا يتوغلون في ترانسلفينيا، وأصبح حديث الأوساط الرسمية والشعبية في أوروبا، وازداد اعتداده بنفسه و اخذ على عاتقه عبء الكفاح عن المسيحية والتصدي للعثمانيين وإخراجهم من البلقان، وقد أوقع بالعثمانيين عدة هزائم، لكنهم في النهاية انتصروا عليه في معركة (فارنا) في يوم: ٨٤٨/٦/٢٥ هـ، التاسع من نوفمبر ١٤٤٤م وقتلوا فلاديسلاف ملك المجر؛ فحكم هنايدي بلاد المجر بعد مصرع ملكها باسم ابنه القاصر. انظر أوروبا في مطلع العصور الحديثة. صـ ٦٣١ جـ١ .

أكتوبر ١٤٤٨م. وانتهت المعركة بفوز ساحق للعثمانيين الذين اقتحموا معسكر هنيادي الذي هرب محاولا أن يشق طريقه عبر نهر الدانوب، ولكنه لم يوفق في ذلك فوقع في أيدي أعدائه الصرب، ولما توفي السلطان مراد الثاني بسكتة قلبية في ٥ محرم ٨٥٥ هـ، ٧ فبراير ١٤٥١م، خلفه ابنه السلطان محمد الفاتح.

وما إن تولى محمد الفاتح السلطة حتى أمر كإجراء أمني داخلي بترحيل زوجة أبيه «أمارا» إلى موطنها الأصلي في الصرب؛ كي يأمن شر الدسائس و التجسس لصالح موطنها الأصلي، حال وجودها في أوساط الحريم السلطاني. ولا تقتصر الأمثلة على من سبق ذكرهن بل هناك مثال آخر صارخ، فقد تزوج السلطان أحـمد الأول سيدة يونانية ما هبيكر كوسم سلطان، وأنجبت منه ولدين تربعا على عرش الدولة، الواحد بعد الآخر، وهـما على التوالي مراد الرابع[١]، ثم أخوه إبراهيم الأول[٢].

هذا ولم يقتصر زواج السلاطين العثمانيين من بنات الملوك والأمراء النصرانيين بل تزوجوا من الجواري والسبايا «أسيرات الحروب[٣]»، وقد أباح الإسلام للرجل أن يتزوج من أكثر من زوجة، ولكنه وضع لذلك شروطا منها العدل: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[٤].

ولما كانت الجواري أكثرهن مما ملكت اليمين، فقد كان يشترط عند العثمانيين أن تكون الواحدة منهن ليس بها أي عيب، وإذا كن سيدخلن القصر الحريمي يتم تعليمهنّ أركان الإسلام وآدابه، أضف إلى ذلك أنه في بعض الأحيان يتم تعليمهنّ

١). مراد الرابع هو أحـمد الأول ابن محمد الثالث ابن مراد الثالث وهو الخليفة العثماني الثامن عشر، (١٠٣٢- ١٠٤٩ هـ، الموافق ١٦٢٣ إلى ١٦٤٠م) حكم سبعة عشر عاما وكان مع بداية حكمه عمره ١١سنة، توفي ١٦/ ١٠/ ١٠٤٩ هجري.

٢). إبراهيم الأول (١٠٤٩-١٠٥٨هـ/ ١٦٤٠- ١٦٤٨م) وهو الخليفة التاسع عشر، تولى الخلافة بعد أخيه مراد الرابع ١٠٤٩ هـ ، وكان عمره ٢٥سنة.

٣). كتاب تشكيلات الدولة العثمانية صـ ١٤٧-١٤٨

٤). سورة النساء آية رقم ٣.

الموسيقي والتمثيل، متى رأى القائمون عليهن موهبة لدى إحداهن تأهلها لذلك. وكان يطلق على الجواري في الفترات الأولى بعد أسرهن باسم «عجمي»، وبعد فترة من الزمن يحصلن على مراتب هي: الجراية – الشاغر- الأسطى. ولكل واحدة منهن وظائف معينة ولقب يخصها، فعلى سبيل المثال: جاجنجير أسطى، وهي التي تعتني بالمائدة، والجامجير: وهي التي تعتني بنظافة الملابس وغسيلها، وقد تجذب إحدى هؤلاء الفتيات أنظار السلطان؛ مما يجعلها تأخذ لقب: إقبال، والباشة إقبال، وهي التي ترأس وتسود هؤلاء الفتيات، وإذا حدث وأن أقامت الإقبال علاقة مع السلطان ونتج عن ذلك حمل فإنها ترقى إلى منصب «قادين»، ولا يكون هناك داع لانتظار المولود. والحاصلات على لقب «قادين» هن زوجات السلاطين اللاتي يتراوح عددهن عادة مابين أربع إلى ست أو سبع، وعندما ترقى الجارية إلى زوجة السلطان يكون لها دائرة خاصة بها، ويتم تعيين جواري لخدمتها لمكانتها التي وصلت إليها.

ويقول مؤرخ أمريكي في كتابه الذي يتحدث فيه عن الدولة العثمانية: إن الحريم السلطاني في القصر الحريمي ينتمين إلى نظام القولا «عبيد السلطان»[(١)]، وقد كان للسلاطين العثمانيون مواقف معينة من تعدد الزوجات والأولاد من الجواري، وقد أصبح الانضمام إلى الحريم العثماني حلم يراود الفتيات الشركسيات منذ نعومة أظافرهن، فالأم الشركسية تهدهد ابنتها منذ الصغر بأنها ستكبر وتصبح من حريم السلطان، وتنعم بالحياة فيه[(٢)]فلذا كانت أحلام بعض الفتيات حتى اللواتي ينحدرن من عائلات غنية، متعلقة بالانضمام إلى الحريم لتعمل في خدمة السلطان[(٣)].

---

١). lybyerA.H.op.cit,p56

٢). الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط صـ ٢٤.

٣). حلمي أحـمد شلبي، الأقليات العرقية في مصر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، صـ ٦٨.

ولم يكن غريبا أيضا أن يبادر أهل القوقاز إلى بيع بناتهم بمحض اختيارهم كي يتمتعن بحياة الرفاهية والحظوة لدى العثمانيين من خلال الحريم السلطاني، رغم أن الشرع لا يجيز هذا السبيل كطريق مشروع للاسترقاق[(١)].

ولقد أصبح زواج السلاطين العثمانيين من الجواري أمرا مستقرا منذ زمن السلطان سليم الأول حين تزوج من الجارية حفصة أم السلطان سليمان القانوني، ولا يؤثر في زواج السلطان من الجارية عنده العرق الذي تنحدر منه، وأشهر هؤلاء الجواري كوسم ماه بيكر، زوجة السلطان أحـمد الأول «١٠١٢ هـ/ ١٦٠٣م- ١٠٢٦ هـ/ ١٦١٧م»، وكانت ابنة قسيس رومي، وخورم سلطان زوجة سليمان القانوني تنحدر من عرق سلافي. وبصفة عامة فإن أمهات السلاطين العثمانيين كنّ من الجواري، وينحدرن من أصول غير تركية، ويهتم السلطان بالدرجة الأولى بثقافة وذكاء الجارية قبل اهتمامه بجمالها ومظهرها، فإذا لم يحس فيها بالذكاء قام بتزويجها. وعند وفاة السلطان تنقل كل نسائه وجواريه القائمة على الخدمة المباشرة من القصر السلطاني إلى أماكن جديدة[(٢)].

وفيما تقدم تظهر دوافع زواج السلاطين العثمانيين من الأجنبيات، ويمكننا أن نذكر أهم النتائج التي ترتبت على تلك الزيجات بما يلي:

أولا: إن الغالبية العظمى من السلاطين العثمانيين أقدموا على مثل هذه الزيجات بحيث ندر من السلاطين من لم يدخل في حريمه، أي زوجاته، زوجة كتابية أجنبية، وقد أصبحت هذه الزيجات تقليدا درج عليه سلاطين الفترة الأولى والثانية.

ثانيا: كان سلاطين الفترة الأولى لهم من قوة الشخصية ما يجعل زوجة كل منهم الكتابية تأخذ حجمها الطبيعي؛ بحيث لا يمكن أن تتدخل أية واحدة منهن في الشأن العام للحكم .

---

(١). Ziyaerkins Istanbul, Ictima Hayatinda Gariyeler, Tarih Dunyasi, sayi 28/29. s-1147 .

(٢). Gagatay,a-g-e-,s.22-29.

ثالثا: كان زواج سلاطين الفترة الأولى من الكتابيات الأجنبيات يتم في ظروف متباينة، ولدوافع مختلفة بحيث كان لكل زواج دوافعه و أسبابه بغض النظر عن نوع ذلك السبب، فقد كان بعض السلاطين يسعون لمصاهرة أسر حاكمة لها نفوذها في دولة مجاورة، قاصدين من ذلك توثيق العلاقات وتحسين الجوار، وكان البعض الآخر يتزوج الكتابيات كتنفيذ لبند في معاهدة فرضها على دولة أوربية منهزمة، كضمان لتنفيذ تلك المعاهدة، وكان البعض الآخر يتزوج الكتابية كمظهر عملي للتحالف العسكري الذي تعقده الدولة العثمانية مع دولة أخرى تنتمي إليها الزوجة الكتابية، أو على الأقل لتلتزم حكومة تلك الكتابية بموقف حيادي، وكانت هذه الأمور هي أغلب البواعث أو الدوافع السياسية والعسكرية في معظم هذه الزيجات، كما سبق وأن فصلنا.

رابعا: نشير إلى أن عددا من الزوجات الأجنبيات اعتنقن الإسلام بمجرد التحاقهن بالحريم السلطاني كزوجات، بينما لم تعتنق بعضهن الإسلام، بل بقين على المسيحية، بموافقة أزواجهن السلاطين على ذلك، ومع ذلك فان تلك الزوجات كن يدخلن إلى الإسلام، طالت الفترة أم قصرت، تبعا للعلاقات السياسية وتطورها بين الدولة العثمانية والدولة الأجنبية التي تنتمي إليها الزوجة الكتابية[١].

خامسا: إن بعض الزوجات الكتابيات كن يتظاهرن باعتناق الإسلام، ويتظاهرن بحب أزواجهن السلاطين، بل ويتظاهرن بولائهن للدولة العثمانية، ولكن كانت كل منهن تخفي بين ضلوعها حبا وولاء لوطنها الأول، وتعمل على تنفيذ برنامج حكومة بلادها لتحقيق مصالح وطنها، حتى لو كان هذا البرنامج يضرّ بمصلحة الدولة العثمانية التي جعلت منها سلطانة لأكبر دولة إسلامية، ولإحدى أهم دول العالم[٢].

---

١). الشناوي، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها صـ ٥٧٥- ٥٧٦.

٢). المصدر السابق، صـ ٥٧٥.

المبحث الثاني

نماذج من زيجات السلاطين

نماذج

من زيجات السلاطين:

في المبحث السابق من هذا الفصل تناولنا دوافع زواج السلاطين العثمانيين من الأجنبيات، وقد اتضح لنا التعدد والتنوع العرقي لهؤلاء الزوجات؛ الأمر الذي يستدعي أهمية التطرق إلى نماذج من هذه الزيجات السلطانية:

حفصة سلطان:

وهي زوجة السلطان سليم الأول «ياوز»، وأم السلطان سليمان الأول، المعروف بالقانوني، ولا توجد معلومات كثيرة حول حياتها، أو تاريخ ولادتها، كما هو شأن الكثير من نساء الحريم، للظروف سالفة الذكر، وإنما يبدأ توفر بعض المعلومات عنهنّ، بعد أن تصبح إحداهنّ زوجة للسلطان، وبدرجة أكبر حينما تكون والدة للسلطان، الوالدة المعظمة. ومن المعروف أنها توفيت عن عمر يناهز ٥٦ سنة، ما يعني أنها ولدت سنة «٨٨٣ - ٨٨٤ هـ/ ١٤٧٨ - ١٤٧٩م» وتوضح الوثائق أن اسمها حفصة أو عائشة وأن اسم أبيها عبد المؤمن، أو عبد الرحمن، أو عبد الحي[1]، وقد دخلت القصر كجارية، ولقد أشارت بعض المصادر بأنها تنحدر من أسرة حاكمة بالقرم أو ذو لقادر[2]. أمضت حفصة سنوات شبابها في طرابزون

---

(١) قد يوحي الاضطراب في تحديد اسم أبيها، واتفاقهم على إطلاقها على اسم من الأسماء التي تصلح أن تقال لأي أحد، بإسناد العبودية لاسم من أسماء الله تعالى، قد يوحي ذلك أنه لا توجد معلومات عن اسم أبيها أو أصولها، ويتم التعامل في بعض البلدان اليوم مع حالات كهذه حيث يكون اسم الأب لمن لا يعرف له أبٌ: عبد الله، ومعروف أن الجواري أو العبيد عموما، قد يتعرضون لظروف تجعل من الصعب التعرف على أصولهم، أو تحديد هوياتهم، وخصوصا فيما لو تمّ أسرهم أو اختطافهم وهم صغار السنّ، وفي التنزيل الكريم ما يشير إلى ذلك، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ ﴾. الباحث.

٢). إمارة تركمانية صغيرة نشأت في مرعش، وهي مدينة في أقصى شمال بلاد الشام في أحضان جبال طوروس، الحد الشمالي لسوريا، واليوم هي تقع في تركيا، نشأت في حدود سنة ٧٤٠/ ١٣٣٩، عرفت بهذا الاسم: ذو لقادر، ارتبطت هذه الأسرة مع العثمانيين عن طريق المصاهرة فقد تزوج السلطان محمد جلبي ابنة أحد أمرائها هو سولي بك سنة ٨٠٠ هـ، وأرسل السلطان مراد إلى أحد أمراء هذه الإمارة، ويسمى سليمان

أثناء تولي زوجها السلطان سليم «ياوز» إمارة طرابزون، وأنجبت الأمير سليمان هناك، وقام بايزيد الثاني بتولية ابنها الثاني على ولاية كييف عام ٩١٥ هـ/ ١٥٠٩م، وعندما اعتلى السلطان «ياوز» سليم العرش، بعد ذلك ذهب إلى القرم مع أبيه بناءً على تعيينه لولاية صاروخان، ثم ذهب إلى مانية بعد ذلك واستقر بها، ولكن عندما اعتلى الأمير سليمان العرش أخذ أمه إلى اسطنبول، وأمضت حفصة والدة سلطان مدة ١٣ عاماً و٥ أشهر و ٢٧ يوما بلقب «والدة سلطان»، أو مهدي أو ليا، ثم توفيت يوم «٤ رمضان عام ٩٤٠ هـ / ١٩ مارس ١٥٣٤م» ودفنت بمقبرتها في حديقة جامع السلطان سليم. وتذكر المصادر المحلية والأجنبية أن حفصة والدة سلطان كانت ذات تأثير قوي على ابنها السلطان سليمان القانوني، لكنها لم تستخدم هذا التأثير في الاتجاه السلبي، ولعبت دوراً إدارياً في القصر بالمعنى التام، وذكرت المصادر أيضاً أن حفصة والدة سلطان قد بذلت قصارى جهدها، وعملت من أجل منع خورم سلطان زوجة القانوني من الاستحواذ على النفوذ بالقصر والدولة على مدى حياتها، ولا تزال بعض الخطابات والرسائل التي أرسلتها إلى زوجها سليم، ياوز، وابنها سليمان القانوني موجودة، شاهدة على ذلك[١].

وكما كانت حفصة سلطان معروفة بجمالها، فإنها أيضاً كانت معروفة بحب أعمال الخير بنفس هذا القدر، ونجد من المؤسسات والمباني الخيرية الكثيرة التي أمرت بإنشائها المجمَّع الخيري الذي انتهى قسم منه في مانيه، وقد أنشئ سنة ٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م ويتألف من جامع ومدرسة ابتدائية ومستشفى وتكية ومصبغة

بك، يطلب منه خمس بنات، زوَّج أجملهنّ وهي سبي مكرمة خاتون لابنه محمد «الفاتح»، كما تزوج با يزيد الثاني عائشة خاتون ابنة علاء الدين وأنجبت له سليمان الأول. ظلت إمارة ذو لقادر على علاقة خاصة بالعثمانيين، ثم أصبحت جزءا من الدولة في سنة ٩٢١ هـ بعد الحروب التي نشبت بينهما وهزيمة الأمير علاء الدين من طرف الصدر الأعظم سنان باشا.

انظر تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها وحتى نهاية العصر الذهبي. أحمد مزاد متولي، إيترال للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٥.

(١) الموسوعة الإسلامية للوقف الديني بتركيا مجلد ١٥ اسطنبول ١٩٩٧م، صـ ١٢٢.

وحـمام ومطعم، وقام القانوني بعد وفاتها بإضافة حـمام عام ٩٤٥ هـ/ ١٥٣٨م، ومستشفى عام ٩٤٦ هـ/ ١٥٣٩م إلى هذا المجمَّع الخيري باسمها. وكما سـبق ذكـره فإن مجمَّع حفصة الخيري يعتـبر أروع نمـوذج معمـاري للعمـارة العثمانيـة بالعصـر الكلاسيكي في مانية، وكان يطلق عليه اسم مجمَّع السلطانية، وقد تبوأ مكانـة مهمـة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمدينة[1].

خـــورم سلطـــان «روكســـلانا»

وهي زوجة السلطان سليمان القانوني ووالدة السـلطان سـليم الثـاني، هنـاك أخبار تفيد بأنها ابنة باباو أسـقف كـاثوليكي فقـير كـان يعـيش في قريـة دوجـاتين الموجودة تحت حكم بولندا في تلك الفترة، والتي لا تزال على حدود أوكرانيا اليوم، واسم هذه المرأة الأصلي «الكسندرا ليوفيسكا»[2].

ولقد ذكرت بأسماء كثيرة منها : دوسة، وروزه، وروسانا، وروزنا، أما الاسـم الأكثر شيوعاً وانتشاراً فهو: **روكسلانا**، في المصادر العثمانية وغيرها، ولقـد تم أسـر خورم أثناء غارات القرم على أوكرانيا في عهد السلطان ياوز سليم، وكانت في سن الرابعة عشر أو أكبر بقليل، فقد تم تقديمها من قبل حفصة سلطان أو مقبول إبراهيم باشا للأمير سليمان، الذي أصبح فيما بعد السـلطان سـليمان القـانوني، وأخـذت لقب خورم أو حوروم شاه، بسـبب وجههـا الضـحوك، وحظيـت بتربيـة جيـدة في القصر، وفي ظل جاذبيتها وجمالها وذكائها أصبحت محبوبة القـانوني، وفي عـام ٩٢٧ هـ/ ١٥٢١م أنجبت الأمير محمـد وأخـذت لقـب خاصـكي، وفي عـام ٩٢٨ هــ/ ١٥٢٢م أنجبت من القانوني بنتاً تدعى مهرماه سلطان، وأنجبت بعد ذلـك بصـورة متتابعة كلاً من عبد الله وسليم وبايزيد وجهانكير، ولقد مات مـن هـؤلاء عبـد الله في سن صغيرة. وبسبب حب السلطان سليمان الجارف لخـورم فقـد حـدث صـراع شديد بينها وبين ماهي دوران جلهار سلطان زوجته السـابقة، وأم الأمـير مصـطفى

---

(١) الموسوعة الإسلامية المجلد ١٥ صـ ١٢٣.

(٢) المصدر : موسوعة الوقف الديني بتركيا الموسوعة الإسلامية المجلد ١٨ اسطنبول، ١٩٩٨م، صـ ٤٩٨.

أكبر أبنائه، ولكن بعد وفاة حفصة سلطان التي كان لها تأثير عظيم على ابنها السلطان سليمان، والتي كانت تعمل على خلق التوازن بين زوجتيه؛ قام القانوني بإرسال زوجته ماهي دوران سلطان إلى جوار ابنها الأكبر مصطفى الذي كان والياً في مانية، وبعد ذلك تزوج خورم سلطان، على الرغم من عدم وجود سبب يدعو السلطان على الزواج من جارية، ونتيجة للحياة البائسة والفقر الذي عاشته خورم سلطان في صغرها استطاعت كسب حب السلطان. وفي حقيقة الأمر فإن خورم سلطان التي كانت محل حب عظيم للسلطان سليمان القانوني نجحت في تقوية نفوذها وفرضه، والسيطرة على السلطان في وقت قصير، وتتضح درجة هذا الحب العميق من خلال الخطابات التي كان يرسلها السلطان إليها في الأوقات التي يكون خارج اسطنبول بسبب حروبه في الشرق والغرب[١].

وكما ذكرنا فإن خورم سلطان قد فرضت سيطرة تامة في القصر ثم وضعت نصب عينيها هدفاً وحيداً لحياتها، وهو أن يكون أحد أبنائها سلطانا بعد وفاة زوجها. وعليه كان وجود الأمير مصطفى أكبر أبناء السلطان والمرشح لهذا المنصب، والمستحق له بجدارة، يمثل الخطر الأكبر على تعيين أبنائها، والعقبة الكأداء أمام طموحها الأعظم، لأن حفصة سلطان أمّ سليمان، والصدر الأعظم مقبول إبراهيم باشا كانوا ينظرون إلى الأمير مصطفى على أنه ولي العهد، وكذلك فإن رجال الجيش والشعب كانوا يحبون هذا الأمير كثيراً. وبدأت خورم سلطان جهودها من أجل القضاء والتخلص من رجال الدولة المؤيدين للأمير مصطفى، وعندما توفيت والدة السلطان حفصة سلطان أصبح هذا الأمر سهلاً للغاية وإلى درجة كبيرة، ولم يعد أمامها عائق يذكر دون تنفيذ كامل خططها بكل سهولة ويسر. ويعتقد أن خورم سلطان قد لعبت دوراً هاماً للغاية في إسقاط الصدر الأعظم مقبول إبراهيم باشا، ثم قتله بعد عودة السلطان من حرب العراقيين بفترة قصيرة؛ حيث أنها قد زجت باسم هذا الصدر في بعض الأحداث أثناء توليه قيادة الجبهة الشرقية. وبعد

(١) Turkiye Diyanet Vakfi Cilt 18 Huseyin Lamekani Istanbul 1998 S.499.

القضاء على الصدر الأعظم إبراهيم باشا بدأت خورم سلطان تتدخل بشكل قوي في شئون الدولة، وبعد الحريق الذي شب في القصر القديم ليلة : ٢٧ رمضان ٩٤٧ هـ / ٢٥ يناير ١٥٤١م أصرت بنقل الحرم إلى القصر الجديد، وأمرت بعمل بروتوكولات الحرم، وفي نفس السنة كان لحرم السلطان تأثير عظيم في إبعاد الأمير مصطفى عن مانيه، وإرساله إلى أماصيا بعيداً عن اسطنبول كثيراً، وبعد زواج ابنتها مهرماه سلطانة برستم باشا، فإن خورم سلطان عينته وزيراً خلال فترة قصيرة، ثم لعبت دوراً فعالاً في ترقيته إلى منصب الصدر الأعظم، ليتولى بنفسه حياكة الدسائس ومساعي الفساد بين السلطان وابنه[١].

وبسبب وفاة ابنها الأمير محمد في مانيه «٩٥٠ هـ /١٥٤٣م» وكان مرشحها لمنصب السلطان، فإنها بذلت قصارى جهدها من أجل نيل أحد أبنائها بايزيد أو سليم منصب السلطان، وسعت إلى تولية الأمير بايزيد بصفة خاصة حيث أنه حظي بتربية ونشأة جيدة، وكان لها دور أيضاً في محاربة إيران عام «٩٥٥ هـ/ ١٥٤٨م» ليكسب سليم وبايزيد الذين كانا في ولاية قرمان ومانيه احترام وثقة الشعب والجيش ببطولاتهم هذه. وهكذا فإن الأمير سليم تم تكليفه لينوب عن أبيه في أدرنه، أما بايزيد فإنه حصل على أمر بالانضمام إلى أبيه في حلب، وتم ترك وتهميش الأمير مصطفى أكبر أبنائه لتسقط بذلك مكانته واعتباره عند الشعب والجيش. ولا شك أن لخورم سلطان وابنتها مهرماه وصهرها رستم باشا دور كبير في مقتل الأمير مصطفى أثناء حرب إيران عام:٩٦٠ هـ/ ١٥٥٣م، وهذه الحادثة أدت إلى إثارة غضب الجيش بصورة كبيرة، وعزل رستم باشا عن منصبه، وتعيين الوزير الثاني قره أحمد باشا في منصب الصدر الأعظم بدلاً من رستم باشا، أما خورم سلطان فإنها طلبت من السلطان سليمان القانوني في الخطاب الذي أرسلته إليه ألا يقوم بقتل رستم باشا، وبعد عامين أيضاً تم قتل أحمد باشا بتأثير من خورم سلطان، وتم تعيين رستم باشا في منصب الصدر الأعظم ثانية، وبعد بضعة

(١) الدولة العثمانية المجهولة، مصدر سابق: صـ ٢٤٨.

شهور من مقتل الأمير مصطفى توفي الأمير جهانكير في حلب، وحزن السلطان سليمان وأمه خورم عليه كثيراً، ولذلك فإنه لم يتبق على قيد الحياة من أبناء خورم سوى سليم وبايزيد فحسب(١).

وأثّر هذا الحدث المؤلم في نفس خورم سلطان، فمنحت نفسها لأعمال الخير وشاركت في بعض الجهود الدبلوماسية، وأقامت علاقات مع أخت الشاه طهماسب الأول، وقد أرسل لها الشاه هدايا بعد إنشاء جامع السليمانية، وفي المقابل كتبت خورم سلطان خطاب شكر. وقد توفيت خورم سلطان بعد أن أصابها المرض في اسطنبول يوم ٢٦ جمادى الآخرة عام ٩٦٥هـ الموافق ١٥ إبريل ١٥٥٨م، ودفنت بفناء جامع السليمانية، وأمر السلطان سليمان بتشييد مقبرة عظيمة لها لتصبح ضريحاً. وبعد وفاتها وتخليداً لذلك تم عرض مسرحيات أوبرا ومسرح في تركيا وأوربا باسم خورم سلطان، ومن أعظم الآثار الخيرية التي تركتها خورم سلطان في اسطنبول المجمَّع الذي يتألف من مدرسة صغيرة، وأخرى كبيرة، ومستشفى، وجامع، في حي يدعى خاصكي باسمها، ولا يزال في اسطنبول، وقامت ببناء حمامين بالقرب من أيا صوفيا، كما كانت لها آثار خيرية في مكة والمدينة والقدس وتركيا، وهي أوقاف ذات دخول وإيرادات عالية من أجل هذه الآثار التي أمرت ببنائها وفي مقدمتها مجمَّع خاصكي. وبالإضافة إلى ذلك فإنه بعد وفاة خورم سلطان قام السلطان سليمان القانوني بتشييد تكايا في مكة والمدينة باسمها، وأنشأ جامعا ومطعما عند جسر مصطفى باشا الذي تنبع منه عيون كثيرة تجلب الماء إلى أدرنة، وأوقف مصادر إيرادات لهذه المباني. ولم تكن خورم سلطان الزوجة الوحيدة لسليمان القانوني غير أننا تناولناها كنموذج فريد لزوجاته، ويوجد غيرها نذكر بعضهن باختصار : **ماهي دوران خاصكي**: وهي أم الأمير مصطفى، **فلانة حاستون**: أم الأمير محمود، ومحمد، وكذلك **جلفان خاستون**: وهي أم الأمير مراد،

(١) Turkiye Diyanet Vakfi Cilt 18 Huseyin Lamekani Istanbul 1998 S. 500

ولها أوقاف كثيرة[1].

كوسم سلطـــــــــان:

زوجة السلطان أحمد الأول، وأم السلطانين مراد الرابع وإبراهيم الأول، أشهر نساء التاريخ العثماني على الإطلاق، وهي من أصل يوناني، وقيل إنها ابنة قسيس، ذُكرت في التاريخ العثماني بألقاب عِدّة، وأخبارها كثيرة، عرف عنها شغفها بالسياسة، شاركت في قيادة الدولة أثناء حكم ابنيها «مراد الرابع» و«إبراهيم الأول»، وبداية عهد حفيدها «محمد الرابع»، بصفتها «والدة سلطان» أو نائبة، بصورة رسمية وغير رسمية، ولقد نسبت إليها المصادر بأنها كانت السبب في أحداث كثيرة غير مشرفة، لم تكن تخدم المصالح الوطنية للدولة، كانت ذكية بدرجة استثنائية، ماكرة مراوغة، خبيرة في وضع الخطط السياسية المحكمة، والمؤامرات المتعددة الوجوه، كانت خبيرة في الإقناع قادرة على التأثير في مخاطبها بصورة كبيرة، اهتمت بإرضاء الشعب، وتركت مؤسسات خيرية منتشرة في أماكن عدة يصعب حصرها، فقد وصلت ثروتها حداً فاحشاً انتقلت بعد وفاتها إلى خزينة الدولة. توفيت مقتولة عن عمر ناهز ٦٢ سنة، ودفنت إلى جانب زوجها أحمد الأول في الذكرى الـ ٤٧ لزواجهما[2].

طورخـــان سليطـــان :

هي زوجة السلطان إبراهيم، أو دلي إبراهيم[3]، وأم أوجي سلطان محمد «السلطان محمد الرابع». وطورخان من أصل سلافي، وقعت في أيدي تتار القرم الذين قاموا بهجمات داخل روسيا، وكانت في سن الثانية عشر، وقام تجار الأسرى بنقلها إلى اسطنبول وتم بيعها هناك، وقد أخذها أحد التجار، ويدعى كور سليمان باشا، وعندما بلغت الرابعة عشر من عمرها أهداها إلى كوسم سلطان بالقصر

---

١) انظر: يلماز أوزتونا، كتاب الدولة والأسرة الحاكمة تركيا (١٠٧٤ – ١٩٩٠)، المجلد ٢ صـ ١٦٤.

(٢) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية ـ صـ ٤٩٧.

(٣) وتعني: إبراهيم المجنون، وستتعرض لمناقشة هذه الجوانب في شخصية السلطان إبراهيم.

العثماني، وبعد فترة قصيرة قامت كوسم سلطان بتقديمها للسلطان إبراهيم لتصبح جارية للفراش. عندما أنجبت طورخان «السلطان محمد الرابع»، ووقتها لم يكن عمرها قد تجاوز ١٥ سنة، لم تكن تبدي اهتماماً يذكر، سواء بشئون الدولة أو القصر، أثناء حكم زوجها، لكن الأحداث التي جرت بعد عشرة أيام من إقصاء وخلع زوجها السلطان إبراهيم عن العرش عام ١٠٥٨ هـ/ ١٦٤٨م حولتها إلى امرأة ذائعة الصيت في التاريخ العثماني، وجعل منها امرأة ذات مكانة وشأن في الدولة العثمانية، وقد اشتهرت بعمل الخير كما سبق توضيحه[1].

ولقد تولى ابنها محمد الرابع الحكم خلفاً لأبيه السلطان إبراهيم، الذي كان في سن السابعة من عمره، وكان معروفا بلقب «أوجي»، أي: الصياد، ولهذا السبب فإن جدته الكبرى كوسم سلطان أصبحت في منصب نائب السلطة، ولكن كوسم سلطان هي من قامت بالتخطيط للأحداث أدت إلى إقصاء السلطان إبراهيم عن العرش السلطاني، وتمكنت أيضاً بالإمساك بمقاليد الحكم خلال فترة قصيرة، ويعد أغاوات الأوجاق[2] الذين يطلق عليهم العصابات أكبر مساعدين لها بالدولة؛ لدرجة أن بعض المؤرخين قد أطلق على هذه الحقبة التاريخية اسم سلطنة الأغاوات العثمانيين. ومن ناحية أخرى فإن غزوات وتحركات الجلالي[3] قد اندلعت من جديد بسب استبدادية أغاوات الأوجاق، وعلى الرغم من تغيير الصدر الأعظم ٣ – ٤ مرات خلال فترة قصيرة فإن الدولة لم تخلص نفسها من تحكمات أغاوات الأوجاق، ولم تسيطر على مقاليد أمورها، وبدأت هذه العصابات تزيد من أعمالها

---

(١) Türk Ansiklopedisi, Cilt XXXII, Devlet Kitaplari Ankara, 1983 S. 20

(٢) الجلالي: تعني قطاع الطرق والمتمردين البغاة ضد الدولة العثمانية في منطقة الأناضول خلال القرن السادس عشر، وقد هزت حركات عصيان الجلالي مكانة الدولة بقوة في الأناضول، وأخذت هذا الاسم بعد عصيان «قزل باشا الشيخ جلال» عام ٩٢٥ هـ، في عهد السلطان ياوز سليم، ثم أطلق على جميع حركات العصيان: جلالي. انظر الدولة العثمانية المجهولة، مصدر سابق، صـ ٢٧٧. ودراسات في التاريخ العثماني، سيد محمد السيد، دار الصحوة للنشر – القاهرة ١٤١٦ – صـ ١٤٢.

(٣) الأوجاق أو الوجاق: كلمة معناها الأصلي: موقد، وأصبحت تطلق على الفرق العسكرية. في أصول التاريخ العثماني، مرجع سابق: صـ ٤٥.

التخريبية، وبدأت جميع الأوضاع تدخل في صورة الأزمة، وكان أغاوات الأوجاق يرون أن النهاية قد قربت، وأجبروا كوسم على اتخاذ تدابير جديدة، وفي ظل هذا المناخ وهذه الأجواء قامت الوالدة الصغيرة طورخان سلطان بتشكيل مجموعة من أغاوات الأوجاق الانكشارية، ولم تنته الخلافات والصراعات بعد أغاوات الانكشارية، والوجهاء من أنصار طورخان سلطان مثل الباشا لالا سليمان أغا، وريحان أغا معلم السلطان ومصاحبه، والنديم إسماعيل آغا. وفي نهاية الأمر قامت كوسم سلطان بترتيب خطة للقضاء على طورخان سلطان وأنصارها، وبموجب هذه الخطة التي سوف يقوم بتنفيذها الخائنون تحرك آغاوات الانكشارية، وتخلصوا من محمد الرابع، وبعد ذلك يتم تصفية طورخان سلطان، ثم تقوم كوسم بتعيين سليمان حفيدها وابن ابنها على حكم العرش بلا منافس وتحت اسمها، وسوف يساعدها الكثير في هذا الصدد، ودخل آغاوات الانكشارية من الباب سراً ليقوموا بالقضاء على أنصار طورخان من الوجهاء، وتم إعداد شراب مسموم كي يتجرعه السلطان محمد للتخلص منه، ولكن إحدى جواري كوسم سلطان الوالدة الكبيرة قد علمت بخطتها، وأخبرت طورخان سلطان الوالدة الصغرى بالأمر، وعلى الفور تحرك أنصار طورخان، وقاموا بقتل الحارس الخاص لغرفة السلطان محمد أولاً حتى لا يتمكن من تسميمه، ثم وصلوا إلى دائرة الوالدة الكبيرة كوسم سلطان، وضمنت كوسم أن الوافد هم رجالها من الآغاوات، وبعد ذلك تم الإمساك بكوسم سلطان التي تنكرت في إحدى الغرف الخاصة متخفية بملابس تنكرية، وتمّ خنقها وقتلها بحبل ستارة كان بيده «شعبان ١٠٦١ هـ/ أغسطس ١٦٥١م»[(١)].

وعقب ذلك تم إعدام مجموعة من آغاوات الانكشارية، أما المجموعة الأخرى، فقد تم إبعادها عن اسطنبول وتم عزل قضاة العسكر وكذلك شيخ الإسلام معهم، وهكذا انتهت فترة الاضطرابات وعدم الاستقرار وهذه الفترة يطلق عليها فترة سلطة الأغاوات، وقد استمرت أكثر من ثلاث سنوات. وقامت طورخان سلطان

---

(١) Türk Ansiklopedisi, Cilt XXXII, Devlet Kitaplari Ankara, 1983 S. 21

بإظهار الصمود والقوة والصبر الذي لا يعرف النفاد مع سائر رجالها من أجل الوقوف على حكم البلاد وظل القصر تحت سيادة النساء بعد كوسم، لكن هذه المرة كان تحت سيادة سيدة لها نوايا خيرة وحكمت الدولة باسم ابنها منذ ١٠٦١ هـ/ ١٦٥١م وحتى ١٠٦٦ هـ/ ١٦٥٦م، أي: خمس سنوات. وتم خلال هذه الفترة تغيير الصدر الأعظم عشر مرات، وهذا يدل على أنها كانت تبحث عن إدارة ذات خبرة ودراية بالأمور، وعلى الرغم من كل مساعيها وجهودها هذه، فإنها لم تحقق الاستقرار والنظام والحيوية في إدارة الدولة، واستمرت تحركات الجلالي في سائر الأماكن، وانهزام الأسطول العثماني فيما يتعلق بحربه في كريت، وتجرأ البنادقة على السفن العثمانية بمضيق الدردنيل، ولم يحدث استقرار في النظام المالي للميزانية وحدثت تمردات من سكان اسطنبول وسائر فرقة السباهي والقابو قولو[1]. وفي نهاية المطاف قررت طورخان سلطان تعيين كوبريلي محمد باشا في منصب الصدر الأعظم، بعد أن قابلته بشكل سري وخاص، وهو الذي أوصى به قاسم أغا المعماري الشهير، وفي حقيقة الأمر أن كوبريلي قَبِل بهذا المنصب بشروط جعلت أمور الدولة مستقرة، وقد كان مؤمناً بأن الدولة من الممكن أن تجتاز هذه الظروف الصعبة، ولذلك فإنه بدأ يلفت أنظار رجال الدولة نحوه، وهكذا بدأت فترة مرحلة استقرار جديدة بتعيين كوبريلي في منصب الصدر الأعظم لمدة ٢٧ سنة من عام ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٦م وحتى ١٠٩٤ هـ/ ١٦٨٣م، وهكذا فقد أثبت هذا الصدر الأعظم كوابريلي أنه كان ذا بصيرة في حماية الوطن مثلما هو الحال في الموضوعات الإدارية أيضاً، وقد فكَّر الصدر في عمل قلعتين عند مدخل المضيق بالبحر الأبيض المتوسط «مضيق الدردنيل»، وتم تشييد قلعتين حصينتين تحت مسمى سد البحر عند ساحل الأناضول وعند ساحل الروميلي، وذهب السلطان مع أمه ورأى أن هذه القلاع قد وضعت في مكانها المناسب تماماً، لقد كانت طورخان

---

(١) القابي قولو: وترجمتها الحرفية: عبيد السلطان أو خدم القصر السلطاني، وهي مؤسسة الموظفين والجنود الدائمين التابعين للسلطان. انظر المزيد عند: آق قندز، الدولة العثمانية المجهولة، م. سابق، صـ ٧٠.

سلطانة عظيمة ورحيمة، وبعد إنجابها محمد الرابع منعت بشدة قتل إخوته من أجل استحواذه هو على الحكم بمفرده[(١)]

تركت طورخان مؤسسات خيرية عظيمة، لكن الخدمة التي أدتها للدولة قد فاقت بكثير نشاطها الخيري، لم يكن لها أي حرص شخصي، كانت تملك الشخصية والذكاء وحبّ الوطن، والتضحية والقوة التي تؤهلها لحماية المصلحة بكفاءة، أثنى المؤرخون عليها كثيرا، لم تكن أقل ذكاء من كوسم، لكن ذكاءها كان للخير والمصلحة، انسحبت طواعية من المشهد السياسي، تاركة لكوبريلي السلطة، وبقيت مستشارة خاصة لابنها بصورة سرية لتلقينه دورسا في التضحية وحب الوطن، سعت جهدها حتى لا يتكرر ما عايشته ورأته من فوضى وفساد بسبب تدخل نساء السراي[(٢)] في شئون السياسة، اختارت لابنها زوجة ستكون «والدة سلطان» ربتها وعلمتها ولقنتها واجبات الخاصكي، والتي أكدت لها أن السياسة ليست من تلك الواجبات والاهتمامات، ودفنت طورخان بجوار مبنى جامع في اميدانونو باسطنبول وكان عمرها ٥٥ سنة[(٣)].



(١) Türk Ansiklopedisi, Cilt XXXII, Devlet Kitaplari Ankara, 1983 S. 21

(٢) السراي: كلمة تركية من أصل فارسي، ومعناها: قصر، وكان السراي عبارة عن مبنى أقيم على عهد الدولة البيزنطية، ولما فتح السلطان محمد الثاني القسطنطينية أمر بترميمه واستخدمه بعد الفتح فورا، وأصبح حاليا جامعة اسطنبول، أما السراي الجديد فقد أمر هذا السلطان بتشييده، وهو الآخر كان يضمّ بعض مباني سابقة، ويطلق عليها الآن: طوب قابي سراي، وإلى عهد السلطان سليمان القانوي كان السلاطين يوزعون إقامتهم حين يكونون في اسطنبول بين القصرين. محمد الخير عبد القادر – نكبة الأمة بسقوط الدولة العثمانية –مكتبة وهبة –القاهر ة ١٩٩٣. صـ ٢٨٩.

(٣) انظر : يلماز أوزتونا تاريخ الدولة العثمانية، صـ ٥٠٠

الفصـــــل الثـالـــث

أثر الزواج من الأجنبيات على الدولة العثمانية

المبحـث الأول: أثرهن على السلاطين وتدخلهن في الحكم

المبحـث الثاني: الصراع بين الزوجات الأجنبيات

المبحـث الثالث: ظهور مجموعة من الأجانب في البلاط العثماني

المبحث الأول

أثرهن على السلاطين وتدخلهن في الحكم

أثرهن على

السلاطين وتدخلهن في الحكم:

لئن كان عصر السلطان سليمان القانوني «٩٢٦ هـ/ ١٥٢٠م - ٩٧٤ هـ/ ١٥٦٦م» عصراً مثَّل قوة الدولة وازدهارها، فقد اعتبر في الوقت نفسه البداية الحقيقية لرحلة الدولة الطويلة نحو السقوط والانهيار. فقد بدأ السلطان نفسه في ضرب المعول الأول في حائط الدولة المنيع، ففي الوقت الذي كان فيه القانوني حريصا على وضع القوانين وذلك بتعيينه آغا باب السعادة: إبراهيم آغا صدرا أعظم، أدى ذلك إلى تمرد الوزير أحـمد باشا وعصيانه في مصر عام ٩٢٩ هـ/ ١٥٢٣م. وفي النصف الثاني من عهد القانوني راح يخضع لرغبات زوجته خورم سلطان «روكسلانا» التي كانت تسعى لأن يتولى أحد أبنائها عرش السلطنة، بدلاً مـن أكبر أبناء السلطان ولـي العهد الأمير مصطفى، مما سيعود عليها بالامتيازات سالفة الذكر، ويعتبر هذا تدخلا مباشرا لهذه الزوجة في شان الحكم؛ فكان بداية بذرة خلاف بين السلطان والصدر الأعظم إبراهيم باشا الذي كان يؤيد الأمير مصطفى؛ مما أدى إلى عزله وتعيين رستم باشا بدلا منه، وهكذا استطاعت بمساعدة الوزير الأعظم الجديد رستم إيهام السلطان سليمان بأن الأمير مصطفى يسعى للاستقلال وعزله، وتوليه السلطنة بدلا منه[1].

وبذلك تمت المؤامرة وغدر بالسلطان فأمر بقتل أفضل أبنائه على الإطلاق وأقدرهم على تحمل المسئوليات العالية للدولة عام ٩٦٠ هـ/ ١٥٥٣م. وهكذا وضعت خورم أو روكسلانا البذور الأولى لمفاسد وفتن السراي العثماني، ومن ثم تدخل نساء ورجال السراي في شئون الدولة، وكانت البداية لتولية سلسلة طويلة من السلاطين الضعاف. لم تنته هذه المرحلة حتى كانت عوامل تدخل «روكسلانا» قد عمت آثارها في مختلف مؤسسات الدولة، وتشكيلاتها، وراحت تنعكس

---

(١). Osmanli Tarihi",II, S. 318-408

بالتدريج على إنجازاتها الخارجية، فعلى سبيل المثال انعكس ذلك في حربها مع النمسا، الذي بيَّن ضعف جيش السباهية[١].

وكان المؤرخون العثمانيون على حق، عندما وضعوا على رأس عوامل ضعف الدولة: ضعف سلطة السلاطين، فلما كان السلطان العثماني هو مدار الدولة العثمانية، والعمود الفقري للنظام الإداري والعسكري، وصاحب كافة السلطات فيها[٢]، كان أي ضعف يصيبه أو يصيب سلطته يمثل ضعفا للدولة بكل مؤسساتها، وللسلطة التي تسيّر دفة الحكم فيها؛ فيكون ذلك سببا في عدم التقيد بقوانين الدولة، وبفرمانات السلطان، فيضعف نفوذه على مؤسسات الدولة، وتتفكك سلطاته، فتتنازعها مراكز القوى التي كانت تجد عندئذ مجالا رحبا للظهور في السراي العثماني، «أمهات السلاطين، وزوجاتهم، وأغوات دار السعادة، وغيرهم في أجهزة الدولة الإدارية والعسكرية» الأمر الذي أدَّى إلى حالة من الخلل العام في الدولة[٣].

إن عدم كفاءة الصدور العظام، والذين أطلقت عليهم الدولة ألقابا عديدة أوضحت مكانتهم الكبيرة في بنائها؛ فالصدر الأعظم هو الوزير الأول في الدولة، صاحب الخاتم السلطاني، والوكيل المطلق للسلطان، بل هو نظام العالم[٤]، فقد كان سلاطين الدولة الأوائل يعرفون سمات الرجال العظام فيعينونهم في هذا المنصب، حتى صاروا دعامة قوية في تحقيق إنجازاتهم في الخارج والداخل[٥].

وقد استطاع بعض هؤلاء الصدور ملء الفراغ السياسي الذي تركه ضعف السلاطين، حيث تمكن صقوللي محمد باشا من ممارسة سلطاته الكاملة في الدولة فلم تظهر عوامل الانهيار الداخلي، إلا بعد عزله عام ٩٨٧ هـ/ ١٥٧٩م، بعده لم تجد الدولة رجلا على نفس الطراز والمقدرة والكفاءة؛ ففي ظل عزوف السلطان

---

١). خليل ابناجيك صـ ٩٣ - ٩٤.F. Einecen, S. 44-45.

٢). F. Emenen, "Osmanli Siyasi Tarihi", S. 44-54.

٣). Uzuncarsili, Saray, Teskilati, S.156-158, 157, "Osmanli Tarihi"/119.

٤). Akgunduz, Osmanli Konunnarneleri, I/121-211.

٥). Ronk, XVI, XVII, Asiraa, Osmanlive, Ispaniakiralligi, S. 148-149.

مراد الثالث عن النظر في شئون الدولة، وتولية صدور عديمي الخبرة والكفاءة، ازدادت تدخلات نساء ورجال السراي وحاشية السلطان، حتى أطلق بعض المؤرخين على الدولة في هذه الفترة اسم: «سلطنة النساء والحاشية»[١].

وقد أدى ذلك إلى عدم استقرار الإدارة في الدولة وانتقال مقاليد الحكم لنساء السراي، فأخذ التعيين في وظائف الدولة لا يخضع للكفاءة والمقدرة والتسلسل الوظيفي، بحسب القوانين والأعراف التي كانت جارية من قبل، وإنما راح يتم بطريق الالتماس والرشوة التي كانت تدفع للوالدة، وللوزير الأعظم، ولمن لهم تأثير على السلطان، وهكذا سُحبت إدارة شئون الدولة من يد هؤلاء الوزراء، فلم تعد للفرمانات التي كانت تصدر بمعرفتهم عن الديوان الهمايوني نفس الأهمية القديمة، بعد أن صار أصحاب النفوذ يستصدرون خطوطا هـمايونية من السلطان نفسه ومن النساء[٢].

إن السلطان سليمان القانوني بدأ يشعر بتأثير قضايا سياسية داخلية، أثناء استعداده للحرب، للقيام بالمسئولية التي تم إلقاؤها على عاتقه، أما جماعة «الدوشرمة» الذي ظهر بصورة ناجحة بسبب امتلاك إبراهيم باشا، منصب الصدر الأعظم، فإنه انقسم إلى مجموعات سياسية صغيرة، وهؤلاء كانوا يراعون مصالحهم أولا قبل مصالح الدولة، وأول دليل على ذلك ما جرى بعد عودة السلطان إلى اسطنبول؛ فقد أمر السلطان سليمان القانوني بإعدام إبراهيم باشا: «١ جمادى٢ ٩٣٢ هـ/ ١٤-١٥/ مارس ١٥٢٦ م» وقام بمصادرة أمواله وأملاكه، والسبب هو دخول إبراهيم باشا أذربيجان قبل مجيء السلطان، واتهامه بأنه حصل على رشوة من الصفويين لمنع الحرب التي كانت ستجري من بغداد وحتى إيران، وأنه يعمل على الاستفادة من قيادته للجيوش العثمانية، وسوف يعلن استقلاله[٣].

---

١). Osmnli Tarihi III. S.43-118

٢). المصدر السابق نفس الصفحة.

٣). المصدر السابق صـ ٤٦.

لكن الأسباب الحقيقية لسقوط إبراهيم باشا، تكمن في أن إبراهيم باشا كان تحت حـماية حفصة خاتون، أم السلطان سليمان القانوني، واهتزت مكانته ووضعه كثيرا بسبب وفاتها، أما خورم سلطان زوجة سليمان القانوني، فإنها تحالفت مع اسكندر جلبي أحد خصوم ومنافسي إبراهيم باشا، وبدأت في تأسيس حزب الحرم بنفسها، وكانت تريد بذلك الاستيلاء على الحكم العثماني، وتعيين أحد أبنائها الأربعة على العرش العثماني، وهم: محمد، جهانكير، سليم، بايزيد، ولكن ماهي دوران خاتون زوجة السلطان سليمان القانوني وأم الابن الأكبر للقانوني، وولي العهد مصطفى عارضت خورم سلطان ووقفت ضدها، وأيدت إبراهيم باشا التابع لها. ثم كسبت خورم سلطان هذا الصراع من خلال دعم السفير الفرنسي للصدر الأعظم الذي سيخوض الحروب الغربية أكثر من إبراهيم باشا، ومن ثم فإنها أجبرت السلطان سليمان القانوني على إهانة إبراهيم باشا. وهكذا فإن سقوط إبراهيم باشا لم يكن بداية مؤامرات نساء الحرم فقط، بل كان بداية للجوء للسفراء الأجانب في العاصمة العثمانية[١].

وقد حدثت تغيرات داخلية في الدولة العثمانية، فعندما عاد السلطان سليمان القانوني من بوغرام ظل يعدّ لحربٍ جديدة على المجر، ولم يغادر اسطنبول لمدة عامين، ووضع على عاتقه تطوير أمور وشئون الدولة العثمانية خلال هذه الفترة، وقام بتعيين لطفي باشا، أحد رجالات الدوشرمة، في منصب الصدر الأعظم، وهو العالم والمخلص والإداري والجندي والشاعر، وأعظم المسئولين بالقصر، ليباشر متابعة الموضوعات الثقافية والإدارية بالدولة، حيث قام بجمع وتنظيم مؤسسات سلطات إيالات عديدة في صورة دستور، تحول إلى قوانين، واتخذت التدابير الكفيلة بتنفيذ هذه القوانين، كما تم إصدار قانون ودستور جديد باسم السلطان سليمان القانوني، أخذ منه السلطان هذه النسبة التي عرف بها فيما بعد، ويحوي فصولا جديدة، طبقا للنتائج التي تُحصل عليها من هذه التدابير، وكذلك تمت إضافة

---

(١) Turkiye Diyamet Vakfi Islam Ansiklopedisi, cilt 18. is Tamnbul, 1998. s.

القوانين القديمة التي كانت محل تنفيذ بالسابق، لكن «قانون نامة[١]» السلاطين، الذي أقره الفاتح، قام بجمع قوانين ومؤسسات كثيرة بالدولة، أما السلطان سليمان القانوني فإنه قام بالتركيز على قضيتين وأمرين في غاية الأهمية، هـما: موضوعي المالية والعدل، وهذه القوانين الجديدة شملت عقوبات رادعة في جميع التصرفات المنافية للأخلاق العامة، مثل: السّكْر، والزنا، القتل، والسرقة، أما العقوبات المالية فقد حددت لها عدد من العقوبات تصل إلى قطع اليد، والإعدام، وهذا الدستور الجديد قام بجلب تدابير جديدة لأصحاب التجارة ومنها: تعريف المهام العسكرية والإدارية ووضع الضرائب على الحيوانات والأراضي الزراعية والحدائق، وتنظيم وتأسيس سائر الشئون المالية بالدولة.

وقد كان الأبناء الذكور من آل عثمان، الذين ولدوا لأمهات من الخاصكيات والإقبالات والجواري، هم الأمراء أبناء السلاطين، ويطلق على الواحد منهم اسم: شهزاده، وكان يعرف الأمير في الغالب حتى عهد مراد الثاني، بـ «جلبي»، ثم جروا على إطلاق اسم «شهزاده» بعد ذلك، وكان الأمير منذ مولده موضع عناية خاصة في تربيته وتعليمه، وكان يقوم على خدمته وهو في المهد عدد من الجواري، فإذا بلغ الرابعة والخامسة من عمره قام على تربيته عدد من الموظفين «خاص أودة» أي: الغرفة الخاصة، ويعرف الواحد منهم باسم: «لالا» أي: مربي، وعندما يبلغ سن التعليم يتولى تعليمه الدروس المختلفة نخبة من أشهر المعلمين في زمانه، بينما كان يطلق على أسماء بنات السلاطين بوجه عام أسماء إسلامية مثل: عائشة، وفاطمة، وخديجة، وأمينة، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، أما زوجات السلاطين فكن يحملن في الغالب أسماء فارسية مركبة ظللن عليها منذ دخلن في الحريم السلطاني.

١). قوانين ومحاولات تشريعية تتضمن تنظيما لشئون الإدارة، وأحكاما متعلقة بالعقوبات، وترتيبات خاصة بالتشريفات والبروتكولات، عرفت باسم «قانون نامة»، ظهرت حوالي سنة ٨٥٩ هـ في عهد محمد الفاتح، عُهد إلى لجنة من العلماء الإشراف على وضعها، ونصّ صراحة على جعل الدولة حكومة إسلامية قائمة على تفوق العنصر الإسلامي، أيا كان أصله وجنسه. انظر الصلابي: الدولة العثمانية، عومل النهوض وأسباب السقوط: جـ١ صـ ١٨٦.

وانعكست بعض الأحداث الهامة في حياة الأميرات بنات السلاطين على المصادر التاريخية والخاصة، فرأيناها تصف المواكب التي تقام احتفالا بميلادهنّ، والتي عرفت باسم: «بشيك آلايي» أي: موكب مهد. وقد قام السيد جاقتاي بدراسة حياتهنّ باستفاضة معتمدا في ذلك على الوثائق المحفوظة في أرشيف سراي «طوب قابي»[١].

إن طبقات الدوشرمة التي خلصت نفسها بفعل تحديات أصحاب الجذور التركية قد انقسمت إلى مجموعات وكيانات سياسية، كل واحد منها يشكل زعيما يريد كسب الثروة وتحقيق القوة بدلا من أصحاب السلطة الأصليين، لكن الصراع على السلطة الذي ألقى بظلاله على تلك الساحة قد بدأ بخفصة سلطان، أم السلطان سليمان القانوني، حيث أنها وغيرها من نساء الحرم، قد بدأن يدخلن في تعاون مع الآخرين ليسيطرن على الحكومة، من خلال اختيار أحد أبنائهن لحكم العرش العثماني. ولا شكّ أن نشاطات وأعمال خورم سلطان الحزبية والسياسية هذه، قد عملت على تقوية شكوك السلطان سليمان القانوني بشأن بيري محمد باشا، آخر صدر أعظم تركي، وبسبب انتصاراته العسكرية فإنه بدأ يظهر على الساحة السياسية في ظلّ تأثير خورم سلطان. وكما اتضح آنفا فإنه عقب انتصار إبراهيم باشا تم تعيين أرناؤوط أحـمد باشا على مصر، وهناك تمرد على السلطان، لكن أوضاع هؤلاء الفرقاء وطبقات الدوشرمة، قد أعلنت بداية دخول النظام العثماني تحت سيادة نساء الحرم، وبداية ظهور الأحزاب السياسية، وبعد ذلك بدأ السلاطين يعتمدون كثيرا بالتدريج على الصدور العظام، الذين بدؤوا باستخدام قواهم من أجل مصالحهم، بدلا من مصلحة الدولة ومصلحة الحاكم[٢].

ولقد تم منح إبراهيم باشا منافع ومصادر دخل، ومواقع ومراكز جديدة، وأصبح الرجل الثاني الأقوى بالدولة، وكان صورة جلية من مدى تأثر السلاطين

---

١). الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة، إشراف وتقديم أكمل الدين إحسان أوغلو، ترجمة صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باسطنبول، اسطنبول ١٩٩٩،

٢). Stanford Shaw Osmanli Imparatorlugu Ve Modern Turkiye S. 137

بتدخلات نساء الحرم. وهكذا تطورت سلطنة النساء بصورة أكبر بعد ذلك، وبعد وفاة السلطان سليمان القانوني فإن السلاطين لم يذهبوا للحروب أو لقيادة الجيوش، وأصبح النساء هنّ الحكام الفعليون، كما كان الشأن عند بعض الخلفاء الأمويين والعباسيين، وبدأ الحكام الأصليون يقبعون في الحرم الهمايوني من أجل المتعة والترف، ولقد كانت حياة الحرم هذه نقطة تحول هامة في توجيه شئون الحكم. وظل السلاطين تحت تأثير هؤلاء النسوة بصورة أكبر، ومن ثمّ فإن سليم الثاني الذي تولى مكان أبيه القانوني، وابنه مراد الثالث كانوا سلاطين مولعين بالنساء والترف، ولذلك فإن ضعف حكمهم يأتي من استفادة بناتهم وأخواتهم ونسائهم من هذا الأمر، وحكمهن لشئون الدولة، وجعل هؤلاء السلاطين مهام حكم الدولة بأيدي نسائهم، وتدخلن في سائر شئون الدولة؛ حتى أن الصدر الأعظم القوي الصقوللي محمد لم يتمكن من منعهن من التدخل في الدولة في معظم الأوقات، وهن: مهرماه سلطان، نوربانو سلطان، السيدة الأولى للسلطان سليم، صفية سلطان السيدة الأولى لمراد الثالث، وبنات سليم الثاني: أسمهان سلطان، وجوهر الملك سلطان، وفاطمة سلطان، وعائشة سلطان، وصفية سلطان، ولكل منهنّ جواري وآغاوات تابعين لهن[1].

وكان لتدخل النساء في الحكم الأثر الكبير في تدهور هيبة السلطان عند جنوده، فاحتل التهاون في تطبيق قوانين التشكيلات العسكرية في الدولة مقدمة الأسباب التي أدت إلى ضعف هذه التشكيلات، وقد بدأ هذا التدهور في عهد مراد الثالث، كما أدى إلى ضعف الاقتصاد فتحوَّل الكثير من أراضي الدولة إلى نظام الالتزام، ثم تحول بعد عام ٩٩٨ هـ/ ١٥٩٠ م، إلى أملاك خاصة تحت اسم: «مالكانة»، ففي عهد مراد الثالث كانت السلطة الحقيقية قد خرجت من من قبضة الوزراء والقادة، وأصبح زمامها في أيدى الحرم، أمّ السلطان وأخواته، والسلطانة صفية، يضاف إليهنّ اثنتان من الجواري المسيحيات كانتا تنازعان السلطانة على قلب زوجها،

١). المصدر السابق، صـ ٤٨.

هؤلاء كن الحاكمات الحقيقيات يليهنّ تباعا رئيس الخصيان وكبيرة خادمات السراي، وأستاذ السلطان، والمفتي[١].

وفي صورة أخرى نجد صفية سلطان في عهد ابنها محمد الثالث تستحوذ على السلطة تماما وبصورة قوية، وتمسكت بإبراهيم باشا زوج ابنتها عائشة سلطان، وجعلته في منصب الصدر الأعظم، بضع مرات، واستخدمته في أعمال سيئة للغاية، وقامت بكل شيء من أجل عدم محاربة الدولة العثمانية للبندقية، وساعدت الإنجليز في النواحي الاقتصادية والتجارية والسياسية، وكان رجال الدولة والوزراء والشرفاء يوضحون ويحكون لمحمد الثالث باستمرار عن تدخلاتها في شتى الأمور وانحرافاتها[٢].

وبعد وفاة محمد الثالث تولى الحكم مكانه: أحـمد الأول، وعمل وسعه لحماية مصلحة الدولة العليا، ولم يعش طويلا؛ إذ توفي وهو في مقتبل العمر، لكنه تمكن في سنّ طفولته من تحجيم النفوذ السيء لجدته صفية سلطان، التي كانت شبه المسيطرة في عهد أبيه، فقد أخرجها من قصر طوب قابي فور جلوسه على العرش، ونفاها إلى السراي القديم، لم تعش السلطانة صفية بدون السياسة ومكائدها فما لبثت أن توفيت بعد أشهر، كمدا وحزنا على فراقها، وهكذا كافح السلطان الشاب دون تدخل النساء وبسط سيطرتهنّ على القصر، غير أنه لم يكن يتوقع أو يستطيع أن يتنبأ بأن إحدى زوجاته كوسم ماه بيكر ستكون أكثر النساء تدخلا في السياسة، وأشهرهنّ على الإطلاق، وتظهر على المسرح العثماني بأدوار سيئة ومنحوسة للغاية[٣].

ثم تعمق هذا التدخل وتجلى في فترة السلطان إبراهيم الأول وابنه محمد الرابع، وعليه فإن استعراضنا لجانب من حياة هذا السلطان، سيعرفنا على الدرجة

---

١) محمد جميل بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، أسباب انحطاط الامبراطورية العثمانية، ١٣٧٣. صـ ٦٠.
٢). المصدر السابق، صـ ٤٩.
٣). يلماز أوزتونا، الدولة العثمانية صـ ٤٥٥.

التي أوصل بها هذا التدخل إلى تقويض سلطات الدولة العثمانية وانهيار مؤسساتها من الداخل، بسبب الدسائس التي كانت نساء الحرم محركها الرئيس، مستخدمين سلطات وزراء أجانب وأتراك معينين من طرفهن، وبعد وفاة السلطان أحـمد الأول، تولى الحكم سلاطين ضعاف منهم مصطفى الأول، وعثمان الثاني، ومراد الرابع، وإبراهيم الأول، ومحمد الرابع، وسليمان الثاني، ..، وهؤلاء السلاطين المغمورين الذين تولوا العرش وهم صغار كانوا تحت نفوذ النساء، وتسبب هذا في إمساك قبضة النساء على الحكم[١].

عند وفاة السلطان مراد الرابع كان له أخ واحد من الأسرة الحاكمة العثمانية على قيد الحياة، وكان هذا الأخ هو الأمير إبراهيم، وكان أبوهـما السلطان أحـمد الأول، وأمهما ماهبيكر كوسم سلطان، وعند اعتلائه العرش العثماني كان السلطان إبراهيم في الخامسة والعشرين، وقد ولد في «١٣ شوال ١٠٢٤/ ٥ نوفمبر ١٦١٥ م» باسطنبول ولقد قضى عمره حتى اعتلائه عرش السلطان في قفص القصر[٢]، أي: أنه كان منزويا في غرفته، على مدى حكم كل من أخيه الأكبر عثمان الثاني، ومراد الرابع، الذي كان يخشاهم كثيرا، ورأى بعينيه إعدام إخوته، وكان يتوقع أن يفتح الباب عنه في أي وقت ويطلب ليقتل، ولهذا السبب فإن أعصابه لم تكن متزنة تماما، وكان سريع التوتر والغضب، وكان يتحدث بسرعة، ويريد تنفيذ رغباته بصورة أسرع، ولأول مرة يعتلي سلطان عثماني العرش بدون تحصيل علمي أو تدريب عسكري، فلقد كان الشهزاده إبراهيم، ولي عهد لمدة عامين منذ إعدام أخيه الأكبر قاسم، ولقد أراد السلطان مراد قتل إبراهيم ذات مرة،

---

١). علي الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط: جـ ٢ / صـ ٢١١.

٢). نظام القفص: هو نظام استحدث للسيطرة على ثورات الأمراء من الإخوة والأبناء، والتي نشبت بسببها فتن وحروب للمنافسة على الحكم، أثرت على الدولة، وقد استخدمت لهذا الغرض عادة مشينة هي قتل الإخوة التي درج عليها السلاطين العثمانيين منذ عهد محمد الفاتح، وحدثت بسببها مآس كثيرة وصلت حدّ النسج الخيالي، وبعـد إلغاء القانون الذي كان يقضي بتعيينهم ولاة، وعوضا عن ذلك كله فقد تمّ فرض إقامتهم في غرف مخصصة لهم في جناح الحريم داخل البلاط، وقد حُظر عليهم الخروج من هذه الغرف والاختلاط بالمجتمع، ولذا عرفت باسم: «الأقفاص». خليل إيناجيك، تاريخ الدولة العثمانية، صــ ٩٧.

لكن كوسم سلطان أمه منعته من ذلك، وقالت له بأن النسل العثماني سينقرض به، وتمكنت من إقناعه، ومُنع ذلك الإعدام بصعوبة، وانتظر السلطان مراد أن يصل أحد إخوته إلى السن المحدد كي يقوم بقتل إبراهيم؛ لذا كان مريضا بمرض الخوف من الجلاد، ورجل الإعدام بصفة خاصة، وظل يعتقد أنه قد حان عليه الدور، فعند وفاة السلطان مراد الرابع استدعي لتولي السلطنة، لكنه رفض خائفا؛ لأنه لم يكن يصدق، وظن أن ذلك الأمر مجرد تلاعب به، وقال لأمه وسائر الباشاوات: ليطل الله في عمر السلطان، فلا يوجد سلطان لدينا غيره، ولندعوا الآن له بالعمر المديد، وأكد أنه يفضل الوحدة التي هو بها على ملك الدنيا، وعجزوا عن إقناعه حتى رؤيته جنازة السلطان مراد الرابع، فعرف بأن الطريق إلى العرش أصبح مفتوحا أمامه، واعتلى عرش أجداده يوم: «١٧ شوال ١٠٤٩ هـ/ ٩ فبراير ١٦٤٠ م»، وعندما جلس السلطان إبراهيم على العرش، قالت أمه ورجال الدولة من حوله على لسان واحد: بسم الله، اسم الله، سيدي السلطان، وتم إلباسه عمامة سيدنا عمر رضي الله عنه، وبعد ذلك رفعوا أيديهم إلى السماء، وقام السلطان بالدعاء، قائلا: الحمد والشكر لك يا إلهي، لك الشكر، فاجعل ضعيفا مثلي مناسبا لهذا المقام الرفيع، يا رب ارض عنا، وحسّن أحوال أمة محمد ﷺ[١].

وقام العلماء في اليوم التالي والوزراء والباشوات بتهنئة السلطان واحدا بعد واحد، وجاء ممثلو الدولة بعد ذلك من خارج الدولة بالتهاني، وحضرت والدته وجلس على سرير السلطنة، ثم أمر بدفن جثة أخيه باحتفال وافر، وساق أمامها ثلاثة أفراس من جياد الخيل التي كان يركبها في حرب بغداد، ثم مضى إلى جامع أبي أيوب الأنصاري، وهناك قلدوه بالسيف، ونادوا له بالخلافة، وانتهت المراسيم بهذه الصورة[٢].

---

١). Osmanli Padişahlari Ansiklopedisi.2. S. 390 .

٢). علي محمد محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ج١ / صـ ٤٠٠.

ولقد كتب بعض المؤرخين أن السلطان إبراهيم كان مجنونا، لكن هذا الأمر لم يكن صحيحا، على ما قرّره بعض المؤرخين ودافعوا عنه، وسرت هذه الشائعة في القصر بعد ذلك، وكان لها دور في إقصائه عن عرش السلطنة، وفي حقيقة الأمر لم توجد تصرفات تصل إلى الجنون في حياة السلطان إبراهيم، ربما كان عصبيا بعض الشيء لكنه كان عاقلا، فلقد عاقب المجرمين واللصوص والمرتشين، وكان يدخل بين أبناء شعبه ويستمع إلى آلامهم، غير أن القصر في عهده لم يسترح، وظهرت تمردات ومناوشات عسكرية، وأناس غير راضين، عن تصرفاته، ومن المعروف أن أعصاب أي شخص قضى ٢٥ سنة في الغرفة محبوسا قد تتعرض للتلف، ناهيك عما سينقصه من خبرات وتجارب حياتية في معاملته للناس ومخالطتهم والتعرف على مختلف أهوائهم وآرائهم؛ ما يعطيه رصيدا معرفيا وأخلاقيا يمكنه من العيش في هذه الحياة وفهم مختلف أساليب التعامل. حاولت طورخان سلطان أن تعين ابنها وليا للعهد، كما هو حلم أي امرأة من نساء الحريم، وتناقشت مع السلطان إبراهيم، وكانت تخاف منه كثيرا، وعندما لم تتمكن من جعل ابنها في منصب السلطان بدأت تخشى والدة السلطان الكبيرة، وأخذت تبحث عن سبل إبعاد زوجها عن العرش على حساب ابنها، وتعاونت مع بعض الوزراء والباشوات، وتحدثت عن بعض تصرفات السلطان على لسانها، بالإضافة إلى ذلك فإنها قامت بتكبير هذه التصرفات، ونشرت أشياء جديدة من خيالها حول أخلاقيات وتصرفات السلطان إبراهيم الجنونية، وجعلت القصر أولا ثم اسطنبول بأكملها تشعر بأن السلطان إبراهيم مجنون[١].

وفي الحقيقة فإن بعض الجوانب النفسية والشخصية سالفة الذكر، ونقاط الضعف في السلطان إبراهيم، جعلت جميع الناس تشعر بهذه الشائعات على أنها حقيقية، وكانوا يتداولون هذه القصص بينهم، لكن هذا الأمر في الأساس نابع من طهارة القلب، طهارة قلب السلطان إبراهيم، وإذا كان مجنونا فهل كان سينجح في

---

١). Osmanli Padişahlari Ansiklopedisi.2. S. 391 .

الاندماج مع الشعب، وهل يراهم ويسمع لهم؟ وهل كان سيقوم بمعاقبة المفسدين؟ وأهم شيء في ذلك هل كان سيفكر في فتح كريت؟ لقد فسد وتفكك بنيان السلطة، ولم يجد السلطان رجالا أسوياء بين جنبات هذا البنيان، ومن ثمّ فإن أصحاب النيات السيئة وذوي النفوس الضعيفة، الذين تسببوا في قتل مراد الرابع، قد تمردوا على السلطان إبرهيم، فقد كانوا يحصلون على الرشاوى، وتعوَّدوا عليها، وعندما علم السلطان إبراهيم بذلك الأمر عاقب الراشي والمرتشي، ولهذا السبب فقد كثر أعداء السلطان إبراهيم. ثم لم يتمكن السلطان إبراهيم من العثور على الصدر الأعظم الذي يريده، وأخذ يغير الصدر الأعظم بصفة مستمرة لهذا السبب، وعندما لا يجد الشخص المناسب أو يعثر على قصور في مؤهلاته يقوم بعزله. وتم تعيين الوزير سمير محمد باشا في منصب الصدر الأعظم: «٣/ ١١/ ١٠٥١هـ ٣/ ٢/ ١٦٤٢م»، وتمّ إرساله لاسترداد الأرزاق التي مضت إلى يد الروس، أما كمانكاش قرة مصطفى باشا فإنه بينما ظل في منصب الصدر الأعظم لأطول فترة في عهد اثنان من السلاطين، ومنذ وفاة الصوقللي، وهي فترة خمس سنوات، وشهر وثلاثة أيام، فإنه تم إعدامه في سنّ الخمسين، في «٢٢/ ١١/ ١٠٥٣ هـ - ٣١/ ١/ ١٦٤٤ م»، وبعد ذلك فإن السلطان الذي لم يكن سلطانا ذا تجارب قام بتعيين رجال لا تجارب لهم على الإطلاق في مناصب كبيرة بالدولة، وأصبح محمد باشا في منصب الصدر الأعظم، وكان واحدا ممن يستخفون بالسلطان إبراهيم، ولكن وفاة شيخ الإسلام يحيى أفندي[1] بعد ٢٧ يوما من سقوط قرة مصطفى باشا جعل الدولة محرومة من عناصر توازن كبيرة، وبدأ ظهور أشخاص غير مناسبين على الإطلاق لمهام خطرة بالدولة، وبعد عام وعشرة أشهر و١٧ يوما توفي سمير محمد باشا، وأصبح وزير المالية صالح باشا في منصب الصدر الأعظم، وبعد سنة و

---

١). كان رجل دولة محنك ذكيا صاحب فكر، وأمضى يحيى أفندي في منصبه ١٨ عاما و٢ شهر و ٢٤ يوما، وتوفي عن عمر بلغ ٩١ عاما، شارك في جنازته الآلاف في جامع الفاتح. تاريخ الدولة العلية العثمانية: يلماز أوزتونا جـ١/ صـ ٣٥٥.

٩ أشهر تم إعدامه، وأصبح الوزير موسى باشا في منصب الصدر الأعظم لمدة ٥ أيام. وفي عهده امتلأ القصر بالمؤامرات، وكان بعض الباشوات لا يقومون بعملهم دون الحصول على رشوة، وأغضب هذا الأمر السلطان كثيرا، واتخذ تدابير شديدة إزاء ذلك، وللأسف لم يتمكن من مواصلة هذه التدابير لكون الوزراء من ناحية وأمه ماهبكير كوسم سلطان من ناحية أخرى قد أجبروه على ذلك، وسلطوا عليه رجلا يدعى جداجي خوجة ليراقبه، ولقد أثر على السلطان إبراهيم كثيرا، فكان يسمع إلى جميع الكلام بسبب شخصيته النقية(١).

وفي أثناء ذلك كان مصطفى قرة باشا يقوم بتسيير شئون الدولة الخطيرة بصورة جيدة. وكان أول نجاح له قيامه بتوقيع معاهدة قصر شيرين، وبعد فترة قصيرة من مجيئه إلى اسطنبول تخلص من يد سلحدار(٢) مصطفى باشا، أكبر أعدائه بسبب مقتل السلطان مراد الرابع. واغتنم الصدر الأعظم هذه الفرصة وصادر جميعه أموال خصمه، ووضع يده عليها، وقام بإبعاده عن اسطنبول وعينه على ولاية طخشوار، وعلى الرغم من ذلك فإن سلحدار مصطفى باشا نجح في المجيء إلى اسطنبول عبر كوسم سلطان، بل إنها زوجته من «بقايا سلطان»، وهي إحدى بنات السلطان مراد، وأقلقت هذه المصاهرة الصدر الأعظم وحاول عرقلتها بقتله، وأصبحت الخصومة والعداوة بينه وكوسم سلطان شديدة بسبب ذلك. تمكن كمانكاش مصطفى باشا بخبرته وحنكته من تحقيق النجاح في سائر الشئون المالية، التي تدخل فيها، ومن جملة هذه الإجراءات نجد أنه قام بتنظيم معيار السكر والعملة، واقتطع من الآقجة جزء من ميزانيتها فأصبح القرش الواحد ٨٠ آقجة بدلا من ١٢٥ آقجة، وكذلك تم تخفيض الذهب من ٢٥٠ آقجة إلى ٦٠ آقجة، وبالإضافة إلى ذلك فإنه قام بتخفيض عدد الانكشارية، وجعل لهم رواتب بشكل منتظم، وكل هذه الجهود الايجابية

---

١). لقب يطلق على أمين سيوف السلطان. خليل إناجيك، ملاحق، م سابق، صـ ٣٤٢.

٢). Osmanli Padişahlari Ansiklopedisi, 2. S. 390 .

جعلت ميزانية الدولة في انتعاش، كما اهتم بشئون الأسطول وقام بتنظيمه، وأصبح يتم تجهيز السفن وإعدادها بمقدار محدد ومعين كل سنة بموجب القانون(١).

وبخلاف كل هذا فإنه قام بتحرير الدولة المهملة منذ فترة طويلة، وفي تلك الأثناء ظهرت مشكلة حسين باشا، على الساحة، ودار صراع وجدل واسع بينه وبين الصدر الأعظم، بسبب نشأته الانكشارية، لكن الصدر الأعظم قام بإبعاد هذا الشخص وأنصاره عن السلطان، وبناء عليه فقد تم إرسال مجموعة على رأسها الصدر الأعظم إلى حسين باشا من أجل موضوع عدم إخراج أمير أمراء جوروم والخاتم السلطاني. وقال حسين باشا أمير أمراء جوروم: إن هذا الطغراء(٢) لي فأنا الوزير، ولقد ورثته، ولقد أعطاني إياه السلطان الغازي مراد رحمه الله تعالى. ولكن ما سبب احتقارك لي أيها الصدر الأعظم، ولماذا جئت لتراني، ولم يأت السلطان بنفسه لأخذ أمانته فالأمر أمره، وبناء عليه فإن كمانكش قرة مصطفى باشا قام بتوليته على حلبي؛ لاحتمال تمرده وانسحابه إلى جوروم، وبعد ذلك أقاله لكن حسين باشا لم يعترف بهذا العزل، وعينه الصدر الأعظم على إياله سيواس هذه المرة، وبناء عليه فقد تحرك حسين باشا إلى سيواس، ومن ناحية أخرى فإن إبراهيم باشا والي سيواس «كور خزينة دار» الذي علم بتعيين حسين باشا على المدينة قد عارض هذا الأمر، وتحرك ضد الصدر الأعظم وفقد حياته، ولقي مصرعه أثناء صراعه مع حسين باشا، وأقلع حسين باشا هذه المرة عن الذهاب إلى سيواس، وقال: لدي حساب مع الصدر الأعظم، لا بدّ من تسويته أولا، وتحرك نحو اسطنبول بجميع القوات وانضم إليه في الطريق عدد كبير، وتزايدت قواته بالتدريج.

---

١) Türkiye Tarihi III, Osmanli Doenemi OENEMI S. 85.

٢). الطغراء: التوقيع الرسمي للسلطان الذي تختم به الخطابات السلطانية، وكان لكل سلطان عثماني طغراء خاص به، توضع الطغراء على الرسائل الهمايونية كما هو الحال في كافة الوثائق والأوراق الصادرة من السلطان، ولما كان المخاطب بها الحكام والولاة كانت هذه الرسائل تعدّ بعناية فائقة وتوضع عليها الطغراء بشكل يليق بها. انظر الصفصافي أحمد القطوري، الوثائق العثمانية، دراسة حول الشكل والمضمون، طـ ١، ١٤٢٥، القاهرة دار الكتب المصرية صـ ١٤٦. وفي الملاحق نماذج من هذه الطغراء.

وفي تلك الأثناء فإن أعداء الصدر الأعظم كانوا يناشدون بضرورة دعوته إلى اسطنبول، وتمكن حسين باشا من هزيمة القوات التي أرسلها الصدر الأعظم لإيقافه في مناطق إزميت، وانتظر حسين باشا أن يتم تعيينه في منصب الصدر الأعظم بدلاً من كمانكاش قره مصطفى باشا، لكن لم يحالفه الحظ في التصدي للقوات الجديدة المرسلة ضده، واضطرت قواته للاستسلام، وذهب حسين باشا إلى خان القرم ورحَّله إلى سوجق بهدف تحقيق الإعفاء عنه، لكن رئيس البوستانجي بأدرنه أمسك به، وقام بنقله إلى اسطنبول، وتم قتله خارج قصر طوب قابي عام: «١٠٥٣ هـ/ ١٦٤٣ م» ومن ناحية أخرى فإن الصدر الأعظم كمانكاش قرة مصطفى الذي نجح في القضاء على حسين باشا بهذه الصورة، وإذا كان قد قام بتقوية موقفه فإنه في الوقت نفسه فقد كسب حب الشعب واحترامه له. ثم رأى أن محمد باشا المعروف باسم القابجي باشر جواب منافس له «سلطان زادة» أيضا، ولهذا السبب فإنه قام بإبعاده عن اسطنبول من خلال تعيينه واليا على الشام، وأصبح المنافسون له أيضا كل من يوسف باشا وجنجي قوجة السلحدار الخاص بالسلطان إبراهيم هذه المرة، ويضاف إلى كلا الخصمين أيضا عداوة وحقد كوسم سلطان للصدر الأعظم مما جعل موقفه شديد الخطورة والصعوبة[١].

في تلك الأثناء فإن السلطان إبراهيم قام بتعيين يوسف باشا نديمه وحارسه الخاص على الديوان بعد حصوله على درجة وزير، وإذا كان الصدر الأعظم قد عارض هذا الأمر بحجة أنه سيقوم بإعاقة إجراءاته فإنه لم يتسن له النجاح، وقام السلطان أيضا في هذه الفترة بتعيينه في مهمة المدرس، بالإضافة إلى أنه ملازم للسلطان، ثم قام بتعيين يحيى أفندي في منصب شيخ الإسلام[٢].

وحسب الأعراف فإن شيخ الإسلام إذا غاير أو عارض هذه القوانين فإنه يتم تعيينه بسرعة مدرس صحبة، وبخلاف هذه التعيينات التي جرت بشكل وبصورة

Türkiye Tarihi III, Osmanli Doenemi OENEMI S. 86.(١

٢). علي سويلم، بشار بوجل، تاريخ تركيا، العصر العثماني، أنقرة: ١٩٩١، جـ٣/ صـ ١٠٨.

جنونية من قبل السلطان إبراهيم، فإنه قام بتعيين معلم السلطان، قليل الخبرة، والذي لم تكن له أي قدرات أو كفاءات في منصب رفيع. ولقد تحققت هذه التعيينات بأسرها نتيجة تأثير كل من يوسف باشا وحسين أفندي، وهـما خصمي الصدر الأعظم على السلطان بشدة، وهكذا وبهذه الصورة فإنهما عملا على إخراج الصدر الأعظم من شئون الحكم والسلطة، وإذا كان الصدر الأعظم كمانكاش قرة مصطفى باشا قد قام بمحاولات لفصل هذين الشخصين عن السلطة، فإن السلطان إبراهيم قام بمنعه، وإزاء هذا الوضع فإن الصدر الأعظم قد تحالف مع حسين آغا، نائب الحرس القريب بهدف القضاء على يوسف آغا، وحسين أفندي الذين يقومون بحـماية السلطان، وفكّر بأن إثارة الانكشارية سوف تجعله ينجح في ذلك الأمر، لكن إذا كان حسين آغا الذي تحرك على الفور قد تناقش مع ضباط الانكشارية في هذا الأمر، فإنه لم يتمكن من إقناعهم ولم يجعلهم يرضون بذلك الأمر[١].

وبناء عليه فإن ضباط الانكشارية قد ذهبوا إلى قوجة مصلح الدين آغا مستشار الغرفة ورجلها الحكيم، وأوضحوا له حقيقة الوضع، فقال لهم الآغا: لا تقوموا بهذا العمل، واهدؤوا، ولا تشعلوا فتيل الفتنة، فقد جرّت وبالا كبيرا على السلطان مراد، واعملوا على منع هؤلاء من القيام بهذا العمل الشرير، وذهب الصدر الأعظم بعد ذلك، وعندما اتضح وانكشف الأمر انكسر ذلك، وقبل أن يمضي وقتا طويلا فإن الآغا قوجة مصلح قد عرض على السلطان هذا المخطط بهدف تحقيق مصالحه، وعندما سأله السلطان بقوله: هل هذا صحيح؟ هل يريد عبدي التمرد؟ فقال: الآغا: حاشاني أيها السلطان فالجميع يطيع حاكمنا، ولكن قم بدراسة الأمر، فلا توجد أخبار عن ذلك إطلاقا. وأرسل بضعة أشخاص لاستكشاف الحقيقة، وقالوا: إنهم لم يقوموا بأمر كهذا، لكن السلطان هذه المرة سأل قائلا: إذا كنت أنا سأقتل من رباني رئيسا ، فهل في هذا ذنب أو إثم علي، فقال:

(١) Türkiye Tarihi III, Osmanli Doenemi OENEMI S. 87.

حاشا ذلك سيدي السلطان فالجميع يقدمونك ويدعون لك بالخير. أما كمانكاش قرة مصطفى الذي علم بهذه الخطة التي جابت جميع الأرجاء فقد جاء إلى القصر على الفور، وتحدث مع السلطان وقبَّل المصحف الذي كان معه، وأكَّد له عدم صحة الشائعات الرائجة حوله، لكن السلطان الذي لم يصدق كلامه، قال له: أعطني الخاتم، ثم قال بعد ذلك: خذ هذا إلى رئيس البوستانجي، وذهب إلى الحرم، وظن رئيس البوستانجي أن السلطان أمره أن يأخذ الخاتم منه، فأخذه منه، في أثناء ذلك قام كمانكاش مصطفى بامتطاء جواده بسرعة، وعاد إلى نزله واختفى بين الجنود في منطقة فاللي مسجد، وعند حلول الظلام أراد الهروب، لكن رئيس البوستانجي الذي كان يراقبه ألقى عليه القبض، ولم يقبل دادار نقله إلى السلطان[١].

ثم أصدر السلطان أوامره بقتله، فأحضر أمام قصر طرناقجي في سوق خوجة باشا، وقام الجلاد بقتله خنقا في «شوال ١٠٥٣ هـ / يناير ١٦٤٤ م»، ودفن بمقبرة برقاق قابي. وتم تعيين محمد باشا «سلطان زاده» في منصب الصدر الأعظم مكانه، وذا استثنينا بعض التصرفات العابرة فإنه يمكننا القول: إن مصطفى قرة باشا كان رجل دولة عظيما، اهتم كثيرا بشئون بلده في عصره، وقام بتنظيم شئون الدولة، وحـماية منصبه في الوقت نفسه[٢].

كان السلطان إبراهيم، كماسبق وأن أشرنا، ذا فكر ضيق، متعصبا ومستبدا في إجراءاته، يتصرف بلا دراية في أمور الدولة والقرارات المصيرية، وكان يريد تنفيذ كافة أوامره وقراراته التي تتبادر إلى ذهنه على الفور، دون التفكير في كون الأوامر تتماشى مع تقاليد وعادات وقوانين الدولة، أم لا، أما كمانكاش فإنه كان مهتما بسائر الأمور جادا، ويتناول كل شيء باهتمام كبير، ولهذا فإنه من الطبيعي أن لا يقوم بتنفيذ كافة أوامر السلطان، وأصبح السلطان إبراهيم ناقص التأثير في شئون الدولة، غائبا مغيبا، لكنه بعد تعيين الصدر الأعظم الجديد تغيرت الأحوال، لأنه لم

---

١) Türkiye Tarihi III, Osmanli Doenemi OENEMI S. 87.

٢). نفس المصدر السابق، صـ ٨٨.

يكن على مستوى جدية واهتمام وقوة مصطفى قرة باشا، فأصبح يقوم بتنفيذ كافة أوامر السلطان، ويقدم له الأموال والهدايا أسبوعيا، وكان يعتمد على الرشوة لتحصيل هذه النفقات الإضافية، واستطاع بذلك المحافظة على منصبه. ثم قام حسين أفندي بجهود أخرى ضدّ كل من يوسف باشا الذي تخلص من كيده بفضل والدة السلطان، وكذلك ضد محمد باشا الصدر الأعظم هذه المرة. ثم تم إقصاء الصدر الأعظم عن منصبه نتيجة جهود وتأثير حسين أفندي، وقبل أن يمضي وقت طويل فإن السلطان إبراهيم أراد تعيين يوسف باشا في منصب الصدر الأعظم، لكن يوسف باشا لم يقبل، وتم تعيين صالح باشا رئيس الدفتر دار، في هذا المنصب سنة «١٠٥٥ هـ/ ١٦٤٥ م» وأصبح في نفس السلطان إبراهيم شيء ضدّ يوسف باشا، الذي قام بفتح هاينا، ولم يقدم للسلطان الهدايا القيمة، وبالإضافة إلى ذلك فإن بعض أركان الدولة قاموا بتأليب السلطان عليه، للسبب نفسه. ثم استدعى السلطان إبراهيم يوسف باشا إلى القصر في «ذي الحجة ١٠٥٥ هـ/ فبراير ١٦٤٦ م» وقال له: اذهب فورا إلى كريت، مع الأمراء الموجودين في أجل، ورد عليه يوسف: سيدي السلطان ليس هذا موسم بحر، والأسطول غير مستعد لذلك أيضا، ولذا فإنني لن أذهب الآن. فاستشاط السلطان غضبا وقال له: هل تظن أنك الحاكم لهذه الدولة؟! إني أرسلتك إلى ممالك وبلاد سليمة، لديها الكثير من الأموال، لكنك لم تقتل كفارها، وأنفقت الأموال بلا داع ولا موجب. وبعد هذه المناقشات الحادة أصر السلطان على قتل يوسف باشا، رغم توسلات الصدر الأعظم صالح باشا. وكذا قتل فاتح هانيا بسبب عدم أخذه في الحسبان لطبيعة السلطان وأخلاقه، ثم سرعان ما ندم السلطان وحزن حزنا شديدا[١].

وفي صورة أخرى من تصرفات السلطان إبراهيم، غير المحسوبة، فإن حسين أفندي معلم السلطان، قاضي عسكر الأناضول، أصبح ذا ثروة طائلة، وصار من أكثر القضاة عطاء، فقد قام السلطان بعزله، بسبب قيامه هو بعزل نساء كن في

---

١). يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العلية العثمانية: جـ١/ صـ ٣٥٦.

مناصب غير مناسبة. وكان السلطان يمر بأزمات عصبية شديدة، وكان يروِّح عن نفسه كلما ضاقت بالتجول في اسطنبول وطلب الدعاء من الصالحين والدعاة، واصطدم ذات يوم وهو يتجول في عربته بإحدى العربات القروية، فأعطى الأوامر للصدر الأعظم بمنع تجول هذه العربات في شوارع اسطنبول، بعدها، وفي بعض المرات بينما كان في جولاته، صادف عربة أخرى، فاستدعى صالح باشا الذي كان في الديوان، وقال له: ألم أمنع خروج العربات إلى المدينة، لماذا لم تقم بتنفيذ ذلك، ألست أنا السلطان؟! ثم أمر بقتل الصدر الأعظم الذي اعتذر كثيرا، ولم يقبل عذره، وأعدم شنقا «١٠٥٧ هـ/ ١٦٤٧م»[(١)].

ثم تم تعيين قوجة موسى باشا رئيس البحرية الموجود في كريت في منصب الصدر الأعظم، و الدفتر دار أحـمد باشا في منصب نائب الصدر الأعظم، ثم تمكن هذا النائب من الارتقاء الى منصب الصدارة بسبب تدخلات مكثفة من والدة السلطان، وعيّن قوجة موسى باشا في منصب الوزير الثاني، وهكذا مع هذه التطورات المختلفة وهذه التصرفات الغريبة، وانشغال السلطان بسهراته مع النساء الجميلات في القصر، وتأثيرهن عليه، وكثرة النفقات التي لا داعي لها، فقد تدهور النظام الذي تحقق في عهد مراد الرابع، وأهمل السلطان أمور الدولة وفسد نظامها، وأصبحت التعيينات المهمة مرتبطة بنسائه، والتي يطلق عليهن: خاصكي، فإن كل زوجة من زوجاته كانت تحصل على مخصصات بقيمة مائة قرش عثماني، وتم تخصيص كل إيالة لإحدى نسائه: فإيالة الشام مثلا كانت لزوجته أو جاريته السابعة، وولاية بولو كانت لزوجته أو جاريته الثالثة، وهكذا، أي: أن هذه الولايات كانت تمنح مقابل خدمة الولاة. وخصّص دخل الدولة والولايات الأخرى الرفيعة لأصدقاء السلطان إبراهيم وحاشيته، كما تم تكليف أخواته بخدمة زوجاته خاصكي سلطان، بل إن بعضهن نفي بأوامر من زوجاته إلى أدرنة. وكانت تعطى الخاصكي، أو زوجات السلطان إبراهيم، وفق رغبتهنّ، أموالا كثيرة للغاية

---

(١) Türkiye Tarihi III, Osmanli Doenemi S. 92.

من خزانة الدولة، وكن يقمن بتعيين من يشأن في أي منصب سام. ومع هذه التطورات بدأت خزانة الدولة تعلن إفلاسها نتيجة هذا العجز الكبير والنفقات الزائدة في القصر التي جاوزت حد الإسراف، كل ذلك والصدر الأعظم ورجالات الدولة ساكتون على التصرفات الخطيرة الهدامة للحفاظ على مناصبهم، بل قل حياتهم[١].

وأصبحت جميع الوظائف والتعيينات بما فيها، طبقة العلماء، تتم مقابل دفع وسداد رشاوى كبيرة، ثم يتم عزل المعيَّنين حتى قبل أن يستردوا الأموال التي دفعوها، ووصل الأمر لدرجة أخطر حتى تعذَّر سداد رواتب فرقة القابي قولو، حرس السلطان، وهكذا وبهذه الصورة فإن النظام المالي للدولة قد وصل لدرجة الانهيار والإفلاس من الداخل. كان الصدر الأعظم أحـمد باشا يساير هذا النظام، ويقدم الأموال الكثيرة للسلطان والخاصكي، وكان راضيا بهذه الحالة، يتاجر بوظائف الدولة مقابل رشاوى كبيرة محددة، يتم تعيين من يقدمها ولا سبيل إلى التعيينات والوظائف دون ذلك، وحقق ثروة طائلة بسبب ذلك. وأصبح الوزراء والولاة في الدولة في حرج واضطراب شديد بسبب هذه السياسة المقيتة التي لم يكن له بد من مسايرتها. وفي موسم الأعياد كانت هناك بعثات من الدولة إلى الولايات لجمع خراج العيد للسلطان، ووصلت إحدى البعثات إلى والي سيواس واروارة علي باشا، وطلبت منه خراجا قدره ثلاثون ألف قرش، لكن الوالي الذي لا يمكنه دفع كل هذه الأموال من مخصصات ولايته، رفض التجاوب مع البعثة، وعاد مسئول الحكومة بالخبر إلى اسطنبول. كان والي سيواس يعتقد أن الأمور هناك بيد نساء القصر، وأن النظام قد وصل إلى مرحلة خطيرة من الفساد والتردي، وأنه من الضروري العمل على القيام بإصلاحات واتخاذ تدابير سريعة هامة، ومن ثم فقد أعلن تمرده ضد الحكومة، وقال: إن السلطان لا يملك إدارة شئون الدولة، وإن جميع السلطة هي بيد نساء القصر، وأنه يتم عزل الأمراء وأمراء الأمراء من وظائفهم

---

(١). Türkiye Tarihi III, Osmanli Doenemi S. 93

عشوائيا دون تمضية فترة كافية، بيد أنه ينبغي أن لا يتم عزل أي شخص قبل مضي ثلاث سنوات، والدولة أصبحت في حالة مزرية، ينبغي إعلام السلطان بذلك وإنهاؤه بسرعة، ثم أعلن أنه سيذهب إلى اسطنبول لحل هذه المشكلة بنفسه(١).

بلغت هذه التصرفات والكلمات مسامع السلطان فعزله من منصبه، وعيَّن مكانه أشير مصطفى باشا، رغم تردده ومناصرته لكلام وراورة علي باشا، لكن السلطان أصرّ قائلا: رأسه أو رأسك أنت! فاضطر بعدها للتحرك نحوه، وقابله وراورة في سيواس وأنكر أنه تمرد، وسلم له الولاية، قائلا: فيبارك الله لكم، وتحرك نحو توقاد. ثم أمر السلطان أمير أمراء قردان وحسين باشا حاكم ولاية أفيون، بالتوجه إلى وراورة للإمساك به، لكنه هزمهم وقام بأسرهم وأمر بقتلهم أيضا، ثم تم إنقاذهـما بعد تحرك أبشير فوس باشا في هجوم صغير وأمسك بواروارة علي باشا، وصدر فرمان بقتله على الفور. وبالإضافة إلى ذلك فإن إبراهيم باشا والي بغداد الذي علم بمقتل حيدر أوغلي ومقتل الصدر الأعظم صالح آغا، الذي كان يكنّ له احتراما كبيرا، قد رفع رأسه هو أيضا للتمرد على هذه الأوضاع المزرية. وبسبب عدم وجود سلطة قوية في الحكومة المركزية بالدولة، استبد الخوف والقلق بالشعب، وظلوا مترددين بين أمان الحكومة وأمان الشعب، وبسبب الحرب الجارية في كريت قام قادة البندقية باحتلال بعض القلاع الخاصة بالعثمانيين على حدود البوسنة، نتيجة وصول الأمر إلى الحرب، وتمكنت دولة الونديك عدوَّة الدولة العثمانية المستمرة، فإنها هجمت بنفسها على حين غفلة على جزيرة «مدللو» وسدّت مضيق الدردنيل، فلم يتمكن الأسطول من الإبحار عبر البحر المتوسط، ولكن تم التمكن من إرسال بعض المساعدات العسكرية إلى كريت في ظل هذه الظروف الصعبة(٢).

وأظلَّت مشكلة الطعام باسطنبول برأسها، أما الصدر الأعظم أحـمد باشا الذي عمل على تلبية رغبات السلطان، وكان شغوفا بالكورك والسمور فإنه لم

١) Türkiye Tarihi III, Osmanli Doenemi S. 94.

٢). إبراهيم بك حليم، التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية: صـ ١٣٩.

يهتم باحتلال البنادقة، ولم يهتم أيضا بقضية كريت، وقام بإبعاد أشخاص حذَّروا السلطان في هذه الموضوعات عن اسطنبول، وبالتحديد تم إبعاد رفيقه وصهر السلطان إبراهيم فاضل باشا الذي أدلى بمعلومات حقيقية حول الأوضاع في البوسنة والروميلي، تم إبعاده عن اسطنبول من خلال تعيينه على الأزاق[1]. وفي تلك الأثناء فإنه تم تخصيص ولايات الأمراء الذين يناضلون مع حسين باشا في كريت لمن يدفع رشوة أكبر في اسطنبول، وكذلك تم تخصيص الامتيازات والزعامات لأشخاص كثيرين في اسطنبول. وعلاوة على كل ذلك فإن جميع قصور اسطنبول تقريبا بما فيها قصر طوب قابي سراي، ويني سراي، قد تزينت بالأقمشة الحريرية القيمة وجلد الكورك والسمور، وإذا لم تنل هذه التزيينات إعجاب السلطان فإنه يقوم بحبس القائم عليها، وقد أقال الدفتر دار باشا القائم عليها من منصبه، وألقي به في الحبس، وزيادة على ذلك فإن المسئولين عن أعمال الزينة هذه يطلبون من القضاة والولاة والأمراء وشيخ الإسلام وغيرهم إخراج السمور والكورك، وإذا لم يقوموا بذلك فإنه سيتم عزلهم على الفور، ويظلوا معرَّضين للخطر والتحقير والإهانة والاتهامات الثقيلة. وبسبب ولع السلطان برداء السمور خاصة فقد أجبر رجال الدولة على إرسالهم هدايا السمور كل بحسب منصبه ودرجته، من العلماء وأركان الانكشارية، وتم البدء بفرش القصر بجميع غرفه بالسمور، وكلف ذلك خزينة الدولة أمولا طائلة بسبب استيراده من روسيا. ولأنه يتم تحصيل قيمة السمور ممن لا يقدرون على توفيرها، تم أخذ أموال كثيرة من وجهاء أغوات الانكشارية مثل بكناش ومصلح الدين، وقرة مراد، وقرة جاويش، ومصطفى آغا. وقرر قرة مراد نائب الانكشارية عدم دفع هذه الأموال المطلوبة لشراء السمور، وقد كانت له ميزة خاصة داخل الانكشارية، فهو من أكبرهم قدرا وشعبية بين الناس، وعندما تمت مطالبته بحصته ردّ قائلا: اذهب أيها الموظف إلى الدفتر دار، وقل له: إنني جئت من كريت وليس لدي ما أدفعه، سوى قرش سمن وقرش بارود! هذا في الوقت الذي

---

١). الأزاق مدينة توجد حاليا في روسيا، وتعرف بـ(آزوف) وكانت تابعة للدولة العثمانية.

قام الصدر الأعظم بإنفاق ٤٠ ألف ريال لصنع قارب مزين بالذهب والمجوهرات، مخصص للسلطان. ولم يرق لكوسم والدة السلطان كل هذه التصرفات وإنفاق الأموال في الملذات والمرح، وضاقت ذرعا بكل هذه التصرفات الجنونية، وحذَّرت السلطان من العواقب الوخيمة لهذه الأفعال، فتم إرسالها إلى حديقة اسكندر جلبي بمجرد تحدثها بكلام كهذا، ضد السلطان إبراهيم(١).

هذا فضلا عن انشغاله وميوله الزائد نحو جاريته تللي خاصكي، والذي لم يرق لكوسم، السلطانة الوالدة القوية، فقد عقد نكاحه عليها، وأعطاها خزينة مصر مهرا خاصا بها!! وفرش بيتها بالفرو والسمور، وكان هذا مما زاد تذمر العلماء والأغوات ضده(٢).

فقد تذمر آغاوات الانكشارية من المبالغ الطائلة التي تدفع مقابل السمور والكورك والعنبر، وامتنع قرة مراد من سدادها، فقرر الصدر الأعظم أحمد باشا القضاء عليهم. وحدث أن كانوا مجتمعين في حفل زفاف إحدى بنات السلطان على ابن الصدر الأعظم، وفضلاً عن تذمرهم وانتقادهم لأعماله ورغبتهم في التدخل في شؤون الدولة، والخروج عن حدودهم، أبلغهم أحد من المقربين من الصدر الأعظم بنيته تجاههم، قائلا: لماذا تجلسون هنا والصدر الأعظم يخطط لاغتيالكم، فردَّ عليه قرة مراد: إننا لن نموت بسهولة، وكانوا مدججين بالسلاح، وتهيأ أغوات الانكشارية لهذا الوضع، والتفوا حول قرة مراد، واختاروه قائدا لهم، وعقدوا اجتماعا سريعا في جامع أورطة واتخذوا قرارهم، بعزل الصدر الأعظم واختيار آخر بديل يتماشى مع مصالحهم، وأخطروا شيخ الإسلام بقراراتهم وطلبوا منه دعمهم، وقَبِل الفكرة وانضم إليهم، واستدعى جميع العلماء إلى جامع الفاتح(٣).

---

١) Türkiye Tarihi III, Osmanli Doenemi OENEMI S. 94.

٢). الدولة العثمانية المجهولة: صـ ٣١٦.

٣). محمد فريد بك تاريخ الدولة العلية العثمانية: جـ١ / صـ ٢٨٨.

وبعد برهة اجتمع سائر العلماء والقضاة وآغاوات السواري والانكشارية في جامع الفاتح، واستدعوا الصدر الأعظم للاجتماع، لكنه هرب متخفيا، وعلم السلطان بالخبر فأرسل يستفسر عن ماهيته ودواعيه؟ وأمر الجميع كلا بالرجوع إلى مكانه، وكان ردهم بربط مغادرة المكان بتسليم الصدر الأعظم لهم. وتقدم الجمع من جامع الفاتح إلى جامع أورطة، وحصلوا على فتوى بقتل الصدر الأعظم، وقرروا تعيين محمد باشا في منصب الصدر الأعظم، وحضر معهم في جامع أورطة، وأرسلوه إلى القصر وتسلم الختم الهمايوني. ودخل محمد باشا القصر خائفا معتذرا للسلطان أنه مجبر على كل هذا، ولم يشارك في قتل صهره الصدر الأعظم الذي عينه السلطان، غضب السلطان كثيرا، وقال: إن الانكشارية تتحرك لتعيين كلب عجوز في منصب الصدر الأعظم، وطرده إلى منزله، ورفض آغاوات الانكشارية ذلك وأحضروه ثانية إلى جامع أورطة، وأرسلوا مذكرة إلى والدة السلطان بخصوص حماية الأمراء وأبناء السلطان بصورة جيدة، وحمَّلوا رئيس البوستانجي المسئولية، وقرروا هذه المرة إقصاء السلطان نفسه عن العرش، بسبب تهديده لهم بصورة مباشرة. لم يمض وقت طويل حتى تم الإمساك بالصدر الأعظم أحمد باشا، وأحضر إلى منزل الصدر الأعظم المعين محمد باشا «صوفي»، وقُرِّر بشأن أملاكه وثروته الطائلة كلها ثم قام الجلاد بقتله[1].

ثم أحضروا القاضي حسين أفندي، قاضي مكة المكرمة، وأرسلوه إلى السلطان، وقال له السلطان إبراهيم: إنهم قتلوا الصدر الأعظم، فماذا يريدون أكثر من ذلك؟! ورد عليه القاضي، وفقا للتعليمات: إنك سيدي السلطان أسرفت في النفقات، ولم تهتم بالقضاء على الأعداء في البوسنة، والجميع يشكون منك، وإن الجيش والصدر الأعظم والعلماء رجالك وعبيدك، وكلهم يريدون رؤيتك. لم يجب السلطان بشيء، وترك القصر، بعدها تم إرسال الأوامر إلى والدة السلطان كوسم بإرسال الابن الأكبر للسلطان محمد إلى جامع أورطة، لأنه تم اتخاذ قرار إبعاد

---

(١) Türkiye Tarihi III, Osmanli Doenemi OENEMI S. 96.

السلطان عن العرش، وردت كوسم بأنه عليهم المجيء إلى القصر، حيث لم يسبق أن تم تعيين أمير في جامع أورطة. أمر السلطان إبراهيم فرقة البوستانجي بالتأهب بوضع الأسلحة والمدافع عند أسوار القصر، فأجابوه: إذا كان السلطان ضدنا فلن تكون نتيجة ذلك جيدة. وذهب رئيس البوستانجي سرا إلى جامع أورطة وتفاوض معهم واتفقوا، وبناء عليه ذهب الجميع إلى القصر، وتحدثوا مع والدة السلطان وقدمت لهم النصائح، وتكلم مصلح الدين آغا وقام بتوضيح أحوال الدولة والأسباب الكامنة وراء التحرك، وأنهم مصرُّون على عدم التحرك قبل إقصاء السلطان إبراهيم عن العرش، وفاوضت كوسم سلطان عن ابنها السلطان كثيرا، أمام الوفد المكون من الوجهاء وهم: مصلح الدين وشيخ الإسلام عبد العزيز، وحنفي أفندي، ولم يولوا لدفاع والدة السلطان اعتبارا، وأكدوا لها أنه من الممكن شرعا تولية ابنه الأكبر العرش رغم صغر سنه، وأعلنوا على الفور تولية محمد وهو الابن الأكبر للسلطان إبراهيم عرش السلطنة، وكان في السابعة من عمره، وبهذا تم إقصاء السلطان إبراهيم عن العرش تماما[١].

وكان عمر السلطان إبراهيم الذي قتل بعد ١٠ أيام من خلعه قارب الـ ٣٣ سنة، ودفن بجوار عمه مصطفى الأول في مقبرته في فناء جامع آيا صوفيا، واعتلى العرش أبناؤه الثلاثة بصورة متتابعة خلال فترة بلغت ٤٦ سنة، و٥ أشهر و٢٩ يوما، وهم: محمد الرابع وسليمان الثالث، وأحـمد الثاني. وله ابن آخر يدعى الأمير سليم مات في عمر ٢٥ سنة، أما بناته فهنّ أم كلثوم سلطان، وتزوجت بوزير، وعاتكة سلطان، وجوهر خان سلطان، وبيهان سلطان، وقاية سلطان وعائشة سلطان[٢].

وإذا كان أتـباع السلطان إبراهيم قد وفّقوا في جعل كوسم سلطان على عرش الحكم فإنهم لم يثقوا بها لحظة، وتعاطف الشعب كثيرا لمقتل السلطان إبراهيم،

---

١). Turkiye Tarihi III, Osmanli Doenemi S:٩٧-٩٦

٢). انظر يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العلية العثمانية: جـ١/ صـ ٣٥٧.

وظهر المطالبون بالثأر لدمه، واهتزت مكانة الانكشارية بصفة عامة، وأثار هذا غضبا عارماً بين أفراد الشعب؛ لأن أخاه الأكبر «الشاب عثمان سلطان» قد قتل، وبعد ٢٦ سنة من قتله قتل أخوه السلطان إبراهيم أيضا، وأصبح الجيش الهمايوني الذي كان قدوة للعالم فرقتين، ثار السباهيون فدحرتهم الإنكشارية بشكل دموي في حرب مباشرة أمام قصر السلطان في ميدان السلطان أحـمد، قتل فيها عدة مئات من الجنود[١].

كان هذا السرد لمجمل هذه الوقائع بياناً لمدى تأثّـر الدولة العثمانية بتدخلات النساء، ومثّلت هذه الفترة أوج بروز سطوة الحريم، فقدُ اعتبر النساء أحد أهم الأسباب والعوامل التي لعبت الدور الأكبر في توقف وتأخر الدولة العثمانية بعدها؛ نظرا للتفكك الداخلي الذي لم تستطع التعافي منه، حيث أنهن تدخلن في شئون الدولة قرابة قرن من الزمان، ومن المفارقات أن هذا التدخل بدأ وتجذّر في عصر سليمان القانوني، أقوى السلاطين العثمانيين[٢].

وفي حقيقة الأمر فإن جلهار سلطان أم بايزيد الثاني، وحفصة سلطان أم سليمان القانوني، وخورم زوجته قد تدخلن في شئون الدولة، وكنّ على رأس هؤلاء النسوة اللاتي تسببن في تراجع الدولة العثمانية، وفي عهد السلطان سليم الثاني، برزت سلطة الحريم، نتيجة انسحاب السلطان عن إدارة شئون الدولة وبقاءه في القصر تاركا الأمور للصدر الأعظم محمد صوقللي، كما تخلّى السلطان عن العادة والتقليد المتبع الخاص بتدريب الأمراء العثمانيين على شئون الدولة والإدارة بتعيينهم كحكام للولايات، وقيادتهم للحروب، واستحدث نظام القفص، حيث أصبح الأمراء من ذلك، تماما كالبنات، يمضون حياتهم في الحريم دون أن يكتسبوا تجربة أو خبرة مما يفيدهم حين تصير إليهم أمور السلطة، وظل الصوقللي يتولى

---

١). يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، صـ ٤٩٦.

٢). خليل إينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية. ترجمة محمد الأرناؤوط، صـ ٩٣. دار المدار ، طرابلس ليبيا، ط١.

الصدارة خلال السنوات الخمس الأولى من حكم مراد الثالث، إلى أن قتل في إحدى مؤامرات القصر سنة: «٩٨٧ هـ/ ١٥٧٩م» بعد أن نجح في المحافظة على هيبة الدولة العثمانية، على أن ضعف سلطته نتيجة لفساد محظيات سليم الثاني، ثم نساء القصر في عهد مراد الثالث[١].

وبعد سرد كل هذه الأمور، والوقائع فإنه يبقى لنا أن نستنتج الخلاصة والمحصلة التي تتمثل في أن أهم الأمور التي أدَّت إلى تدخل النساء في الحكم العثماني هي بقاء السلاطين في خلوتهم بالحرم الهمايوني لفترة طويلة، وانتقال أمور المشورة التي كانت تعهد إلى رجال الدولة إلى النساء، والخدم، والعبيد، وتعلّق السلاطين العثمانيين بالجواري والنساء بالحرم خلال هذه الفترة، فضلا عن تعلّقهم بأمهاتهم وزوجاتهم، كل هذه مجتمعة مثّلت الأسباب الحقيقية لتدخل النساء في شئون الحكم العثماني، ما أشعر العالم العثماني كله بصدمةٍ واهتزازٍ في أركان الدولة انتقلت من البلاط إلى العاصمة ثم إلى الولايات، وفي النهاية أحست بها الدول الأجنبية[٢]



١). الحرم الهمايوني، مجلد ٢، صـ ٤٧.

٢). أحمد عبد الرحمن مصطفى، في أصول التاريخ العثماني. صـ ١٤٨. دار الشروق، ط ٢، ١٤٠٦ هـ

المبحث الثاني

الصراع بين الزوجات الأجنبيات

بدأت تظهر في عهد السلطان سليمان القانوني، وما بعده، أدوار للنساء في شئون الحكم في الدولة العثمانية، كما سبق وأن ذكرنا في المبحث الماضي، وهو ما أصبح يعرف فيما بعد بسلطنة النساء، والتي تمخَّض عنها الصراع بين الزوجات الأجنبيات، وقد نشأ هذا الصراع الذي تسبب في إقصاء السلاطين العثمانيين عن مزاولة الحكم، بطريقة أو بأخرى، حيث أصبحت كل زوجة تريد التدخل لصالح مؤيديها وأعوانها، وإبعاد مؤيدي الزوجة الأخرى، مما أدى إلى انقسام المجتمع العثماني بين مؤيد لهذه أو لتلك، ولهذا بدأ صراع خفي، علني، بين رجال ونساء الطرفين، وفي تلك الفترة ازدادت الرشاوى والمؤامرات والحيل في الحرم، واعتمد كل طرف على بعض أغاوات الانكشارية، وتمت استمالتهم بكل ما يطلبونه من أجل حـماية سلطته، وبهذا خرج نظام الدولة عن الطريق السوي[1].

وللتعرف على طبيعة تلك الصراعات التي ظهرت في تلك الفترة، والتي لم تقتصر على الصراع بين الزوجات فحسب، بل كانت في بعض الأحيان بين أم السلطان وزوجته، أو جدته، وبين جواريه أحيانا، نورد أمثلة على ذلك، مركّزين على حالتين شهيرتين في فترتين متباينتين، إحداهما حين كان السلطان قوياً، ويتمتع بكافة صلاحياته، في أوج قوة الدولة وعظمتها، والأخرى حين كان السلطان دُميةً في أيدي الأغوات والنساء، وتحت الوصاية الكاملة، مرورا بعهد تركز ت فيه سلطنة النساء من خلال السلطانة صفية سلطان:

الحالة الأولى: خورم سلطان وماهي دوران سلطان

في عهد السلطان سليمان القانوني، احتدّ الصراع بين خورم سلطان، وهي الزوجة الحظية للسطان، وماهي دوران، الباش قادين سلطان، وأم الأمير مصطفى، ولي العهد الشرعي للسلطان سليمان، كان للأمير مصطفى ثلاثة إخوة هم الأمراء بايزيد، وجهانكير، وسليم، وكان معروفا في الأوساط العثمانية، محبباً إلى الجيش

---

١). الحرم الهمايوني، المجلد ٢. صـ ٤٧.

والشعب، ولم يكن أي أحد يشك في أنه لن يكون هو السلطان العثماني القادم خلفا لأبيه سليمان القانوني الذي تقدم به العمر؛ لما يتمتع به من خصال الشجاعة والقوة، فضلاً عن كونه أكبر أبناء السلطان، غير أن خورم سلطان والصدر الأعظم رستم باشا، كانوا يميلون بل يعملون من أجل تولي بايزيد العرش، أما «ماهي دوران» فقد كانت تسعى لأن تحظى بشرف ومنزلة «والدة سلطان»، وبالطبع كان السلطان سليمان والجيش والعلماء والمشايخ يجمعون على تولية الأمير مصطفى، بينما كان سكان الحرم والقصر يفضلون الأمير جهانكير الذي كان مقيما في القصر، ولم يكن الأمير سليم يخطر على بال أحد؛ لأنه كان يعيش حياة لهو مع مسامريه، وهكذا فإن كون خورم زوجة السلطان سليمان والدة الأمراء بايزيد وسليم وجهانكير، وكون الأمير مصطفى من ماهي دوران خاصكي كان يشكل سبباً كافياً لإشعال نار الفتنة، فضلا عن ما ذكر عن إهمال السلطان أحكام القَسْم والعدل بين أزواجه، ما جرّ إلى هياج الغيرة والنميمة بين السيدتين[١].

رسمت خورّم خطتها بإحكام، خطةً تؤدي إلى إزاحة ماهي دوران من طريقها، فخططت لنشوب مشاجرة بينهما أدت إلى اصابة خورّم بجروح، فتذرعت بذلك للاحتجاب عن السلطان الذي غضب على ماهي دوران زوجته الأصلية، فنفاها إلى مغنيسيا، وكان ابنهـا مصطفى حاكما على ولاية مغنيسيا حيث اصطحب معه أمه، وبذلك خلا الجوّ لخورم، التي ما لبثت أن أصبحت السيدة الأولى في حريم السلطان بعد وفاة السلطانة الوالدة، فاستغلت وضعها الجديد في نقل الأمير مصطفى وأمه إلى ولايات أكثر بعداً، وحينئذ ازداد تأثيرها على السلطان -وهو ما سجَّله مؤرخٌ من البندقية زار العاصمة العثمانية بقوله: «إنه يكنّ لها من الحب ويمنحها من الثقة ما يثير دهشة جميع رعاياه، الذين يعتقدون أنها سحرته، ويطلقون عليها اسم: الساحرة، وهكذا أصبحت هي وأولادها مثاراً لبغض الجيش والبلاط، وإن لم يجرؤ أحد في الإفصاح للسلطان عن مشاعره، ولم أسمع أحداً يذكرها هي ونسلها بسيرة

١). الدولة العثمانية المجهولة، مصدر سابق، صـ ٥١٦.

خير، في الوقت الذي كانوا يثنون في المديح على الأمير مصطفى ووالدته». ورغم ان الحقوق التي حصلت عليها روكسلانا باعتبارها سلطانة قد جعلتها تقف- في الواجهة الرسمية على قدم المساواة مع جلبهار الغائبة، وعلى الرغم من عواطف سليمان الجياشة نحوها، حيث ميزها على جميع نساء القصر، فقد طلبت منه أن يعقد قرانه عليها، وكان ذلك امراً غاية في الغرابة والدهشة، وتم لها ذلك في حفل مهيب[1].

وكانت خورم قد لعبت دورا رئيسيا في مقتل الصدر الأعظم مقبول إبراهيم باشا، وقرة أحـمد باشا، ثم قامت بعد ذلك بمساع حثيثة لدى السلطان بعد موت إياس باشا، لتولية رستم باشا، الكرواتي الأصل، وما زالت تساعده حتى زوَّجه السلطان ابنته الوحيدة، مهرماه سلطان، فكاشفته بمرغوبها، وهو تمهيد الطريق لتولي ابنها بايزيد ولاية العهد، وكان لا بدّ من دسيسة خطيرة، وهي إزاحة الولد الأكبر للسلطان الأمير مصطفى، حتى يتولى بعده ابنها بايزيد[2].

انتهز الوزير رستم باشا فرصة نشوب الحرب سنة «٩٦٠ هـ/ ١٥٥٣م»، واستعان بموضوع سياسي كان يعدّ من أخطر المواضيع السياسية وأكثرها حساسية، ألا وهو موضوع تشيع الأناضول[3].

---

١). سجل القنصل الانجليزي المستر جورج، عرس السلطان من خورم في اسطنبول ويصف فرحها بما يلي: إن هذا الأسبوع أصبح حدثا خارقا للعادة وتحول إلى واقعة لم يرَ مثلها في تاريخ السلاطين في اسطنبول، حيث أن السلطان سليمان قد جعل الجارية الروسية الأصل امبراطورة كبيرة وتزوجها، وتم إعداد ولائم كبيرة في المدينة، وأصبح هذا العرس لا مثيل لحفلاته وولائمه فوق تصوره، ولقد تم عمل مراسم بتحرك الموكب وتمت إضاءة الشوارع والزفة ليلا، وتم عزف المقطوعات الموسيقية وترتيب السهرات والحفلات وتزيين المنازل بالأنوار والأضواء، وتم عمل صيوان كبير (سرادق) وتم تزيينه بالأقفاص ذات النجوم، وشارك المسلمون والمسيحيون في هذا الحفل، وتم عمل مسابقة شاركت فيها النسوة، بالصقور والحيوانات الوحشية، وذاع صيته في اسطنبول. انظر: ماجدة مخلوف، الحريم في القصر العثماني، ، صـ : ٤١، ٤٢.

٢). تاريخ الدولة العلية العثمانية: جـ١ / صـ ٢٤٦.

٣). الدولة العثمانية المجهولة، مصدر سابق، صـ ٢٤٩.

كان السلطان قد هيأ جيشا للتوجه نحو إيران، وقام بتعيين رستم باشا قائدا للقادة في الأناضول، وكان الأمير مصطفى أحد هؤلاء القادة، فكتب رستم باشا إلى السلطان بأن ولده يحرض الانكشارية على عزله وتنصيب نفسه مكانه، مثلما فعل السلطان سليم الأول مع أبيه السلطان بايزيد الثاني، فلما وصل هذا الخبر إلى السلطان كانت خورم قد تمكنت من تغيير أفكاره نحوه، وهيأته لتصديق الخبر، فقام في الحال قاصدا بلاد العجم، متظاهرا بأنه يريد أن يتولى قيادة الجيش، ولما وصل إلى المعسكر استدعى ولده المسكين إلى سرادقه في يوم: « ١٢ شوال ٩٦٠ هـ/ ٢١ سبتمبر سنة ١٥٥٣م»، وبمجرد وصوله إلى الداخل خنقه بعض الحجاب المنوطين بتنفيذ مثل هذه الأوامر، فقتل رحمه الله شهيدَ دسائسِ زوجة والده، وعدم تثبت أبيه مما نسب إليه، وكانت هذه الفعلة الشنعاء نقطة سوداء في تاريخ السلطان سليمان الذي اتسعت دائرة السلطنة في أيامه، ولولا دسيسة هذه المرأة الأجنبية لبقي اسمه لا تشوبه شائبة، ثم نقلت جثة هذا الشهيد إلى مدينة بورصة، ودفنت مع جثث أجداده[1].

وفي نهاية الأمر وبهذه الطريقة فإنها قامت بإزالة الأمير مصطفى وأمه «ماهي دوران» من طريقها، وأصبحت السيدة الأولى، أو الباش قادين للسلطان القانوني، ليبقى ابنها ولي العهد الأوحد لمنصب السلطان، إلا أنه مات دون أن يتم له ذلك، وبوفاة حفصة سلطان أم السلطان سليمان، فإنها استولت على إدارة الحرم بيدها، وظل السلطان سليمان القانوني في يد الحرم زهاء ٢٥ سنة كاملة، منذ هذا التاريخ، وحتى وفاتها في « ٩٦٥ هـ/١٥٥٨ م»، وأخذت مكانها ابنتها مهرماه سلطان، وعائشة هومة شاه حفيدتها، وكانت خورم قد قامت بتعليمها أشياء كثيرة في كافة الشئون، ولعبت مهرماه دورا رئيسيا في الصراع بين سليم وبايزيد بصفة خاصة، وهي التي أثرت على أبيها بشأن قتل بايزيد وأبنائه[2].

١). تاريخ الدولة العلية العثمانية: جـ١ / صـ ٢٤٦.

٢). الحرم الهمايوني، مصدر سابق، المجلد ٢. صـ ٤٨.

الحالة الثانية: نوربانو سلطان وصفية سلطان

كانت نوربانو سلطان هي الباش قادين للسلطان سليم الثاني، وهي من أصل يهودي كما ذُكر، انضمت إلى الحريم في سنّ صغيرة، وتربّت بداخله على الأصول الإسلامية العثمانية، وقد جذبت اهتمام السلطان سليم الثاني بجمالها، فتزوجها، ثم أصبحت والدة سلطان عندما أصبح ابنها مراد الثالث السلطان العثماني الثاني عشر، «٩٨٢ هـ/ ١٥٧٤م - ١٠٠٣ هـ/ ١٥٩٥ م»، وقد أهدت لابنها جارية بندقية الأصل من عائلة شهيرة اسمها صفية، أحبها السلطان كثيرا وملكت قلبه، فقد كان السلطان مراد من أكثر السلاطين العثمانيين انشغالا بالجواري، وأكثرهم أولادا، قيل: إنه كان يملك أربعين جارية تقريبا، وقد تدخّلت أمه نوربانو السلطانة الوالدة، وزوجته السلطانة صفية في شئون الدولة، وكان تدخلهما عاملا مهما في هذا الطراز من الحياة الغريب على السلاطين العثمانيين، الذي عاشه السلطان مراد الثالث، وابنه محمد الثالث، فقد كانا أكثر السلاطين تفريطا في كل الأمور، وفي ظلّ هذه الظروف، وهذه الحياة غير المنضبطة للسلطان وانشغاله بجواريه وشهواته، كان طبيعياً أن تتركز سلطنة النساء وأن يحدث تنافس قوي بين هذين المركزين النسوين القويين في الحرم، والدة السلطان، وزوجته، وهو ما حدث بالفعل، وقد كان هذا الصراع وهذه السلطة من الأمور التي سلطت مزيدا من الضوء على سلطنة النساء وتدخلهنّ في الحكم، وتجاوز آثارها خارج أسوار القصر، وقد رشَح في كتب التاريخ من نتائج هذا الصراع كيف استغلت إحدى جواري القصر هذه الفرصة، فقد وقفت الجارية «جان فدا» بجانب نوربانو والدة السلطان، ضدّ صفية زوجة السلطان، ودفعت السلطان مراد الثالث لتعيين أخيها إبراهيم على ولاية ديار بكر، مع أنه لم يكن يملك اللياقة والكفاءة التي يستلزمها هذا المنصب الهامّ[1].

(١) الدولة العثمانية المجهولة، مصدر سابق، صـ ٢٦٧.

الحالة الثالثة: كوسم سلطان وطورخان سلطان

عندما أقصِيَ السلطان إبراهيم عن العرش، كان أكبر أبنائه هو الأمير محمد، وتولى السلطنة بعده وهو في السابعة من عمره، كان واضحا أن الأمور لن تسير كما يرام، فالسلطان بحكم صغر سنه لا يملك تدبيرا ولا يدرك شيئا مما يجري حوله، وكان متوقعا أن يحدث صراع بين الوالدة الصغرى طورخان سلطان والوالدة الكبرى المتنفذة كوسم سلطان وأغوات الانكشارية. فقد أصبحت طورخان سلطان أم محمد الرابع والدة سلطان أيضا، وأصبحت لها مكانتها، وكما سبق فإنه كان من التقليد والعُرف المتبع أن تذهب كوسم سلطان إلى القصر القديم، وتبقى طورخان في قصر طوب قابي. لكن أغاوات فرقة الأوجاق الذين زادت مفاسدهم، كانوا إلى جانب كوسم سلطان، وانقسم رجال الدولة والشعب إلى فريقين بداية من تولي قره مراد باشا[1] منصب الصدر الأعظم، وتجمَّع قسم منهم ومجموعة قوية حول طورخان سلطان ، لأن كوسم سلطان أصبحت ثقيلة وعبئاً على سكان الأندرين والأغاوات السود؛ بسبب تقاربها الشديد من أغاوات الأوجاق، وكان جميع سكان القصر يعرفون أن تدخل الأغاوات في سائر شؤون الدولة يتم بحكم سيطرة كوسم سلطان في الأساس وتحت إشرافها، ولقد لعبت كوسم سلطان دوراً مهما في شئون الدولة لمدة ٣٠ عاماً باستثناء فترة حكم أبنائها دولي إبراهيم، ومراد الرابع، وذلك منذ عهد زوجها السلطان أحمد الأول[2].

وهذه المرأة الطموحة ذات الأصل الرومي كانت لا تريد بأي حال من الأحوال تدخل طورخان سلطان الأم الأصلية للسلطان في شؤون الحكم والدولة، ولكن طورخان سلطان كانت تريد استخدام نفوذها كوالدة للسلطان. غير أن

(١) وهو من أقنع السلطان محمد الرابع والديوان الهيمايوني بإعلان الحرب على المانيا، وقد كان قائدا للجيش العثماني حينما استولى العثمانيون على النمسا ١٠٩٤ هـ / ١٦٨٣ م.

(٢) هو أحمد الأول بن محمد بن مراد (١٠٢٦ هـ/ ١٦١٧هـ)، وهو السلطان العثماني الرابع عشر كان شاعرا، وله ديوان مطبوع، وقد وصل للحكم سنة: ١٠١٢ هـ/ ١٦٠٣م وعمره ١٤ سنة.

الوالدة الكبرى كوسم سلطان وهي سيدة مدبرة، وذكية، لم يكن من السهل عليها التخلي عن مكانتها التي حافظت عليها منذ عهود أربعة من الحكام، وكما ذكرنا فإن أغوات الانكشارية كانوا يدعمون كوسم سلطان الوالدة الكبرى، بصورة مطلقة. وعلى الجانب الآخر فإن آغا باب السعادة، ورجال الحرم الهمايوني، كانوا يدعمون والدة السلطان الصغرى والأساسية، وتحركت خديجة طورخان سلطان بالاعتماد على آغا باب السعادة، وهكذا فقد بات هناك صراع وتنافس عظيم بين الوالدة الصغرى والوالدة الكبرى، وكذلك فقد ادّعى كل واحد من الأغوات أنه الحاكم، فقال سيادش باشا: إنني أتحرك بأمر من سيدي السلطان، ثم ذهب إلى القصر، وبذلك فإن أغاوات الانكشارية كانوا لا يريدون تفويت فرصة التحكم في شئون الدولة من أيديهم، ولكن بعد فترة وبناء على مجريات الأمور بهذه الصورة؛ أخذ الخلاف والشقاق يدبّ بينهم، وبالإضافة إلى ذلك فإنهم قرروا الإصرار على معارضة رجال خديجة طورخان سلطان وأغواتها والقضاء عليهم، وكان في نيتهم بدء ذلك من القصر أولا[1].

أما أغاوات القصر الذين واجهوهم فإنهم كانوا رجالا قريبين من خديجة طورخان سلطان، وقامت كوسم سلطان الوالدة الكبرى بإخبار أغوات الانكشارية الذين يؤيدونها بصفة مستمرة بأسماء هؤلاء الأغاوات الذين يدعمون طورخان، وقالت: إنه لا يمكنكم النجاح طالما لم يتم القضاء على معارضيكم. وقبل مضي وقت طويل فإن الأغاوات، قاموا بعقد اجتماع بدائرة آغا الانكشارية في السليمانية في منتصف رمضان ١٠٦١ هـ، بداية سبتمبر ١٦٥١م، وقاموا بدعوة قضاة العسكر، ونقيب الأشراف والقضاة الآخرين للانضمام لهذا الاجتماع، وكتبوا أسماء

---

١). انظر: علي سويلم، و بشار يوجلي، تاريخ تركيا، المجلد ٣، العصر العثماني ١٥٦٦-١٧٢٠، أنقرة ١٩٩٠. صـ ١٠٦.

الأغاوات التي قامت كوسم سلطان بمنحها إياهم في ورقة، وأرادوا إخراج هؤلاء الأغوات من القصر(١).

وفي خضم الصراع بين الوالدة الصغرى والكبرى، فإن سكان الأندرون والأغاوات السود من الخدم، كانوا متحالفين مع أغاوات الانكشارية في صف كوسم سلطان الوالدة الكبرى، أما الأغوات الباشي لالا سليمان، والمصاحب إسماعيل آغا فإنهم كانوا في صف خديجة طورخان سلطان، ومن الطبيعي أن يقوم بعض الأغاوات الآخرين في القصر بتأييد كوسم سلطان، ولهذا السب حدث الصراع بين أغوات الطرفين. وأعدت كوسم سلطان العدة للتخلص من هؤلاء الأغاوات المؤيدين لطورخان سلطان، فقامت بتحريض أغاوات الانكشارية لإتمام هذا الأمر، وكانت كوسم سلطان في سن السبعين من العمر، وفور تخلصها من محمد الرابع وإقصائه عن العرش سعت لإرسال أمه ومنافستها خديجة طورخان سلطان إلى القصر القديم، وتولية الأمير سليمان الثاني على العرش، لأن أمه لم تكن ذات شخصية بها روح التنافس. وعند تحقيق هذه الخطة بهذه الصورة فإن سلطة الدولة ستكون بين كوسم سلطان، وعلي آغا رئيس البوستانجي، وكرياجي باشا، وهو من أكثر رجال كوسم سلطان ثقة واعتمادا عليهم(٢).

وبموجب هذه الخطة التي تمّ إعدادها فإن أغاوات الإنكشارية سيدخلون القصر من باب سري سيترك لهم مفتوحا بصفة خاصة، وسوف يتمّ القضاء على رجال خديجة طورخان سلطان، ومن ثمّ يتم إعلان الأمير سليمان الثاني على السلطة، ولقد تقرر تسميم ومقتل السلطان محمد، لكن إحدى جواري كوسم سلطان أخبرت خديجة طورخان سلطان بحقيقة الأمر، كما أن آغا باب السعادة الباش لالا سليمان آغا قد علم بخطة كوسم سلطان هذه بكافة تفاصيلها، وأخبر خديجة طورخان سلطان بها. ولهذا السبب فإن الأغاوات المؤيدين للوالدة الصغرى قرروا

---

١). انظر تاريخ تركيا، مصدر سابق: صـ ١٠٦.

٢). نفس المصدر السابق، صـ ١٠٨.

قتل كوسم سلطان، وأعدّ رجال خديجة طورخان سلطان على الفور خطة مضادة للتخلص من كوسم، ردا على مخططاتها الفاسدة والخطيرة، واتفقوا على التحرك الجماعي لهذا الأمر، وبعد ذلك انضمّ أيضا رجال الحرم الهمايوني والغرف الخاصة، وقام رجال الوالدة الصغرى خديجة طورخان بالتسلح قبل مجيء رجال الوالدة الكبرى كوسم سلطان إلى القصر، وقاموا بالتخلص من الرجل المكلف بقتل الأمير، ثم دخلوا دائرة كوسم سلطان بالحرم الهمايوني، وقتلوا رئيس البوابة ورجاله الذين أرادوا منعهم والتصدي لهم. وسمعت كوسم سلطان لغطا وضجيجا خارج جناحها، ولم تشك أنهم رجالها من الانكشارية جاؤوا ينتظرونها، غير أن سليمان آغا بدّد كل أوهامها حين ناداها: تفضلي بالخارج، وهكذا وبسرعة سعت للتخفي والهرب، غير أن الفرقة المكلفة بمراقبتها ومتابعة تحركاتها قامت بإلقاء القبض عليها، وقام «كوجـــك بالطجن» بإعدامها خنقا بحبال الستائر، ودفن جسدها بمقبرة السلطان أحـمد[1].

بعد مقتل كوسم سلطان بهذه الطريقة قام السلطان باستدعاء الصدر الأعظم سيادش باشا إلى القصر، وقال له استمع جيدا: إذا كنت تريد البقاء في منصبك فعليك الطاعة، وإعلان الولاء وقم بمجازاة الذين قاموا بإهانتي، فعاد الصدر الأعظم إلى مقره بعد ذلك، وأمر بقطع رؤوس جميع رجال كوسم سلطان، ومعهم علي آغا رئيس البوستانجي. وفي اليوم التالي قام بدعوة الوزراء والعلماء وقضاة العسكر، وأركان الدولة بالقصر، وعلى الرغم من دعوة شيخ الإسلام عبد العزيز أفندي، فإنه لم يذهب إلى القصر وذهب إلى جانب الانكشارية، واعتلى السلطان محمد الرابع العرش أمام باب السعادة، وصدر أمر «فرمان شريف» بتنفيذ بعض وصايا حنفي ومسعود، وهم من قضاة العسكر القدامى، وتم إعداد فتوى بشأن قتل المعارضين للحكومة والسلطان، ودعوة العامة بموجب الفرمان الشريف، وعزل قضاة العسكر وشيخ الإسلام، الذين لم يلبوا الدعوة على الفور، وفي تلك الأثناء

---

(١) تاريخ تركيا م. سابق، صـ ١٠٨.

فإن أغوات الانكشارية كانوا قد تركوا باب الآغا، وذهبو إلى جامع أورطة، وقال آغا الانكشارية في تلك الأثناء أيضا: إنه لا يريد هؤلاء الأشخاص القريبين من السلطان، ولا نريد التدخل في شئون الدولة، بل نريد الثأر لدم والدة السلطان كوسم. وتم تعيين حنفي أفندي العالم بالقصر في منصب شيخ الإسلام، إلا أنه تنازل عن هذا المنصب بعد ذلك، فتم تعيين أبو سعيد أفندي في منصب شيخ الإسلام، ومسعود أفندي في منصب قاضي عسكر الأناضول. ومن ناحية أخرى فقد تم جمع أفراد الشعب، والكادر العسكري تحت لواء السلطان، وقبل مضي وقت كثير كان القصر قد امتلأ بالعسكر والجنود، وكذلك خارج القصر في ساحات السلطان أحـمد وآيا صوفيا[1].

أما الانكشارية العاملين بالغرف الخاصة بالقصر، فإنهم لم يذهبوا إلى جامع أورطة الذي تجمع به الانكشارية، وأعلنوا ولاءهم للسلطان، وهم مسلحون، وبالإضافة إلى ذلك فإن الانكشارية المتواجدين بالمخافر العامة باسطنبول جاؤوا إلى القصر، أما أغوات الانكشارية الذين تجمعوا في جامع أورطة فإن شيخ الإسلام الجديد طلب دعوتهم للقصر بموجب فرمان هـمايوني، وبناء عليه فإن آغا الانكشارية قال: لن نذهب إلى القصر، وإنما نقف هنا، ولن نتمرد على السلطان، وإذا تحرك أحد ضدنا، فإننا سندافع عن أنفسنا، وحينئذ فإن جورباجي الانكشارية وأوضة باشي وغيرهم من رجال الانكشارية، لم يرضوا عن ذلك التمرد، وتركوا فرقة الانكشارية، وأعلنوا ولاءهم للسلطان، وهكذا بدأ التفكك بين الأغاوات، وقبل مضي وقت طويل فإن أغوات الانكشارية رأوا أنه لا يمكنهم المقاومة لفترة طويلة، واضطروا لكتابة تذاكر إلى شيخ الإسلام أبو سعيد أفندي والباش لالا سليمان آغا من أجل العفو عنهم. وهكذا فإن هؤلاء الأغوات الثائرين تم إبعادهم عن فرقة الانكشارية من خلال تعيينهم بوظائف جديدة، وتم تعيين حسين آغا في

(١) مصدر السابق: صـ١٠٨.

منصب آغا الانكشارية، وقاسم آغا في منصب «قول كتخدا»[1]، وتم إلقاء القبض على كل من بكت شر آغا، وقره جاويش مصطفى، وكتخذا أبل الذين لم يذهبوا إلى أورطة، تم إلقاء القبض عليهم والتخلص منهم، وتمّ إبعاد شيخ الإسلام عبد العزيز أفندي عن اسطنبول بصورة النفي إلى جزيرة ساقز[2]. وبالإضافة إلى ذلك فإن المؤيدين لفرقة الانكشارية بين العلماء والحكومة تم عزلهم من وظائفهم وإبعادهم عن فرقة الانكشارية من خلال هذه الوظائف الجديدة، وأما ملك أحمد باشا الذي تم تعيينه على إيالة سلسترة[3] من قبل فإنه تم نفيه إلى مالقرة بعد ذلك، وهكذا فقد تم التخلص من كافة رجال الانكشارية ومن سفك دماء كثيرة، وتم إنهاء خدماتهم بالدولة. وإذا كان سيادشي باشا الذي تم تعيينه الصدر الأعظم من قبل، قد تحرك بصورة قيادية فيما بعد، إلا أنه ظل تحت تأثير سليمان آغا، آغا الفتيات الذي أنقذ حياة خديجة طورخان سلطان في الأساس، وتم عزل الدفتردار مصطفى باشا من منصبه، وكان ذلك في الاتجاه المعاكس، وعندما علم سيادش باشا بأن سليمان آغا الذي يحمي الدفتردار ضده فإنه عرض الأمر على خديجة طورخان سلطان وتم عزل سيادش باشا، وتعيين جورجي محمد باشا في منصب الصدر الأعظم، الذي كان في سن التسعين. وباشر مهامه بجدارة؛ لأنه كان صاحب تجارب ورجل محنك، وبدأ في ترتيب الأمور والأحوال الداخلية، والإمساك بزمامها، وأرسل بمعارضيه ومنافسيه إلى المنفى، وقام بمحاصرتهم، وفي الوقت نفسه منح رجال الجيش أموالا كثيرة، وقام بعمل موازنة في خزانة الدولة التي كانت فارغة في ذلك الوقت. وأثناء ذلك فإن آغا الحريم سليمان آغا قد استفاد من ذلك الوضع، وحقق ثروة طائلة للغاية، لكن

---

(١) «كتخدا»: مسئول كبير في صنف حربي، وممثل هذا الصنف أمام الحكومة، وتعني كلمة «قول»: مماليك السلطان الموجودين في خدمة الدولة. انظر الملاحق: مصطلحات عثمانية.

٢) جزيرة ساقز إحدى جزر بحر مرمرة، في سواحل تركيا الغربية، وهي قريبة من اسطنبول. وكانت مقرا لتنفيذ عقوبة النفي. انظر الملاحق: الخرائط.

٣) ولاية سلسترة إحدى الولايات العثمانية الهامة، وتقع حاليا في بلغاريا، على الضفة الجنوبية للدانوب. انظر الخرائط في الملاحق.

الصدر الأعظم الذي لم يتمكن من تحقيق أي نجاح في تلك الأثناء لم يتم عزله، ثم أصبح في موقف صعب للغاية عندما تعرض لانتقادات كثيرة من رجال الدولة في اجتماعاتهم، حيث أن محمد جورجي كانت آراؤه دائما في هذا الاجتماع نافذة، ولهذه الأسباب مجتمعة فقد طلب رجال الدولة تعيين طارخونجي أحـمد باشا في منصب الصدر الأعظم بدلا من مسعود أفندي قاضي عسكر الأناضول، وجورجي محمد باشا، وهـما اللذان قد تعرضا لانتقادات حادة وكثيرة(١).

وهكذا مضت أمور الحكم والسلطة إلى أغوات فرقة الانكشارية، بسبب كوسم سلطان، التي اعتمدت على هؤلاء الأغوات، بعد أن كانت رئيسة للدولة والحرم؛ لأن السلطان محمد الرابع حفيدها كان في سنّ السابعة، لم يكن يفهم شيئا عن السلطة وأمور الحكم، ولهذا ظل الحكم والسلطة بيدها بصفة تامة، حتى تم قتلها فتحولت جميع أمور السلطة والإدارة وأصبحت بيد طورخان، والتي عرف عنها أنها كانت تريد تنفيذ الأمور على شكل صحيح وجيد على عكس ما كانت تسير عليه في عهد كوسم(٢).

وبعد كوسم سلطان جاءت نيابة طورخان والدة سلطان في الفترة: «١٨/ ٠٩/ ١٠٦١ هـ ٣/ ٩/ ١٦٥١ م - ٢٦/ ١١/ ١٠٦٦ هـ ١٥/ ٩/ ١٦٥٦م»، إن نائبة السلطنة الجديدة كانت في سن الـ ٢٤، وقد كانت جارية مسبية كما قدمنا، قامت عاتكة سلطان إحدى بنات أحـمد الأول بتربيتها وتعليمها، ثم قدمت للسلطان إبراهيم في صورة جارية، وكانت من أصل أوكراني أو سلافي، مثل خورم سلطان، ذات قامة فارعة، وشعر ذهبي، وعيون زرقاء، وقوام رشيق، وجسد أشقر شديد البياض، أنجب منها السلطان إبراهيم أول ابن له، هو السلطان محمد وخلَّص الأسرة الحاكمة من الانقراض، واعتبارا من الليلة التي قامت فيها كوسم سلطان لم يغادر الأهالي ميدان سلطان أحـمد، وكانوا يريدون النيل من الآغاوات، وتمت

١). تاريخ تركيا، مصدر سابق، صـ ١١٠ .

٢). الحرم الهمايوني، مصدر سابق، المجلد ٢. صـ ٤٩.

مصادرة أموالهم ووضعت في خزينة الدولة لتصبح في نصابها الشرعي، ومن المعروف أن جنرالات الانكشارية قد خرجوا بمبالغ ضخمة من خزانة الدولة تقدر بـ ٥ مليون ذهبية. ولما انتهت سلطنة الآغاوات وخرج نظام الدولة من نفوذهم، أصبحت طورخان سلطان النائبة الثانية للسلطنة مشغولة بالبحث عن الصدر الأعظم المناسب للدولة، لكنه لم يتسن لها ذلك في البداية؛ إذ أنه تم إعدام سيادش باشا، وبعده طارخوني أحـمد باشا، وبعده مات درويش محمد باشا بمرض الفشل الكلوي. واستمرت حرب كريت وقام الأسطول الهمايوني بمواجهة أسطول البندقية، وكان الأسطول الهمايوني بقيادة الصدر الأعظم السابق قرة مراد باشا، وكان مع الأسطول الهمايوني أساطيل صغيرة مرسلة من الجزائر وتونس وطرابلس، وانهزم الأسطول البندقي، وغرقت أربعة سفن، وكان عدد الجرحى كبيرا والقتلى ٣ آلاف، وتم أسر قائد أسطول البندقية، أما خسائر الأسطول العثماني فإنها لم تكن كبيرة، وكانت عبارة عن ٥٠ شهيدا ومائة جريح، ورجع الأسطول الهمايوني إلى اسطنبول، وحمل معه ٥٠٠ أسير من البنادقة، ثم قاموا بإخراج الجيش إلى جزر سمانديراك وقاموا باحتلال بعض الجزر على السواحل. ومن ثم فإن هذا النصر العظيم الذي حققه الأسطول الهمايوني قد رفع من مكانة كوبريلي أمام العالم الأوروبي[(١)].

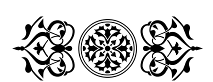
أما عادل كداي ولي عهد القرم فإنه جاء حتى أعتاب موسكو، ومن ثم قام الإمبراطور الروسي بسداد مائة ألف ذهبية، وإبرام الصلح مع القرم، وكذلك فإن بولندا أصبحت مقيدة بدفع وسداد ضرائب للقرم قدرها ٢٤٠ ألف ذهبية. وهكذا فإن طورخان والدة سلطان كانت تداوي آلام الدولة من خلال مشاورة كبار الرجال، مثل قوجة قاسم آغا، وقوفي بك، وصولاق زادة وثاني زادة محمد أفندي، والمؤدب لالا إبراهيم آغا، وكان قاسم آغا بصفة خاصة، وهو في سن الثمانين، من

---

١). إسماعيل أحـمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، صـ ١١١، مكتبة العبيكان ١٩٩٨.

أعظم مستشاريها فقد اعتمدت عليه كثيرا في قراراتها. وبهذه الصورة فإن والدة السلطان تمكنت من مسايرة أمور الدولة من خلال العلماء والوزراء والمستشارين، وكانت تنزل على آراء كوبريلي باشا، وتمكن كوبريلي العجوز بذلك من أن يحكم سلطة الدولة بيد من حديد، وكان يؤمن بأن الدولة لن تسير إلا بالشدة، ولذلك منحته طورخان كافة الصلاحيات، وأصبح هو النائب الفعلي للحكم، وبدأ عصر عائلة كوبريلي الذين تولوا مناصب كبيرة بالدولة، وعلى رأسها منصب الصدر الأعظم، وبعد ذلك انتهت فترة نيابة الوالدة هذه للحكم، وتولى محمد الرابع العرش بعد بلوغه السن المطلوبة. واستمرت نيابة والدة سلطان هذه لمدة خمس سنوات و١٢ يوما[1].

ومن خلال ما سبق ذكره فإننا نستطيع أن نقول بأن تدخل النساء في حكم الدولة العثمانية قد أثّر عليها بصورة كبيرة، وأدّى إلى تدهور شئونها، بل وضمن عوامل أخرى إلى سقوطها في نهاية الأمر. وكانت سيطرة الآغاوات على الحكم بالدولة، كل حسب هواه، جعل الدولة في صورة الدمية التي يلعب بها كل واحد من هؤلاء الآغاوات، ومن ثم فإن سلب ونهب أموال وخزانة الدولة، وتعيين رجال الدولة في مناصب رفيعة مقابل رشاوى، وترك الرجال المناسبين لهذه المناصب، كل هذه الأمور كانت تصب في سقوط وانهيار الدولة العثمانية. والجدير بالذكر هنا أيضا أن ظهور الأجانب بالبلاط العثماني، وتدخلهم في شئون الحكم، وتعدد ولاءاتهم وانتماءاتهم، كان مظهرا من مظاهر تدخل النساء في شئون الحكم والسلطة ما أدى إلى تعميق الأثر، وتدهور أحوال الدولة، وهو ما سنتاوله في المبحث الآتي.



١). يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العلية العثمانية: جـ١/ صـ ٣٥٨- ٣٥٩.

المبحث الثالث

ظهور مجموعات من الأجانب في البلاط العثماني

ظهور مجموعات
من الأجانب في البلاط العثماني

عرفت الدولة العثمانية في وقت مبكر من نشأتها - كما سبق وأن أشرنا- دخول العنصر النسوي الأجنبي إليها، واستعرضنا فيما سبق كيف وصلن بحُكمِ كونهنّ زوجات وأمهات لسلاطين ذوي نفوذ قوي، إلى مناصب عالية، وإن كانت غير رسمية دائما، مكنتهنّ في بعض الفترات من التدخل في شئون الدولة، والتحكم في السلاطين وموازين القوى داخل الدولة، وقدرتهنّ على تعيين مقربين منهنّ في مناصب حساسة، وكان من الطبيعي نوعاً ما أن يؤدِّي تأثيرهنّ في السياسة العليا للدولة إلى ظهور عناصر أجنبية في البلاط العثماني، وتوليهم المسئوليات الكبيرة، بصفة رسمية، وبدعم مباشرٍ منهنّ، بلغ حدّ تولي أعداد منهم منصب الصدارة العظمى، في فترة من تاريخ الدولة العثمانية كان العنصر الأجنبي ذو حضور كبير؛ ففي عهد مصطفى الأول (١٠٢٦ هـ/ ١٦١٧ م - ١٠٢٣ هـ / ١٦٢٣ م) مثلاً، كان أكثر قادة الجيوش والوزراء من المماليك الذين اعتنقوا الإسلام حديثا، وكان بعضهم لا يزال يدين لبلده الأصلي بالولاء، بل ربما كانوا أداة في بعض الأحيان لتنفيذ أغراضهم، انطلاقا من مواقعهم الحساسة ووظائفهم العالية في الدولة [١].

وكانت النتيجة أن أصبحت السلطة في أيدي هؤلاء الدخلاء والأجانب وحديثي النعمة، بينما بقيت الأسر التركية العريقة، التي لا رواج لها في هذه السوق السوداء، تنظر بعين دامية إلى هؤلاء الفاسقين يعبثون بالدولة، ويبيعون الأراضي والقرى، ويوزعون التيمارات[٢] والزعامات المهمة على خدمهم وأتباعهم، ويقدمون الألوية وسائر المناصب إلى الذين يزيدون لهم في الأثمان[٣].

---

١) عدنان العطار، الدولة العثمانية من الميلاد إلى السقوط، دمشق، دار وحي القلم، ط ١، ١٤٢٧، صـ ٨٣.

٢) التيمار: هم نظام مستخدم في الدولة العثمانية لتشغيل الأراضي السلطانية التي تقع تحت سيطرتها، حيث يتم تفويض حقّ التصرف فيها إلى الرعية بعقد كراء بلا أجل، أو بعقد إعارة مقابل بعض من غلة الأرض، تعطى للدولة كضريبة. انظر المزيد في الدولة العثمانية المجهولة صـ ٧٦٣.

٣) محمد جميل بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، أسباب انحطاط الامبراطورية العثمانية، ١٣٧٣. صـ ٦١.

وسنتناول في هذه الدراسة بعض هؤلاء في مختلف فترات العهد العثماني، ومدى الدعم المباشر الذي كانوا يتلقونه من زوجات السلاطين، فعلى سبيل المثال فإن حفصة سلطان، والدة السلطان سليمان القانوني، ذات الأصول القرمانية، أوصلت إبراهيم باشا، أحد الأسرى من جزيرة بارقة، الرومي الأصل، إلى منصب الصدر الأعظم للدولة العثمانية، أعلى مناصب الدولة، مدنية كانت أو عسكرية:

مقبول إبراهيم باشا، أحد الأجانب في البلاط العثماني:

من هو إبراهيم باشا هذا الذي هزَّ مشاعر العالم العثماني؟ إنه أسير من جزيرة بارقة، والمعروف أن جزيرة بارقة كانت في يد البنادقة، وأن سكانها من جنس رومي، وهم الإيطاليون رسميا، وقبل أن يصبح أسيراً فإنه كان قد تعلم اللغة الرومية وهي لغته الأم، واللغة الإيطالية وهي لغة الدولة التابع لها، ولقد استفاد من مقدرته على عزف الموسيقى، وهكذا فإنه كان عبدا مستنيرا وبارعا بهذه الدرجة، وجذابا بصورة أكبر في الوقت ذاته. ولذلك فإنه ملك قلب امرأة من مانية كانت تملكه، وأصبح كبيرا في نظرها، فتم الاهتمام به وبتعليمه بالفارسية والعربية والتركية، وأصبح يتكلم خمس لغات، ويقرأ ويكتب ويعزف الكمان ويغني أيضا، وكانت هذه الخصال كافية لحظوته لدى والدة السلطان سليمان، لكنها في الأحوال الطبيعية لم تكن كافية لتصل به إلى حدّ كونه صدرا أعظم للدولة العثمانية العلية. وظل إبراهيم الذي ذكر بأسماء «إبراهيم آغا داماد، ومقبول إبراهيم باشا»، في منصب الصدر الأعظم لمدة اثنا عشر عاما، وخلال هذه المدة تمكن من الإحاطة بكافة الأمور الغامضة في الإدارة والحكم، ووفق أيضا في اختيار رجاله من خيرة رجال الدولة السابقين، وقام بتسليمهم المهام والمناصب الخاصة بهم. ولقد كان إبراهيم باشا من الشخصيات الممتازة التي تتمتع بوسامة المظهر وحلاوة الشخصية، وكان لديه ذكاء وقدرة فائقة للعادة، وعندما أصبح في منصبه فإنه لم يجد صعوبة في

إدارة هذا المنصب، حيث أن المكانة التي تميز بها على مدى فترة شبابه جعلته يتفوق فيما بعد في حكم أمور الدولة العثمانية[١].

وبمرور الوقت أصبح محببا إلى السلطان سليمان كثيرا، حتى أن السلطان لا يستطيع تحمل فراقه لبضع ساعات، واستمرت هذه المحبة والمودة بصفة دائمة. ومن ثم فإن إبراهيم باشا تزوج بأخت السلطان سليمان وأصبح صهر الأمير «داماد»، وأصبحت له الحرية بالحرم الهمايوني بمجرد دخوله كأحد أركان العائلة والأسرة العثمانية، وكان يمضي الليل بالقصر ويدخل ويخرج كيفما شاء، وبهذه الصورة فإنه كان المشرف الأساس على الخدمة بالحرم، ليلا ونهارا، حتى أنه عندما قتل، وهو أمر لم يكن يتخيله أحد، فإنه دفن بغرفة خاصة، بدائرة الحرم بالقصر، وظل مرقده بها. لم يكن السلطان سليمان كأي سلطان آخر ممن عاصروه، فالعالم كله كان يحتفي به، وإذا قرب إبراهيم باشا، فإن ذلك سيعطيه زخما ورفعة كبيرة، فكان يجيب جميع مطالبه، بل إن السلطنة كلها كانت تسير وفق جدول أعمال إبراهيم باشا، ووفق كلمته، وبقلمه كان يحكم سائر أرجاء المحروسة خارج المركز، ويبدوا أن الظروف في ذلك الوقت، سواء داخليا وخارجيا، كانت تصب في وصول إبراهيم باشا إلى هذا المنصب، وهذه الدرجة العظيمة والمكانة الكبيرة. وأثناء تواجد إبراهيم باشا في هذا المنصب كان الملك شارل الخامس شارلمان، إمبراطور ألمانيا ورئيس الأسرة الحاكمة التي حكمت جميع دول أوروبا آنذاك، كان أخو هذا الإمبراطور فرديناد ملك النمسا يخاطب إبراهيم باشا بقول: أيها الأخ الأكبر[٢].

وكان من المفترض أن تكون سيرة إبراهيم باشا وشخصيته القوية التي أبلغته إلى هذا المستوى تجعله يحافظ على الاعتدال والتوازن بصفة مستمرة، ولكن غرور إبراهيم باشا قد جعله يتمادى في جرح مشاعر سفراء النمسا. وبناء عليه فإن إبراهيم باشا قد حاز مكانة وموقعاً هاما للغاية، وحقق شهرة عثمانية كبيرة، كان له

---

١). عبد الرحمن شرف – تاريخ الدولة العثمانية (تركي) : صـ ٢٣٩.

٢) المرجع السابق: صـ ٢٥٤.

كيان ونفوذ سياسي كبير، تحدَّث عنه الأوروبيون ممن وقف على هذه الحقيقة، فصوروا إبراهيم باشا في صورة عظماء التاريخ مثل الأسكندر(١)، وقيصر(٢)، وهنيبعل(٣)، وجعلوا منه ملحمة أسطورية عظيمة، بل إنهم صوروه في صورة السلطان نفسه. واخذ إبراهيم باشا من خلال هذا التفويض السلطاني بإدارة شئون الدولة بإخلاص وعظمة. لكن الجميع اهتمّ كثيرا بتمرد أحـمد باشا بمصر، وكانوا يرون أن مخالفة أصول الدولة من خلال تعيين إبراهيم باشا بمنصب الصدر الأعظم هو مقدمة لاضمحلال الدولة. وتمنى الكثيرون نجاح تمرد أحـمد باشا هذا في إزالة الأمر الخاطئ، ولم يكتفوا بمناداته: الملك المنصور أحـمد، بل إنهم انتظروا منه تجديد الإدارة والسلطة حتى اسطنبول(٤).

لكن السلطان سليمان هو أول من أقرّ بأهلية إبراهيم باشا لهذا العمل، وجعل الجميع يلتزم بذلك، وزوّجه أختَه، وارتفع قدره عند العامة والخاصة، وتبوأ أعلى مكانة بين الناس بالعرس الذي أقامه في ١٨ رجب ٩٣٠ هـ / ٢٢ مايو ١٥٢٤ م، وكان حفلا لا مثيل له حضره السلطان سليمان نفسه، وبنيت لذلك الغرض خيمة مهيبة في ميدان السباق (آت ميدان)، كان الوزير الثاني إياس باشا وآغا الانكشارية هما من جاءا إلى السراي لدعوة إبراهيم باشا رسميا للحفل، واستمرت الاحتفالات لمدة سبعة أيام بدعوة مختلف الموظفين في القطاعات العسكرية والمدنية وإقامة الولائم الفخمة، حضرها الوزراء في اليوم الثامن، وفي اليوم التاسع، وهو

---

١). الإسكندر الأكبر أو الإسكندر المقدوني (٣٢٣ ق.م) أحد أعظم وأذكى القادة الحربيين على مر العصور، حاكم الإمبراطورية المقدونية، وقاهر الإمبراطورية الفارسية.

٢). يوليوس قيصر الامبراطور الروماني، أحد أبرز الشخصيات العسكرية الفذة في التاريخ، وسبب الثورة التي حولت روما من جمهورية إلى امبراطورية.

٣). القائد العسكري الكبير، القرطاجي الذي دحر الرومان، وهو ابن عائلة محاربة من مدينة فينيقة.

٤). عبد الرحمن شرف - تاريخ الدولة العثمانية (تركي) : صـ ٢٤٦.

يوم الزفاف، زار السلطان سليمان العريس إبراهيم في قصره، جلس معه بين جدارين مكسوين بالقماش المذهب، وستائر معلقة بالنوافذ من الحرير الخالص[١].

كان ذلك في مقر إبراهيم باشا في «آت ميدان»، واشتهرّ هذا المقر كثيرا باسم قصر إبراهيم باشا، وتم تزيين هذا المنزل، وكان الهدف من ذلك إقناع الأهالي بمكانته في السلطنة العثمانية، وكانت الجدران أمام القصر مفروشة بسجاد وستائر من الأقمشة المشغولة بالحرير والذهب والفضة، وعليها من الزينة والحلي المستوردة من مصر وإيران وتونس واسطنبول. وفي تلك الأثناء ولد الأمير سليم، ابن السلطان سليمان من خورم، وكان ذلك الميلاد بمثابة فأل خير للسلطة، وبعد ثلاثة أيام تم عمل الولائم والأفراح والمسرات، وفي اليوم السابع تم دعوة سائر علماء ذلك العصر، مثل ابن كمال، وعلي أفندي، وذكروا أن مولد هذا الأمير جاء مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾[٢]، ويعد هذا فأل حسن على الدولة. وكذلك فإنه في هذا اليوم جاء لفيف من وجهاء الدولة، وتناولوا ما لذ وطاب من الأطعمة والمشروبات، وكان إبراهيم باشا يتناول الطعام في الميدان معهم أمام العلماء وشيخ الإسلام وقاضي العسكر والوزراء، وكان يريد السلطان بذلك جعل مكانة خاصة لإبراهيم باشا، وفي اليوم الثاني من شعبان جاء السلطان إلى إبراهيم باشا وتبادلوا التهاني. وبعد بضعة سنوات، في ٩٣٦ هـ/ ١٥٣٠ م، اضطلعوا بعمل حفل آخر لختان الأمير؛ لأن بعض النساء والخدم قرروا ذلك في الحرم وأبلغوه للسلطان، لكن إذا كان حفل الأمير لائقا بأخته بهذه الطريقة إلا أنه سيظل مصدر نقص في عيون الأهالي؛ وذلك لأنهم قرروا عمل هذا الحفل في «آت ميدان» بقصر إبراهيم باشا، وكان هذا الحفل أكبر مما سبقه بمرات عديدة، وحضره والي مصر، وأركان قصر اسطنبول، والسلطان نفسه كان يتناول الطعام على المائدة ذاتها مع

---

١). J. von Hammer Purgstall, Histoire de l'Empire Ottoman, Depuis son Origine Jusqu'à nos jours, Traduit par M. Dochez, (PARIS, BETHUNE et PLON, 1844), Tome I, P. 477.

٢). سورة ص: ٢٦.

أركان الدولة، وكان على يمين السلطان الصدر الأعظم إبراهيم باشا، والوزراء الثاني، والثالث، وقاسم باشا، وأمير أمراء الروميلي، وأمير أمراء الأناضول، وخير الدين أفندي معلم الأمير، وابن خان القرم، وعلى يسار السلطان الصدر الأعظم السابق بيري محمد باشا، وزاير باشا، وفرح شاه ميرزا ابن السلطان الأمير انيولي، ولطفي بك حاكم دار القدرية، واستمرت الحفلات والمسابقات والألعاب العسكرية وسائر المشاهد على مدى عشرين يوما، وتم توزيع الهدايا وكان حفلا لا نظير له. ولقد اهتم السلطان نفسه بهذا الحفل، وخاطب إبراهيم باشا علنا حول مدى إخلاصه وحبه له، وسأله: أي الحفلين هذين يليق بالأمير؟ ومن الطبيعي أن يقوم إبراهيم باشا بمدح هذا الحفل، وبدا إبراهيم باشا يلفت أنظار العامة والخاصة بمدى حب السلطان له، وكانوا يرون تدخل الحرم الهمايوني في شؤون الحكم بصورة قوية، وقد تمثل ذلك في شخص إبراهيم باشا، وكان العامة على قناعة بان إبراهيم باشا وراءه الحرم الهمايوني، ولم يشعروا بوجوده خارج إطار سياسة القصر، وتحديدا الحرم الهمايوني[(١)].

لكن تدخل الحرم الهمايوني لم يظل فقط في صورة إبراهيم باشا بل إنه ظهر في أشكال أخرى عديدة، فلقد تم إرسال صوبان مصطفى باشا لتولي ولاية مصر لأنه تزوج بأخت السلطان، لكن أخته هذه قد شكت إلى السلطان إبعاد زوجها إلى مصر، وكان زوجها الأول قد قتل من قبل السلطان سليم «يـــاوز» قبل مضي وقت طويل، وظلت ابنة السلطان أرملة، والآن تم إرسال زوجها إلى مكان بعيد وأصبحت كالأرملة أيضا، وبعد توضيح ذلك طلبت زوجها ونقلت الكثير من الأعذار، وعَذَرها الصدر الأعظم إبراهيم باشا، والتمس لها العذر، أما السلطان فانه أبدى احتراما بالغا لما طلبه إبراهيم باشا ولم يعارض، وبينما تم إيضاح أسباب خلفياته لصوبان مصطفى باشا في الديوان، فإن الوزير الثاني أحمد باشا أخذ يغلي من الغيظ والغضب، وبناء عليه فإنه شعر بتدخل الحرم الهمايوني في شؤون الدولة،

---

١). عبد الرحمن شرف – تاريخ الدولة العثمانية (تركي) : صـ ٢٤٩.

والتزم بتوليته ولاية مصر والبعد عن المركز، كما التمس لنفسه العذر من أجل التمرد. ولم تزل هذه الفكرة السيئة التي تعلقت بأذهان العامة، وعزم الصدر الأعظم ابراهيم باشا على تسوية سائر الانحرافات التي ظهرت في مصر بنفسه، وكان لهذه النية تأثير سيئ للغاية، أثَّر على هيبة السلطان وحاشيته حيث أن هذا يخل بشرف السلطان وسيادته، وكذلك كان في هذه التصرفات تجاوز لما تسميه الدولة بالخطوط الحمراء لسياستها[١].

وفيما كان إبراهيم باشا في مصر فإنه قام بأعمال هامة وخطيرة فقد جدد المرسى الملكي القديم في السويس، وأنشأ قاعدة بحرية منفصلة للبحر الأحمر، كان يجري الإنفاق عليها من موارد الجمارك المصرية[٢].

غير أنه اضطرب بسبب طلب السلطان له، وذهب إلى أدرنة ليدفع هذا الضيق، وانشغل بالتسلية واللهو، وهذا الوضع جعله في موضع وصورة المساءلة، والمؤاخذة، وأدى إلى شكاوى من الأهالي ورجال الجيش، وانعكست هذه الشكاوى إلى السلطان نفسه، وتسببت في العودة، لكنه عند عودته لم يأت إلى القصر الكبير باسطنبول مباشرة، بل نزل إلى قصر «كاغد خانة»، وذهب إلى الحرم الهمايوني وأراد المقام به فترة، وأدى ذلك إلى تفشي الشائعات وإثارة القيل والقال، وتمرد الانكشارية، وأثناء هذا التمرد تم سلب ونهب نُزل الصدر الأعظم إبراهيم باشا، والوزير الثاني إياس باشا، والدفتر دار أسكندر جلبي، وبعض متاجر اليهود. وبناء عليه فإن السلطان الذي عاد إلى قصره كان من المفترض أن يقوم بتأديب هؤلاء المتمردين، لكنه على العكس من ذلك قام بمكافأتهم بدلاً من تأديبهم. ثم أرسلوا وفدا خاص إلى القصر، ووصلوا إلى السلطان سليمان، وقام ثلاثة منهم بتقبيل يد السلطان، لكن هذه السياسة جعلتهم يقومون بإثارة مجموعات أخرى للتمرد، ولم يتمكن السلطان سليمان من الحفاظ على قوته، وعاد إلى دائرته بسرعة، وقام بإنهاء

١). عبد الرحمن شرف – تاريخ الدولة العثمانية (تركي) : صـ ٢٤٩.

٢). أحمد عبد الرحيم، في أصول التاريخ العثماني: صـ ٩٧.

التمرد مرة أخرى من خلال منحه ألف ذهبية على سبيل العطية السلطانية، وكانت هذه الواقعة خطيرة حيث لم تكن تليق بعهد السلطان سليمان القانوني(١).

وبعد بضعة أيام وبسبب ذلك فقد تم تأديب آغا الانكشارية من خلال بعض الأوامر الشديدة، لكن لم تكن هذه السياسة كافية من أجل إزالة أثر هذه الحادثة الهامة، واستلزم ذلك الأمر جلب إبراهيم باشا. وكان سفر إبراهيم باشا إلى مصر بنفسه إجراء حكيماً وجيداً، يشرِّف إبراهيم باشا بصفة خاصة، والإدارة العثمانية بصفة عامة. وقام أحـمد باشا بجمع الأموال بعد علمه بنتيجة التمرد، وزاد من فرض الضرائب المعتادة، وأخذ الأهالي والسكان يشكون من ذلك. ومن ناحية أخرى فإن محمد بك، وهو السبب الرئيسي في ظهور مشكلة أحـمد باشا، قام بإخبار السلطان بنفسه ولفت نظره إلى هذا الأمر، أما الوالي فإنه كان رجلا لينا، وأخذ هذا الأمر صورة المشكلة، وتم إرسال إبراهيم باشا وتكليفه بحل هذه المسألة. وخرج إبراهيم باشا لتلك الرحلة في ذي الحجة ٩٣٠ هـ/أكتوبر ١٥٢٤م، مع عشرة من رجال الدولة، هم: الدفتر دار أسكندر جلبي، وخير الدين آغا العلونجي، والآغا جاويش باش محمد صوفي، والتذكرة جي جلال زادة، والمؤرخ مصطفى جللي، وكان معه في تلك الرحلة الحربية ٥٠٠ من الجنود الانكشاريين، وألفان من القابي قولو، وعشرة سفن. خرج الصدر الأعظم نحو القاهرة في أبَّهة عظيمة، في هذا الموكب الفخم، كان دعم السلطان له في هذه المهمة سخيا إلى أبعد الحدود، كانت خيَّالته مكسوَّة برايات بيضاء وزرقاء، وهي ألوان مختلفة عن الألوان الاعتيادية للعثمانيين، وكانت أعلامه كأعلام السلاطين مكسوة بالذهب، وكذلك القبَّعات التي يلبسها الفرسان ومماليكه المرافقين له كانت مطرَّزة بخيوط ذهبية أيضا(٢).

---

١). محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية صـ ٢٠٨.

٢). J. von Hammer Purgstall, Histoire de l'Empire Ottoman, Depuis son Origine Jusqu'à nos jours, Traduit par M. Dochez, (PARIS, BETHUNE et PLON, 1844), Tome I, P. 478.

وتوقف هذا الأسطول في الجزر بعد بضعة أيام بسبب سوء الأحوال الجوية، وأبحر إبراهيم باشا من رودس إلى الإسكندرية مرتين لكن الطقس لم يسمح له بإتمام هذه الرحلة، في منتصف الشتاء، وكانت الرياح والهواء ترجع بالسفن مرة أخرى، فخرج إلى البرّ من ميناء مرميس[1]، وقرر الذهاب برا، وأمر بإحضار خيول جيدة من حلب وسوريا إلى الأماكن التي سيخرجون منها، وكان دخول إبراهيم باشا مصر مثار فرحة عارمة للمصريين الذين اعتادوا على الاستقرار في السلطة، ومنحوه هدايا تقدر بـمائة وخمسين ألف ذهبية على جواده. ومن ثمّ فإن الذين كانوا يشكون الحكومة قد أثلجت صدورهم هذه الإجراءات، وتحقق العدل برمته، وأصبحت الرحلة نعمة كبرى بالنسبة للسكان المظلومين والمهدرة حقوقهم، وحصل إبراهيم باشا على مكانة أكبر وتقدير أعظم، بإدخاله السرور في قلوب هؤلاء البسطاء، وقام كبار رجال الدولة، وهم اسكندر جلبي والدفتر دار همراي بكتابة الأملاك من جديد، وتم فرض الرسوم المعتادة بلا زيادة، وإعدام شيخين بدويين جائرين، وطرد الكثير من المسئولين الذين ارتكبوا الكثير من الأخطاء الجسيمة. وهكذا فقد اتخذت تدابير أساسية بشأن الأمور الشرعية، والشئون المدنية والعسكرية، وتم ترميم مسجد عمرو بن العاص، بالقرب من لسان النيل، من أموال الصدر الأعظم نفسه، ومن ثمّ فإن شعب مصر سارع لتبجيل إبراهيم باشا والإدارة العثمانية. وبعد إنفاق تلك النفقات، قام بإرسال ثمانمائة ألف ذهبية إلى خزانة اسطنبول، وقام خسرو باشا، وهو أحد الولاة بإرسال هذه الثمانمائة ألف ذهبية مرة واحدة، ومعها مليون ومائتي ألف ذهبية أخرى. وهكذا فإن خزانة الدولة أصبحت في درجة ممتازة، بفضل جهود مقبول إبراهيم باشا، هذه، حتى أنها جعلت السلطان سليمان يرتاب بأمره، فضلا عن نفوذه المتزايد على الجنود والآغاوات[2].

---

١). مرميس: مدينة تركية ساحلية تقع على بحر إيجة.

٢). الدولة العلية العثمانية، مصدر سابق، صـ ٢٣٠ .

وتم إحضار هذا الوالي لإيضاح الأمر، فقال: إنه لا يمكن إعطاء مقبول بما يقنعه، وبناء على فتوى العلماء؛ فقد تم تخصيص مبلغ أربعمائة ألف ذهبية للإنفاق على الأعمال الخيرية العامة، مثل ترميم وإصلاح قنوات المياه باسطنبول. ولقد تعددت مثل هذه الآثار والسياسات في العهد السليماني، ويعدّ قتل داماد فرهاد باشا من هذا النوع، حيث أن فرهاد باشا كان رجلا ظالما وغادرا، من دونمة الكروات، أما شهوار أوغلي محمد بك المكلف بمساعدته في التنكيل بالمجرمين، وخدمة الدولة، فإنه دفعه في عمله قبل مجيء فرهاد باشا، وتم تفريق هؤلاء المجرمين، غير أن فرهاد باشا أغضبه ذلك الأمر وغلبه الحرص والطمع في وضع يده على ثروات عائلة شهوار، وظلم جميع رجال وأركان هذه الأسرة وقضى عليها. وظهرت الكثير من الشكاوى بسبب تعدياته ومظالمه هذه التي قام بها هنا، وأثناء إمارته للأناضول، وتم الاكتفاء بعزله بسبب المصاهرة، وبلغ راتب تقاعده الذي لم يحصل عليه أحد قبل ذلك سبعمائة ألف آقجة، ثم تم إرساله ليتولى منصب أمير أمراء سمندرة، لكنه عندما ارتكب هذه المظالم مرة أخرى قطعت رأسه دون النظر إلى حرمة المصاهرة[١].

وعند عودة إبراهيم باشا من مصر ودخوله اسطنبول استقبله السلطان ورجال الدولة بمراسيم خاصة، كما استقبله الخدم الخاص والوزراء في نُزله بكل إجلال وإكبار[٢]، وقام السلطان بإهدائه هدية قيمتها مائتي ألف ذهبية، وفي المقابل فقد قام إبراهيم باشا بتقديم تاج إلى السلطان يحمل القيمة ذاتها. وشرح السلطان للصدر الأعظم تمردات الانكشارية، وأوصى إبراهيم باشا بأن العلاج الوحيد لتلك المسألة يكمن في القيام بحرب المجر[٣].

---

١). عبد الرحمن شرف – تاريخ الدولة العثمانية: صـ ٢٣٩.

٢). الدولة العلية العثمانية، مصدر سابق، صـ ٢٠٧ .

٣). عبد الرحمن شرف – تاريخ الدولة العثمانية: صـ ٢٥٨.

حيث أن هذه الحرب ومثيلاتها كانت لها فوائد وثمرة عظيمة مثل تنظيم سائر الجنود والغزاة، وجعلت جميع الجنود في صورة صارمة من الطاعة والنظام. وفي الواقع فإنه على الرغم من الشكاوى والاعتراضات التي صاحبت تولي إبراهيم باشا الإدارة والحكم فإن إدارته هذه كانت من أفضل الإدارات قاطبة؛ لأن إبراهيم باشا كان مضطلعا بالأمور مدبرا حاذقا وعسكريا جيدا، بقدر إخلاصه واستنارته ورجاحة عقله، وإذا كان جزءا مهما من ذلك قد اقتضته تلك الفترة، وفرضه ذلك العصر، فإن الجزء الآخر يعود إلى دهاء إبراهيم باشا الكامل. حتى أن رجال اسطنبول لم يكتفوا بحجج قوية مثل التي ذكرناها بشأن إبراهيم باشا، بل إنهم لم ينكروا أن مهارته واستعداده وقوته تفوق أقرانه وأمثاله ممن أمسكوا بهذا المنصب، وكانوا يرون أن مكانة الدولة العثمانية ستزداد قوة في عهده. وليس أدل على ذلك من تلك المخصصات التي وصلت في عهده إلى ثلاثة ملايين آقجة، ما يعادل ستمائة ألف دوقة ذهبية، وجعل الحكام الأجانب ينظرون إلى هذا المستقبل الباهر للدولة العثمانية، وأصبح محل تقدير الغرب أنفسهم، ومحل تقدير السلطان والحرم الهمايوني، وجعل الكل يقدره. لقد اعتاد العثمانيون على رؤية سلاطينهم في صورة مهيبة للغاية، وبأرفع درجة، لكن أوضاع التشكيلات هذه لم تكن توافق أصول جمهوريته برمتها، لكن أسس هذه التشكيلات البيزنطية والإيرانية قد خرجت في الأساس من الصورة الأصلية لبناء الحضارة العثمانية، ولهذا السبب ظلت الدولة العثمانية قائمة بصفة مستمرة وهي قوية، وفي تَنامٍ بصورة دائمة، ولم ير الشعب والأهالي أن هناك مسافة كبيرة بين السلطان سليمان والصدر الأعظم مقبول[1].

ولقد ظل تاريخ اسطنبول تاريخا غامضا صعبا قدر غموض شعبها، حيث أنه لا يمكن معرفة ما يدور خلف الكواليس وفي المحافل الخاصة، وظل هذا التاريخ سطحيا في أكثر مروياتـه. غير أن الآثار الفعلية لتاريخ إبراهيم باشا، وتلك المادية أيضا قد أصبحت مثلا يحتذى به، ومن الثابت والمؤكد نجاحه المدني ورجاحة عقله

---

١). عبد الرحمن شرف – تاريخ الدولة العثمانية: صـ ٢٥٩.

في الشرق والغرب. لقد كان إبراهيم باشا نموذجا يحتذى به في شتى المجالات، حيث أنه كان يقوم بتجهيز الجيش وإمداده بكافة المهمات للحرب، وكان يقوم بتوفير الأموال اللازمة للشعب، وكان يقوم بتأديب سائر المجرمين واللصوص الذين يتعرضون لأموال الشعب، حتى الذين يعتدون على محاصيل الحقول بالضواحي، والفواكه بالحدائق، وحقق جميع مقومات المدنية في سائر أرجاء السلطنة، وحفظ الأمن فيها وإحقاق الحق والعدل، لسائر الناس الذين تعهد برعايتهم. وهكذا أصبح ذا مكانة عظيمة في نظر التاريخ والمؤرخين، ولا يمكن تهميش هذا الجزء المشرق من حياة إبراهيم باشا بأي حال من الأحوال. غير أن التاريخ وإن كان يقدر إبراهيم باشا، إلا أن تعظيمه هذا وبهذه الطريقة لا يدع له العذر في الجناية التي ارتكبها بشأن اسكندر جلبي، ولا يمكن أن يغضّ الطرف عن بعض تصرفاته السيئة، والتي أفرط فيها؛ لأن التاريخ ناقد علمي فاحص للحقائق، في عهد إبراهيم باشا كانت هناك أكثر من ناحية أثَّرت تأثيرا سيئاً على الشعب، لعل أبرزها، وأكثرها صلة بموضوع بحثنا هذا، هو ميله المفرط لآداب وأصول الغرب والمجتمع الغربي، حتى أن دائرته وحياته كانت عبارة عن اتجاهات أجنبية بحتة، اتسمت بـ«الأفرنجة» بدرجة كبيرة، لدرجة أنه تواترت أخبار بأن إبراهيم باشا يميل للحياة الغربية أكثر من هويته العثمانية، وقد غذَّى هذه الشائعات والأخبار المتواترة نقله لهياكل وتماثيل بوذية إلى قبر السلطان أحـمد، ومزاعم أعدائه أنه يرغب في تاج المجر لنفسه، رغم عدم القطع بصحة ما يتداول بشأن ذلك، سوى أن سفراء النمسا لم يبتعدوا كثيرا عن هذه الظنون، وأكدوا أنهم لمسوا منه بعض الأفكار والتوجهات المريبة في المفاوضات التي أجروها معه - حيث استمر القتال بينها وبين العثمانيين مدة من الزمن، كان النصر فيها غالبا للمسلمين - وقت عقد الصلح بينهما ١ جمادى الأولى ٩٥٤ هـ[1].

---

١). تاريخ الدولة العلية العثمانية: صـ ٢٣٨.

ويبدو أن هذه المفاوضات والمباحثات هي التي أظهرت الهوية الحقيقية لإبراهيم باشا، يقول الأوربيون الذين حضروها: إن إبراهيم باشا لم يكن وحشا، كما يعتقد الأتراك والأوربيون، بل إنه كان يخفي في نفسه صورة طفل وقع في يد العديد من النساء، وتحرر من الأسْر، وأصبح من أركان الدولة، لدرجة أنه عبّر عن نفسه، في حفل استقبال أقيم في عام «٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م» لبعض المبعوثين الأجانب، قائلا: إنني أدير هذه الممالك الواسعة بمفردي، وجميع تدابيري وإجراءاتي هي القانون نفسه، ولديّ جميع القوى والقدرات، وأعرف ما لديّ من مهام ومسئوليات، وأقوم بها كيفما أرغب، حتى أن الفرمانات التي لا يتم التصديق عليها من طرفي لا يمكن للسلطان أن يصدرها، فالسلطة والحرب والسلم كل هذه الأمور بيدي، وإنني أعلن ذلك من أجل تسهيل مأموريتكم[١].

ويُفهم من ذلك أن إبراهيم باشا كان ينعت نفسه بصفة السلطان، ولعل غروره هذا، إلى جانب الشائعات التي طعنت في إخلاصه وأنه يريد الحكم لنفسه، سبب له كثيرا من المتاعب، وأصبح ذهوله وشروده الذهني مثار انتباه ونظر لكل من يحيط به، وأخذ السلطان يرتاب بأمره، علاوة على أن المسافة التي تفرق بين العبد وسيده لا نجدها، ولم يكن لها أثر بين السلطان سليمان والصدر الأعظم إبراهيم باشا، كل ذلك بسبب التدخل المباشر والدعم الذي يتلقاه الداماد ابراهيم باشا من حفصة سلطان، ولقد كانت حفصة أمرأة جديرة بلقب أعظم شخصية في ذلك العصر، ولم تكن حفصة خاصكي سلطان أو حفصة قادين جميلة فحسب، بل إنها تميزت بالعقل والدراية، وكان السلطان سليم «ياوز»، زوجها، يعرف قدرها ومكانتها جيدا، ولذا ترك ابنه الوحيد لها لتقوم بتربيته، وظل الأمير سليمان تحت إشراف ورعاية والدته بصفة مستمرة، أثناء وجوده في كييف ومانية وأدرنة واسطنبول. ولقد ارتبطت صفات الأمير سليمان بصفات أمه، فاستمد منها القوة والفضائل والخصال

١). عبد الرحمن شرف – تاريخ الدولة العثمانية: صـ ٢٦٧.

الحميدة، وسجية الأم العطوف الرحيمة الشفيقة، فقد كان السلطان سليمان قويا كأبيه، حادا وقورا مهيبا[1].

ولذلك كان السلطان سليمان يتحرك بموجب رأي أمه في كل شيء، ويعرض عليها سائر المشكلات التي تعترضه، كانت هذه طبيعته منذ أن كان في سن الثامنة والتاسعة، ولم يزل ذلك دأبه حتى بعد أن وصل الثلاثين وتولى أمور الحكم والسلطة في الدولة، فإن أمه كانت الملجأ والملاذ الوحيد لديه عند الحاجة إلى اتخاذ القرارات. وبعد وفاة حفصة سلطان أمه، انتقلت هذه المكانة العظيمة والمنزلة الخاصة إلى امرأة أخرى أيضا، هي زوجته خورم سلطان، ثم ابنته مهرماه سلطان، وكأنه لدى السلطان سليمان سجية وفطرة ثابتة هي فطرة أمه التي تمثلت عنده في النساء جميعا من بعدها. وفي حقيقة الأمر لا توجد معلومات قاطعة ومؤكدة بشأن البت في أصول حفصة سلطان، ولكنه عند تدقيق النظر إلى علاقتها بالانكشارية وارتباطها بهذه الفرقة ارتباطا وثيقا، ومحبتها للأسرة، واحترامها البالغ لحرمة المصاهرة، فإنه يمكن الحكم بأنها فتاة من أصول ألمانية، وقعت في يد المحاربين أثناء الحرب مع النمسا، حيث أن هذه الخصال والصفات خاصة بالجنس الألماني وكانت حفصة سلطان ذات العقل الراجح تقدر إبراهيم باشا، هذا العبد الذي كان يسمح له بموجب سنه ومؤهلاته بالدخول إلى القصر والخروج منه، فجعلته يرتبط بابنها في صداقة متينة، ولتقوية هذه العلاقة زوجته بابنتها، وتمكن من خلال ذلك من الانضمام إلى فرقة الانكشارية، ونتج عن هذه المصاهرة دخول عنصر جديد إلى تلك العائلة التي تحمل آدابا وأصولا جرمانية. وعليه لم يكن إبراهيم باشا صهرا خارج القصر، كما جوبان مصطفى، وفرهاد، وقاسم باشا، بل أصبح صهرا بدرجة ركن من أركان السلطنة، غير أنه يستمد قوته وحمايته، ويحافظ على مستوى نفوذه، كما سبق وأن أشرنا، من خلال علاقته المباشرة بحفصة سلطان، من ثمّ فإنه مباشرة وبعد وفاة والدة السلطان لم يتمكن إبراهيم باشا من الحفاظ على موقعه

---

(١). Ismail, Haki, Uzuncarsili, Osmanli Tarihi, C. 3/1 S. 407/1.

ومكانته، بعد أن حُرم من ذلك السند القوي، وحُرم السلطان سليمان نفسه من استشارة أمه وتوجيهاتها الهامة، بعد وفاتها، وأخذ يتعلق بزوجته خورم خاصكي زوجته الأثيرة التي سلبت لبه، وتمكنت من شغاف قلبه، وبدأت خورم سلطان تحل محل الأم، متبوئة مكانة هامة داخل الدولة العثمانية، وكانت ترى في إبراهيم باشا مانعا وعائقا أمامها، وأصبح خصما لها، وزاد الطين بلة ارتباطه بالأمير مصطفى ابن السلطان سليمان، من غيرها، فتأججت الخصومة وذكت نار العداوة بينهما، وهكذا فخلال سنة واحدة من وفاة والدة السلطان سليمان حفصة سلطان في عام: ٩٤٠ هـ/ ١٥٣٤م، تلاشت قوة إبراهيم باشا ثم اغتيل بالقصر، في ظروف وملابسات سرية، بحضور بعض الخدم البكم، وتم إجبار الآخرين على السكوت، ودفن ليلاً في مكان قتله سراً، وحدثت فاجعة البرامكة، واضطربت الأمور بالدولة، وحل اللغز وزال الغموض الذي سيطر على أمور الدولة وأوضاعها، وهو نفوذ حفصة سلطان على ابنها السلطان سليمان القانوني، ويبدوا أن هذا النفوذ كان غير محدود، ولا شكّ أن فاجعة إبراهيم باشا كان لخورم قادين يد فيها، كما لم تغب عن باقي الافتراءات والدسائس التي حدثت بعد ذلك في السلطنة، للتميز في حياكة الدسائس والمؤامرات، وزرع بذور الشقاق والإفساد، والافتراءات، والتي برع فيها الجنس السلافي الروسي، وظهر ذلك بوضوح وبصفة خاصة في عهد صدارة رستم باشا[1].

إيــــاس باشــــا:

بعد تولي إبراهيم باشا منصب الصدر الأعظم الذي استمر لمدة ١٣ سنة، «٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م-٩٤٢ هـ / ١٥٣٥م» ، تم منح الختم الهمايوني إلى إياس باشا، ولم تحدث أي انحرافات أو أخطاء خلال الثلاث سنوات الأولى من تقلده هذا المنصب، ورحل سنة ٩٤٥ هـ/ ١٥٣٨م، وكان من جنس ألباني معروفا باستقامته وعفته وأخلاقه الحسنة، لم يدع أي فرصة لتدخل النساء في الحكم، ويروى أنه كان حادّ الشخصية، وعلى الرغم من ذلك فإنه كان ذا شعبية كبيرة وربما كان تعيينه هو

---

١). تاريخ الدولة العثمانية، عبد الرحمن شرف، صـ ٢٧٢.

ولطفي باشا الذي جاء بعده، توطئة لتعيين رستم باشا من طرف خورم سلطان في ظل قوَّة السلطان العظيم سليمان القانوني[1].

رستـــــم باشـــا:

إن تولي رستم باشا منصب الصدر الأعظم في منتصف العصر السليماني: «١٤رمضان ٩٥١ هـ/٢٨ نوفمبر ١٥٤٤»، كان نقطة تحول هامة في التاريخ العثماني، وكان بداية التدخل السافر للنساء في شئون الحكم، وقد عُدَّت هذه الحادثة الخطوة الأولى لنهاية مجد الدولة العثمانية، وحوَّلت عصر السلطان سليمان من العصر الذهبي إلى عصر تدهور الدولة وسقوطها. وقد شغل رستم باشا صفحات كثيرة من تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها، وهو لقيط من الدونمة الكروات[2]، ومن المسلَّم به أنه كانت لديه الأهلية والقوة، وربما كانت مهارته في إدارة شئون الدولة أكثر من مهارة إبراهيم باشا، لكن أفعاله وتصرفاته تنسب كثيرا للشرّ أكثر منها للخير. ورستم باشا صورة مكبرة لتدخل الحرم الهمايوني في الحكم، وكان بمثابة آلة في يد كل من خورم قادين زوجة السلطان سليمان القانوني، ومهمرماه ابنته، إذ كان تعيينه بمساعي خورم لدى السلطان بعد موت إياس باشا، وتسببت تصرفاته للدولة أضرارا أكثر مما أفادتها[3].

ورستم باشا هو أول من استخدم نظام شراء مناصب الدولة، وكان يزعم أن هذا الإجراء السقيم سيخدم خزانة الدولة، وهكذا فإنه كان يُظهر العمل السيئ القبيح في صورة العمل الجيد، وأصبح إسناد منصب أمير أمراء أرخروم والدفترار على سبيل المثال مقيدا برسوم قدرها ٣٠٠٠ ذهبية، وجواد، ومن الطبيعي أن يسارع الجميع بتقديم ٥٠٠٠ ذهبية ومجموعة خيول، وليس جوادا واحدا من أجل الفوز بهذا المنصب الرفيع. لقد تولى رستم باشا منصب الصدر الأعظم لمدة ١٥

---

١). عبد الرحمن شرف – تاريخ الدولة العثمانية: صـ ٢٧٥.
٢). تاريخ الدولة العلية العثمانية: صـ ١٨٦.
٣). المصدر السابق: صـ ٢٤٦.

سنة، مقسمة على فترتين، ٩ سنوات في المرة الأولى، «٩٥١هـ/ ١٥٤٤- ٩٦٠هـ/ ١٥٥٣م» ، و٦ سنوات في المرة الثانية، بعد عامين لأحمد باشا، «/ ٩٦٢/ ١٥٥٥م-٩٦٨ هـ/ ١٥٦١م» وكانت خزانته أثناء توليه الصدارة أغنى من خزينة الدولة، وله خزانة احتياطية في سبع نقاط حماية، أما ثروته الخاصة فإنها صارت ملحمة على ألسن الناس، وترك تركة كبيرة جدا. ثم تولى سمير علي باشا الصدارة مكان رستم باشا، وكان رجلا عطوفا لينا، ظل في الصدارة لمدة ثلاث سنوات. ثم جاء بعد ذلك مباشرة محمد باشا الصوقللي، وكان من الشخصيات الممتازة التي تركت عظيم الأثر في العصر السليماني[1].

داماد قــرة إبراهيم باشا: (٧/ ٨/ ١٠٠٤هـ- ... -١١/ ١/ ١٠١٠ هـ)

وهو من أصل بوسني، وهو غير إبراهيم باشا الصدر الأعظم للسلطان سليمان القانوني، والذي هو داماد أيضا، عُيّن في الصدراة ثلاث مرات: الأولى من ٧/ ٨/ ١٠٠٤ هـ، ٤/ ٤/ ١٥٩٦م وحتى ٧/ ٣/ ١٠٠٥هـ، ٢٧/ ١٠/ ١٥٩٦م، والثانية من ١٦/ ٤/ ١٠٠٥ هـ، ٥/ ١٢/ ١٥٩٦م وحتى ٢٥/ ٤/ ١٠٠٦ هـ، ٣/ ١١/ ١٥٩٧م، والأخيرة من ١٠/ ٦/ ١٠٠٧هـ، ٦/ ١/ ١٥٩٩م، وحتى ١١/ ١/ ١٠١٠هـ، ١٠/ ٧/ ١٦٠١م، كل ذلك بدعم مباشر من صفية سلطان، زوجة مراد الثالث، وأم محمد الثالث، وقد تمسكت به، وكان ملازما لها، وزوجته ابنتها عائشة سلطان، وبسبب ضغوطا وتدخلاتها لم تكن سياسته محمودة رغم أنه كان رجل دولة قدير، تولى الصدارة بعد سنان باشا، وعهد إليه بقيادة الجيش، وفتح قلعة قنيثرة: أشهر حصون بلاد النمسا[2].

وبلغ من نفوذ السلطانة على الدولة أنه رغم تجاوز البندقية نصوص المعاهدات المبرمة مع آل عثمان في مناسبات عديدة، ، ورغم قدرتها الكبيرة على الردّ، وإيقاف المتعدّين عند حدودهم فإن الدولة كانت تتحمل ذلك إكراما للسلطانة صفية،

---

١). عبد الرحمن شرف - تاريخ الدولة العثمانية: صـ ٢٨٠.

٢). إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، صـ ١٠٣ .

وإيعازا منها، بل وتستمر في منح الدولة المدللة (البندقية) المنحَ والامتيازات وتجديد المعاهدات، ولم يكن سراً نفوذ هذه السلطانة حتى أنه لما أوشكت الحرب أن تشتعل بين هنري الثالث ملك فرنسا، وفيليب الثاني ملك أسبانيا، وبرغم أن الدولة العثمانية كانت تميل لمساعدة حليفتها فرنسا، التي كانت تتوقع دعما من الأسطول العثماني القوي، بل وقدَّمت طلبا بذلك، وكتبت كاثرين دي ميديسيس التي كانت ولية العهد بفرنسا إلى السلطانة ترجوها تحقيق ذلك، لكنها لم تفعل لأن مصلحة البندقية وقتئذ كانت مع أسبانيا، وهكذا فقد تم تقديم مصلحة البندقية على مصلحة الدولة العثمانية، فلم تساعد فرنسا على عدوتها التقليدية عدوَّة المسلمين آنذاك أسبانيا(١).

لم تتوان صفية سلطان عن الكتابة إلى ملكة انجلترا أليزابيت، وإلى السفير الإنجليزي واعدة إياه بأنها سوف تساعد الإنجليز في النواحي الاقتصادية والتجارية والسياسية، كانت أليزابيت في تلك الفترة ترجو إرسال «٦٠ -٧٠» سفينة حربية عثمانية على الأقل، تجاه الأسطول الأسباني، أرسلت خطابات عدة منفصلة تطلب فيها المساعدة، إلى الوزير الأعظم سنان باشا وسياوش باشا، وإلى زوجة البادشاه صفية خاصكي سلطان، وأرسلت لها هدايا ثمينة، قامت صفية بمراسلة سفير البندقية، وسعت بكل جهدها من أجل عدم محاربة الدولة العثمانية للبندقية، مستخدمة الصدور العظام المعينين بدعمها، وخاصة الداماد إبراهيم باشا بعد ترشيحه لمنصب الصدارة(٢).

ونجـــــــد ماه بيكر كوسم سلطان في فترة لاحقة تتدخل لتعيين أجانب في مناصب عليا، لتحقيق مآرب شخصية، ففي عهد ابنها مراد الرابع، تتدخل مع عصابة الإنكشارية لتعيين وزراء وصدور عظام مفسدين:

١) محمد جميل بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، أسباب انحطاط الامبراطورية العثمانية، ١٣٧٣. صـ ٦٠.
٢). M Cagaty Ulucay, Padsahlarin, Kadinian, ve Kizian, Ankara, 1980 .

داماد خسرو باشا: (١/ ٨/ ١٠٣٧ هـ، ٦/ ٤/ ١٦٢٨م - ٢٩/ ٣/ ١٠٤١هـ، ٢٥/ ١٠/ ١٦٣١م)

كان من أصل بوسني، تزوج من إحدى بنات السلطان محمد الثالث، وارتقى من رتبة أغا للإنكشاريين إلى وزير قبة، ولم يمض على ذلك سوى سنة وأربعة أشهر ليصبح صدرا أعظم، كان ذكيا ماكرا، قوي الشكيمة، طموحا، متآمرا، وقائدا عسكريا قويا، ذهب إلى بلدة طوقات بعد تعيينه واستلامه الصدارة، أنهى مشكلة الأباظة، وأجبر محمد باشا أباظة على التسليم في ٢٣/ ١/ ١٠٣٨هـ، ٢١/ ٩/ ١٦٢٨م بعدها تحرك لحملة إيران، قاد الحروب الإيرانية وفشل في الاستيلاء على بغداد، ينسب المؤرخون إلى خسرو باشا مفاسد كثيرة من الظلم والبطش والإعدامات، أظهر في اسطنبول شخصية الصدر الأعظم الدكتاتور الذي لا يقف شيء أمامه، كان يستند على عصابة الإنكشارية، حين كان خارج اسطنبول كان داماد رجب باشا ينوبه ويوجه الانكشارية نيابة عنه، كانت تحركات هذين الوزيرين خطيرة للغاية كانت تهدد السلطان وتخيفه، وكان واضحا أنهما قادران على فعل أشياء خطيرة حينما يريدون ذلك، عزل خسرو باشا حينما كان في طوقات في ٢٩/ ٣/ ١٠٤١ هـ / ٢٥/ ١٠/ ١٦٣١م، وعين حافظ أحمد باشا الموالي للسلطان، أحدث رجب باشا عصيانا، وألّب ثورة كبيرة في اسطنبول شارك فيها الانكشارية وسباهية القابي قولو عرفت بثورة: «١٩ رجب، سنة ١٠٤١ هـ/ ١٠/ ٢/ ١٦٣٢ م»، كان الهدف منها إسقاط حافظ باشا، الذي قتل أمام السلطان بشكل مفجع، لم تدم صدارته سوى ٣ أشهر ونصف، تحملتها الطغمة بصعوبة، وبضغط الجماعة وإرادة نائبة السلطنة كوسم سلطان التي تتحرك بمؤازرتها عُيِّن داماد رجب باشا صدرا أعظم[1].

داماد رجب باشا: (١٩/ ٠٧/ ١٠٤١ هـ، ١٠/ ٢/ ١٦٣٢م- ٢٨/ ١٠/ ١٠٤١ هـ، ١٨/ ٥/ ١٦٣٢م)

---

١). يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية صـ ٤٧٠.

وكمثال آخر من العناصر الأجنبية، التي لعبت دورا مهماً في سياسة الدولة العثمانية الداخلية والخارجية، الداماد رجب باشا، وهو من أصل بوسني، كان رئيس عصابة الأشقياء كما يسميه السلطان مراد، الذي بدأ يدرك شيئا فشيا ما يدور حوله، وبدأ في محاولة تحمّل مسئولياته، تجاه تحالف نساء القصر وعصابة الانكشارية، أدرك أن المحرك الرئيس لرجب باشا ومجموعة الخارجين عن النظام هو خسرو باشا المعزول، والموجود بطوقات وهو الأقوى والأكثر طموحاً، فأرسل إليه مرتضى باشا للقبض عليه، رفض خسرو أوامر السلطان حين عرضها عليه مرتضى، وهي سابقة خطيرة، حين يعترض وزير على فرمان همايوني، قصف مرتضى باشا خسرو بالمدفع وقطع رأسه، أشهر الرأس المقطوع أمام الشعب في اسطنبول يوم«١٩/٠٨/١٠٤١ هـ، ١٠/ ٣/ ١٦٣٢م»، وحدثت في اليوم التالي ثورة ثانية، ثورة ٢٠ شعبان، بتحريض من رجب باشا الصدر الأعظم، فجمعوا عصابات القابي قولو وشذاذ الآفاق أمام قصر السلطان، وحدثت حوادث نهب وقتل، واضطربت الأمور، طرحت أفكار عزل السلطان وتولية ولي عهده بايزيد، لكن السلطانة كوسم عارضت ذلك بشدة؛ لأنها لم تكن أمه، كان سيفقدها هذا الإجراء كافة صلاحياتها وهواياتها السياسية، وشغفها بحبك الدسائس والمؤامرات إلى جانب مجموعتها، ظهر السلطان للعلن أمام الناس في المواجهة العلنية التي تسمى: آياق ديواني، وأمر بإعدام زوج أخته الصدر الأعظم رجب باشا، في ٢٨/ ١٠/ ١٠٤١هـ، وفشل التمرد، وتجمع المتآمرون ثانية في ميدان السلطان أحمد، عقد السلطان اجتماعا للديوان والعلماء وألقى خطبة طويلة ذكر فيها سوء الأحوال، وتردِّي الأوضاع، وانشغال الجيش والجنود بالسياسة وترك الحرب، وأنه لن يقدم الدولة العلية العثمانية لقمة سائغة لجماعة من الأشقياء واللصوص، وأنه لن يتردد في البطش بمن لم يلتزم بحدوده، ويطيع أوامره، تأثر الشعب من الخطاب وأعلنوا تأييدهم للبادشاه، ذلك أنهم كانوا أكثر تأثرا وضررا من هذه العصابة، وانتهت بهذا فترة نيابة السلطانة كوسم التي دامت قريبا من تسع

سنوات، وانسحبت من السياسة، وهي رهينة الحزن والتأثر في انتظار فرصة أخرى مواتية[1].

وفي عهـــد حفيدها محمد الرابع حين استولت كوسم على منصب نائبة السلطنة، مدعومة بالأغوات الأوجاقيين نجدها أيضا تقوم بتعييناتها في المناصب العليا لدعم وتحقيق مصالحها الشخصية، التي لم تكن سوى بثّ سيطرتها وإعطاء الأوامر وإدارة الدولة، فقد كانت أسيرة حبها للسياسة والسلطة، فقد ضحت بابنها إبراهيم الأول، وساهمت في خلعه من العرش، بل وسلَّمته للجلاد بعد عشرة أيام لقتله؛ لقطع الطريق أمام عودته، فقد كان متهما بتهديدها وإبعادها عن السياسة ونفيها إلى جزيرة رودس؛ للحيولـة دون تدخلاتها المسيئة للدولة، لقد أحكمت خطتها بعناية حتى تعاطف الشعب معها – مخدوعا – لما تعرضت له من مصائب خلع ابنها وقتله بعد ذلك، وبذلك أحكمت سيطرتها على الدولة، وتم تعيين صوفي محمد باشا الصدر الأعظم التركي، الذي يناهز عمره الثمانين سنة، وقتل بعد عدة أيام، وتم تعيين صدر أعظم جديد، خلافا للأصول المتبعة، حيث أنه لم يكن مؤهلا لذلك:

قــرة مــراد آغـــا: (١١/ ٥/ ١٠٥٩ هـ، ٢١/ ٥/ ١٦٤٩ – ٩/ ٨/ ١٠٦٠ هـ، ٥/ ٨/ ١٦٥٠م)

وهو ألباني الأصل، وصل إلى منصب الصدر الأعظم بتأثير السلطانة كوسم وأعوانها الأغوات، رغم أنه كان برتبة (بكلربك/ فريق) العسكرية، ولم يحصل على رتبة وزير بعد، وهو شيء مخالف للأصول العثمانية المتبعة لهذا المنصب الكبير الذي يتمتع صاحبه بصلاحيات واسعة في إدارة شئون الدولة، ويمسك الأختام السلطانية، كان قرة مراد آغـــا أقدر أفراد العصابة، وأشرفهم، كان عسكريا جيدا، غير أن ضغوط المطالب المختلفة من نائبة السلطنة كوسم سلطان، ورغبات أصدقائه غير المشروعة جعلته يعلن استقالته ويقدمها للنائبة كوســـم في ٩ شعبان ١٠٦٠ هـ/ ٥

---

١). يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية صـ ٤٧١.

أغشـــت ١٦٥٠م بعد تهديده بالقتل، واستمرت صدارته سنة وشهرين و١٥ يوما[١].

داماد ملك أحمد باشا: (٩/ ٨/ ١٠٦٠ هـ، ٥/ ٨/ ١٦٥٠ م- ٦/ ٩/ ١٠٦١ هـ، ٢١/ ٨/ ١٦٥١م)

ومن الأجانب الذين وصلوا إلى مناصب عليا في الدولة العثمانية داماد ملك أحمد باشا، وهو صهر كوسم سلطان، ومتزوج من ابنة السلطان أحمد الأول، وهو من الأباظة الشركسيين، ومن أمراء البحرية العثمانية، عمل في اسطنبول وتدرج إلى أن تولى منصب السلحدار، نال لقب الوزارة في حملة فتح بغداد، وصار واليا على ديار بكر وعيَّن محافظا للموصل، كما عيَّن واليا لبغداد عام ١٠٥٨ هـ /١٦٤٨ هـ ، وتم تعيينه في فترة نيابة كوسم سلطان صدرا أعظم للدولة العثمانية في ٨ شعبان ١٠٦٠ هـ، ولم يكن يطلب من الصدر الأعظم في تلك الفترة المظلمة سوى تنفيذ رغبات الأغوات، وأهواء الوالدة السلطانة التي كانت تتعلق بالسلطة وتعشقها بدرجة عجيبة، فاشتدَّت الفتن في عهده وعمّ الخلل في جسم الدولة، من تغلب الأوقاجيين، الذين كانوا يستفيدون من تولية صدور عظام غير أكفاء، فزادوا في الإسراف والسفاهة، وصارت السمة الغالبة في تلك الأيام أخذ المناصب بالرشاوى وسرقة الأموال السلطانية، وازدادت الأحوال سوءا، بزيادة الضرائب على الأهالي، وهو شيء لا يمكن أن يوجد بديل عنه، في ظل توقف الفتوحات والأعمال الإنتاجية في الدولة، وتزايد النفقات والنهب المنظَّم للخزينة السلطانية، بل وصل الأمر إلى أخطر من ذلك بقيام الصدر الأعظم داماد ملك بأعمال خطيرة أيضا، ربما كان مدفوعا إليها تحت ضغط هذه السلطة الفاسدة، وذلك بقتل أصحاب الثروة بغير موجب لمصادرة أموالهم[٢].

---

١). يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية جـ ١: صـ ٤٩٦.

٢) تاريخ الدولة العثمانية العلية: صـ ١٤٢ .

لم يتمكن أحمد باشا الليِّن بعد قرة مراد باشا الصلب، من الوقوف أمام الفوضى، وبعد هذا ثار الشعب الذي نهبته هذه العصابة، وتفاقمت تصرفاتها، فاستقال بعد صدارة دامت: سنة و١٧ يوما(١).

هكذا استعرضنا نماذجاً من التعيينات التي حدثت في هذه الفترة المظلمة التي مرَّت بالدولة العثمانية طيلة قرن من الزمان تقريبا، من أواسط عهد السلطان سليمان القانوني وحتى عهد السلطان محمد الرابع، شهدت تحكم النساء في شئون الدولة بطريقة أو بأخرى، وقد سطَّر المؤرخون في كتبهم كيف سيطر الأجانب حديثو العهد بالإسلام، على وظائف الدولة العليا وعلى الإدارة المركزية في هذه الفترة على حساب المسلمين الذين ولدوا أحرارا(٢).

وقد أكّد المؤرخون أن هذا التدخل كان من أهمّ عوامل التوقف، بل حتى التقهقر في الدولة العثمانية، إذ نتج عن تدخلهنّ وقائع وحوادث سيئة وأليمة في التاريخ العثماني(٣).

ولئن تركز هذا التدخل بصورة أعمق وأظهر منذ عهد حفصة وخورم سلطان، وحتى عهد كوسم وخديجة طورخان، في فترة قاربت القرن من الزمان – منذ أواخر سنوات السلطان سليمان القانوني المتوفى سنة ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م وحتى سنة ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٦م– وهو تاريخ بعيد نسبياً من تاريخ سقوط الدولة العثمانية، حيث عاشت بعد ذلك أكثر من قرنين من الزمان، فإن الدولة لم تستطع التعافي من تلك الضربات القاتلة التي تلقتها في هذه الفترة، ولا ريب أن العِلل الفتَّاكة التي تسري إلى الأجسام في مقتبل العمر، أو في فترة الأَشُدّ واكتمال الصحة والقوة، لا تظهر علاماتها بالضرورة في عهد الشباب، بل قد يتأخر ظهورها إلى أن تتدهور

١) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية جـ ١ صـ ٤٩٧.
٢) في أصول التاريخ العثماني، صـ ١٢٤.
٣) الدولة العثمانية المجهولة، صـ ٢٦٨.

المناعة في سن الكهولة والضعف، ومن هذا القبيل ما أصاب الدولة العثمانية من جراء تهافت السلاطين على التَسرِّي والزواج من الأجنبيات[١].

١) محمد جميل بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، أسباب انحطاط الامبراطورية العثمانية، ١٣٧٣. صـ ١١ .

الخاتمـــــة

الخاتمـــــــة

لقد تبين من خلال هذه الدراسة أن المرأة في الدولة العثمانية رغم أنها كانت تعيش في القصور السلطانية بعيداً عن عامة الناس، تبين أنها قد قامت بأدوارا كبيرة في هذه الدولة، إن على المستوى السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي، أو الديني، ونعني بالمرأة هنا نساء السلاطين الأجنبيات، سواء كنّ أمهات أو زوجات أصليات، أو جواري سُريات، أو بنات، قد وصلن إلى حدّ لعب أدوار قوية، مهدت السبل، وساهمت ضمن العوامل الأخرى إلى ضعف الدولة العثمانية وسقوطها، من خلال تدخلهن في الحكم.

وبإلقاء نظرة عامة على الدراسة تبين لنا ما توصلت إليه من نتائج، نوجزها في الآتي:

☑ أثبتت الدراسة أن المرأة العثمانية المقصودة هنا قد تكون زوجة، وقد تكون أم ولد، والتي كانت هي السمة الغالبة على أمهات السلاطين، حيث كان أغلبهن إن لم يكن كلهن من أصول أجنبية، يونانية وإيطالية، وسلافية، وجرمانية، وحتى فرنسية.

☑ كان العثمانيون يطلقون لفظة «الحريم» على الجناح الخاص الذي يقيم فيه النساء اللاتي يعشن في قصر السلطان، وكان عهد السلطان مراد الثالث أكثر العهود في التاريخ العثماني تناولا للحديث عن الحريم.

☑ بدأت أمهات السلاطين بالتدخل في شئون الحكم ابتداء من القرن الحادي عشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ومن أشهرهنّ حفصة سلطان، زوجة السلطان سليم «ياوز»، وخورم روكسلانا زوجة السلطان العظيم سليمان القانوني، وصفية سلطان زوجة مراد الثالث، وكوسم سلطان زوجة أحمد الأول، وخديجة طورخان زوجة إبراهيم الأول.

☑ كان للمرأة العثمانية دوراً هاما في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والدينية، حيث أنها لعبت دورا كبيرا فيها، سواء تمثل ذلك الدور في بناء المدارس

والمستشفيات أو المساجد وحفر الآبار، أو بناء الأوقاف، ومن أشهرهنّ في هذا المجال حفصة سلطان، وكوسم سلطان.

☑ كان الزواج من الأجنبيات شائعا لدى العثمانيين، وتعدد وتنوع هذا الزواج، وكانت له دواع كثيرة، تمثلت في بادئ الأمر، وفي صدر الدولة إلى زواج من أجل المصالح السياسية العليا للبلد، وقد أثمر نتائجا أدت إلى رسوخ القدم العثمانية في بلاد أوروبا وكسب صداقات بالمصاهرة مع دول قوية، وبعد نضج الدولة وقوتها واتساع سلطانها ظهرت هناك دواع أخرى، وأصبح شائعا أن يقدم للسلطان بعض الجواري الجميلات، من أسرى الحروب أو من الأسواق الرائجة آنذاك، ليصبحن زوجات أو أمهات أولاد فيما بعد، مثل خورم سلطان زوجة السلطان سليمان، ووالدة السلطان سليم.

☑ ظهر جليا تأثير بعض الزوجات على السلاطين، حيث تدخلن مباشرة في شئون الحكم، ومن المفارقات أن يكون عهد السلطان سليمان القانوني، عهد ازدهار السلطنة وتوسعها وقوتها، وفي النصف الثاني منه هو العهد الذي شهد أولى ضربات هذا المعول لإسقاط الدولة، عندما خضع القانوني لرغبات زوجته خورم سلطان، التي بذلت جهودا كبيرة لتولي أحد أبنائها عرش السلطنة، ولذلك تم وضع البذرة الأولى لفتن السراي العثماني، وتدخل نساء ورجال السراي في شئون الدولة، فبدأت الدولة تُحكم من طرف سلاطين ضعاف، حيث رأي أغلب المؤرخين، أن أهم أسباب سقوط الدولة العثمانية هو ضعف السلاطين أنفسهم في الانسياق وراء رغبات وتدخل زوجاتهم الأجنبيات في الحكم .

☑ مثَّل عهد السلطان إبراهيم الأول وابنه محمد الرابع فترة انعكس فيها وبطريقة واضحة التأثير القوي لنساء السلاطين، وظهرت الصراعات بينهنّ، ودخول أغوات الانكشارية في الصراع، فقد تحالفت كوسم سلطان في صراعها مع خديجة طورخان مع الآغاوات وكانوا يدعمونها بصورة مطلقة، وفي مقابل ذلك كان آغا باب السعادة ورجال الحرم الهمايوني يدعمون خديجة، وفي نهاية الأمر تمّ

قتل كوسم سلطان رغم دعم الانكشارية، وانتصرت خديجة طورخان، وكان ذلك نموذج من تلك الصراعات الخفية العلنية التي أسهمت في ضعف أركان الدولة؛ ما أدى في النهاية إلى انهيارها وسقوطها مع عوامل أخرى عديدة.

☑ ظهر في البلاط العثماني مجموعات من الأجانب ذوي التوجه الغربي، وتبوؤوا مناصب عليا فيه، وكان ذلك انعاكسا جلياً لتدخل النساء وهيمنتهنّ على السلاطين، مثل إبراهيم باشا، الذي عينه السلطان سليمان القانوني، وبدعم قوي من والدته حفصة سلطان، وقد اكتسب إبراهيم شهرة كبيرة في الغرب، ومثّلوه بحنّبعل، وقيصر، والأسكندر، وقد أخلص في الحكم، إلا أنه وبعد ذهابه إلى مصر ونجاحه في مساعيه، كثرت منه الشكاوي وارتاب السلطان في أمره، وفقَد دعمه الخفي القوي بموت والدة السلطان حفصة، أما رستم باشا الكرواتي الأصل والذي كان مدعوما من قبل روكسلانا زوجة القانوني الأثيرة لديه، فقد كان من أكثر الصدور العظام تأثيرا سلبيا من خلال إفساد النظام الإداري للدولة، واستحداثه نظام شراء المناصب بديلا عن تعيين الأكْفَاء الذي كان متبعاً، وذلك طيلة خمسة عشر سنة كاملة.

وأخيرا، وليس آخرا، توصلنا رغم شحّ المصادر التي تناولت حياة الحريم السلطاني، أن المرأة العثمانية من خلال تدخلها في شئون الحكم ساهمت في إضعاف سلطة السلاطين، وتدني همتهم نتيجة تأثير نساء القصر وفساد المحظيات، فأعرض السلاطين عن قيادة الجيوش ومكابدة الحروب بأنفسهم، وهو من أكثر ما تكرهه النساء المترفات وتعارضه[1]، فهذا عبد الملك بن مروان رحمه الله، أقوى الخلفاء الأمويين، فطن بحنكته ودهائه إلى ذلك، فقد كان يوجه إلى غريمه القوي مصعب بن الزبير جيشاً بعد جيش فيُهزَمون، فلما طال ذلك عليه واشتدّ غمه، أمر الناس فعسكروا ودعا بسلاحه فلبسه، فلما أراد الركوب قامت إليه زوجته عاتكة، فقالت: يا أمير المؤمنين لو أقمت وبعثت إليه لكان الرأي، فقال: ما إلى ذلك من

---

١). الدولة العثمانية المجهولة- مصدر سابق: صـ ٢٦٧.

سبيل، فلم تزل تمشي معه وتكلمه، فلما يئست منه رجعت فبكت وبكى حَشَمُها معها، فلما علا الصوت، رجع إليها عبد الملك فقال: وأنت أيضا ممن يبكي، قاتل الله كُثيِّراً[١]، كأنه كان يرى يومنا هذا حيث يقول:

إذا ما أراد الغـزو لم تثن هــمــه حصان عليها نظم درّ يزينهــــا

نهته فلما لــم تر النهــي عاقــه بكت فبكى مما شجاها قطينهــا

وبالطبع عزم عليها بالسكوت، وخرج[٢]، هذا والدولة العثمانية بخاصة نشأت بقوتها الهجومية وقِيادةِ سلاطينها الغزاة الأقوياء، ففي عهد السلطان أحـمد الثالث عام ١١٢٣ هـ/ ١٧١١م، عندما حاصرت الجيوش العثمانية قيصر روسيا بطرس الملكة كاترينا، وأوقفت الجيش الروسي على حافة الهزيمة، قامت الملكة بإغراء القائد العثماني الصدر الأعظم بلطه جي محمد باشا، واستمالته بالجواهر والذهب؛ فرفع الحصار عنهما، ووقَّع معاهد صلح مع الدولة الروسية عرفت باتفاقية «بروت»، وفوَّت فرصة ثمينة للقضاء على رأس الدولة التي كادت للعثمانيين، وقامت بأدوار كبيرة جداً في إضعاف وزوال دولتهم[٣]، وهو شيء لم يكن ليقع، أو لتفكر فيه الملكة لو أن السلطان أحـمد كان قائدا للجيش بنفسه، كما هو شأن أجداده وأسلافه في مباشرة قيادة المعارك الحاسمة، وحبِّهم للجهاد وغزو الكفار؛ نُقل عن السلطان بايزيد يلدرم أنه لما أطلق سراح الكونت الفرنسي دي نيفر، وكان قد أقسم على أن لا يعود لمحاربته، قال له السلطان: أنت في حل من هذا اليمين، والرجوع لمحاربتي؛ إذ لا شيء أحب إليَّ من محاربة جميع مسيحيي أوروبا والانتصار عليهم[٤]،

---

١). ويعني: الشاعر المعروف كثيِّر بن عبد الرحمن بن الأسود الخزاعي، المدني، المعروف بكثير عزّة.

٢). انظر: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله عبد المحسن التركي ، الناشر: هجر للطباعة والنشر – الجيزة، الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ: (جـ١٣/ صـ ٢٦).

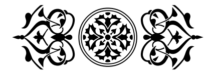
وأبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، الأمالي في لغة العرب، الناشر دار الكتب العلمية، سنة النشر ١٣٩٨هـ ، بيروت: والأمالي في لغة العرب: (جـ١/ صـ ١٥).

٣). الدولة العثمانية المجهولة: صـ ٣٣٩. وانهيار الدولة العثمانية صـ ٨٢.

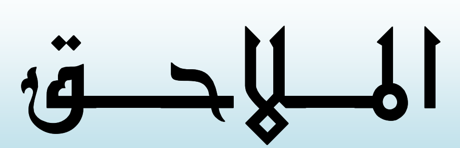
٤). محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية: جـ١/ صـ ١٤٤.

ولعل من المضاعفات السيئة أيضا لهذا التدخل أن بعض المؤرخين قرَّر أن عزوف السلاطين العثمانيين - بعد السلطان سليمان القانوني - وتخليهم عن عادة قيادة الجيوش المتوجهة للجهاد والغزو بأنفسهم، ومكوثهم في القصر، كان نابعاً من التوَجّس من تلك الدسائس والمؤمرات التي تحاك من طرف نساء القصر، والتي كانت من قَبِيل قتل السلطان سليمان القانوني لولي عهده الأمير مصطفى إثر خدعة محكمة[١].

مثَّل السلطان العثماني «البادشاه»، أو «الخاقان»، رمز الدولة وسلطتها وهيبتها، وكان القائد الأعلى للجيش، ومضرب المثل في الشجاعة والإقدام، طبَّقت شهرته الآفاق، وعليه فإن أيَّ تأثير على هيبة السلطان وقوته يحدث خللا كبيراً في نظام الدولة، ولعلّ أسوأ عواقب هذه التدخلات السافرة من نساء السلاطين وأتباعهم أن شعَر العالم العثماني كله بصدمة واهتزاز في أركان الدولة، جراء تدني هيبة السلطان، وانتقلت من البلاط إلى العاصمة ثم إلى الولايات، وفي النهاية أحسَّت بها الدول الأجنبية، فأثَّر على سمعة وهيبة الدولة العلية العثمانية، دولة الجهاد والغزو والحروب، وأدَّى ضمن عوامل أخرى إلى ضعف الدولة وتلاشي سلطتها، وإلغاء الخلافة العثمانية نهائيا في ٢٧ رجب ١٣٤٢ هـ / ٣ مارس ١٩٢٤م.



١). الدولة العثمانية المجهولة، مصدر سابق: صـ ٥١٥.


الملاحق

كشف توضيحي للملاحق المرفقة بالبحث والمراجع المستخدمة

الملحـــق الأول	قائمة بأسماء السلاطين العثمانيين، وتواريخ الولادة والوفاة وبداية تولي السلطنة ونهايتها، بالهجري والميلادي[١].
الملحــق الثـــاني	قائمة بأسماء أمهات السلاطين وزوجاتهم[٢]
الملحـــــق الثالث	قائمة ببيان بعض المصطلحات العثمانية الواردة في البحث[٣].
الملحـــــق الرابع	خرائــط وصــور عثمانيـــــة[٤]
الملحـــق الخامس	نماذج من الكتب العثمانية والأجنبية التي رجعتُ إليها في البحث



١). المصـــادر: خليل إيناليجيك، تاريخ الدولة العثمانية، مصدر سابق: صـ (٣١٣-٣١٦). في أصول التاريخ العثماني م سابق، صـ(٣١٩-٣٢٠)، إسماعيل أحمد ياغي/ مصدر سابق: صـ (٢٦١-٢٩٤) بروكلمان الأتراك العثمانيون (الملاحق).

٢). المصـــادر: بروكلمان الأتراك العثمانيون، ترجمـــة بثينـــة فارس، دار العلم للملايين، بيروت. السلاطين العثمانيون ، عبد القادر دهده أوغلو، تعريب محمد خان، دار سحنون للنشر والتوزيع -تونس ١٩٩٨/ ١٩٩٩ (الملاحق). Y. Oztuna (1074-1990) Devletler ve Hanedanlar Turkiye.

٣). المصادر: خليل إيناليجيك، تاريخ الدولة العثمانية، صـ (٣٣٣-٣٤٤). سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤٢١هـ، (صفحات عديدة حسب المواد). شمس الدين سامي، قاموس تركي: (مختلف صفحات القاموس).

٤). المصادر: محددة بحذاء كل صورة أو خريطة.

الملحق الأول: السلاطين العثمانيون

م	السلطان العثماني	تاريخ الولادة		تاريخ الوفاة		بداية الحكم		نهاية الحكم		ملاحظات
		«م»	«هـ»	«م»	«هـ»	«م»	«هـ»	«م»	«هـ»	
١	عثمان بن أرطغرل	١٢٥٨	٦٥٦	١٣٢٦	٧٢٦	١٢٩٩	٦٩٨	١٣٢٦	٧٢٦	باسمه عرفت السلطنة
٢	أورخان غازي	١٢٨٤	٦٨٣	١٣٥٩	٧٦٠	١٣٢٦	٧٢٦	١٣٥٩	٧٦٠	ابن عثمان
٣	مراد الأول	١٣٢٦	٧٢٦	١٣٨٩	٧٩١	١٣٥٩	٧٦٠	١٣٨٩	٧٩١	ابن أورخان
٤	بايزيد الأول	١٣٥٧	٧٥٨	١٤٠٣	٨٠٥	١٣٨٩	٧٩١	١٤٠٢	٨٠٥	يلدرم أو الصاعقة، ابن مراد
٥	محمد الأول السيد	١٣٨٩	٧٩١	١٤٢١	٨٢٤	١٤٠٢	٨٠٥	١٤٢١	٨٢٤	ابن بايزيد،
٦	مراد الثاني	١٤٠٢	٨٠٤	١٤٥١	٨٥٥	١٤٢١	٨٢٤	١٤٤٤	٨٤٨	المرة الأولى، وهو ابن محمد ١
٧	محمد الثاني الفاتح	١٤٣٢	٨٣٥	١٤٨١	٨٨٦	١٤٤٤	٨٤٨	١٤٤٦	٨٥٠	المرة الأولى، فاتح القسطنطينية
٦	مراد الثاني	١٤٠٢	٨٠٤	١٤٥١	٨٥٥	١٤٤٦	٨٥٠	١٤٥١	٨٥٥	المرة الثانية بعدما استخلف ابنه

٧	محمد الثاني	١٤٣٢	٨٣٥	١٤٨١	٨٨٦	١٤٥١	٨٥٥	١٤٨١	٨٨٦	المرة الثانية، وهو ابن مراد ٢
٨	بايزيد الثاني	١٤٤٧	٨٥١	١٥١٢	٩١٨	١٤٨١	٨٨٦	١٥١٢	٩١٨	ابن محمد الفاتح
٩	سليم الأول	١٤٦٦	٨٧٠	١٥٢٠	٩٢٦	١٥١٢	٩١٨	١٥٢٠	٩٢٦	خادم الحرمين الشريفين، ابن بايزيد ٢
١٠	سليمان الأول	١٤٩٥	٩٠٠	١٥٦٦	٩٧٤	١٥٢٠	٩٢٦	١٥٦٦	٩٧٤	سليمان القانوني، ابن سليم ١
١١	سليم الثاني	١٥٢٤	٩٣٠	١٥٧٤	٩٨٢	١٥٦٦	٩٧٤	١٥٧٤	٩٨٢	ابن سليمان القانوني
١٢	مراد الثالث	١٥٤٦	٩٥٣	١٥٩٥	١٠٠٣	١٥٧٤	٩٨٢	١٥٩٥	١٠٠٣	ابن سليم ٢
١٣	محمد الثالث	١٥٦٦	٩٧٣	١٦٠٣	١٠١٢	١٥٩٥	١٠٠٣	١٦٠٣	١٠١٢	ابن مراد ٣
١٤	أحـمد الأول	١٥٩٠	٩٩٨	١٦١٧	١٠٢٦	١٦٠٣	١٠١٢	١٦١٧	١٠٢٦	ابن محمد ٣
١٥	مصطفى الأول	١٥٩١	٩٩٩	١٦٣٩	١٠٤٩	١٦١٧	١٠٢٦	١٦١٨	١٠٢٧	للمرة الأولى، وهو ابن محمد ٣
١٦	عثمان الثاني	١٦٠٤	١٠١٣	١٦٢٢	١٠٣١	١٦١٨	١٠٢٧	١٦٢٢	١٠٣١	ابن أحـمد ١
١٥	مصطفى الأول	١٥٩١	٩٩٩	١٦٣٩	١٠٤٩	١٦٢٢	١٠٣١	١٦٢٣	١٠٣٢	للمرة الثانية
١٧	مراد الرابع	١٦٠٩	١٠١٨	١٦٤٠	١٠٤٩	١٦٢٣	١٠٣٢	١٦٤٠	١٠٤٩	ابن أحـمد ١
١٨	إبراهيم الأول	١٦١٥	١٠٢٤	١٦٤٨	١٠٥٨	١٦٤٠	١٠٤٩	١٦٤٨	١٠٥٨	فاتح جزيرة كريت، ابن أحـمد ١
١٩	محمد الرابع	١٦٤٢	١٠٥٢	١٦٩٣	١١٠٤	١٦٤٨	١٠٥٨	١٦٨٧	١٠٩٩	ابن إبراهيم ١

٢٠	سليمان الثاني	١٦٤٢	١٠٥٢	١٦٩١	١١٠٢	١٦٨٧	١٠٩٩	١٦٩١	١١٠٢	ابن إبراهيم ١
٢١	أحـمد الثاني	١٦٤٣	١٠٥٣	١٦٩٥	١١٠٦	١٦٩١	١١٠٢	١٦٩٥	١١٠٦	ابن ابراهيم ١
٢٢	مصطفى الثاني	١٦٦٤	١٠٧٤	١٧٠٣	١١١٥	١٦٩٥	١١٠٦	١٧٠٣	١١١٥	ابن محمد ٤
٢٣	أحـمد الثالث	١٦٧٣	١٠٨٤	١٧٣٦	١١٤٩	١٧٠٣	١١١٥	١٧٣٠	١١٣٤	ابن محمد ٤
٢٤	محمود الأول	١٦٩٦	١١٠٧	١٧٥٤	١١٦٧	١٧٣٠	١١٣٤	١٧٥٤	١١٦٨	ابن مصطفى ٢
٢٥	عثمان الثالث	١٦٩٦	١١٠٧	١٧٥٧	١١٧١	١٧٥٤	١١٦٨	١٧٥٧	١١٧١	ابن مصطفى ٢
٢٦	مصطفى الثالث	١٧١٧	١١٢٩	١٧٧٤	١١٨٧	١٧٥٧	١١٧١	١٧٧٤	١١٨٧	ابن أحـمد ٣
٢٧	عبد الحميد الأول	١٧٢٥	١١٣٧	١٧٨٩	١٢٠٣	١٧٧٤	١١٨٧	١٧٨٩	١٢٠٣	ابن أحـمد ٣
٢٨	سليم الثالث	١٧٦١	١١٧٤	١٨٠٨	١٢٢٣	١٧٨٩	١٢٠٣	١٨٠٧	١٢٢٢	ابن مصطفى ٣
٢٩	مصطفى الرابع	١٧٧٩	١١٩٣	١٨٠٨	١٢٢٣	١٨٠٧	١٢٢٢	١٨٠٨	١٢٢٣	ابن عبد الحميد ١
٣٠	محمود الثاني	١٧٨٥	١١٩٩	١٨٣٩	١٢٥٥	١٨٠٨	١٢٢٣	١٨٣٩	١٢٥٥	ابن عبد الحميد ١
٣١	عبد المجيد الأول	١٨٢٣	١٢٣٨	١٨٦١	١٢٧٧	١٨٣٩	١٢٥٥	١٨٦١	١٢٧٧	ابن محمود ٢
٣٢	عبد العزيز الأول	١٨٣٠	١٢٤٥	١٨٧٦	١٢٩٣	١٨٦١	١٢٧٧	١٨٧٦	١٢٩٣	ابن محمود ٢
٣٣	مراد الخامس	١٨٤٠	١٢٥٦	١٩٠٤	١٣٢٢	١٨٧٦	١٢٩٣	١٨٧٦	١٢٩٣	ابن عبد الحميد ١

٣٤	عبد الحميد الثاني	١٨٤٢	١٢٥٨	١٩١٨	١٣٣٦	١٨٧٦	١٢٩٣	١٩٠٩	١٣٢٧	ابن عبد المجيد ١
٣٥	محمد الخامس	١٨٤٤	١٢٦٠	١٩١٨	١٣٣٦	١٩٠٩	١٣٢٧	١٩١٨	١٣٣٦	رشاد، ابن عبد المجيد ١
٣٦	محمد السادس	١٨٦١	١٢٧٧	١٩٢٦	١٣٤٤	١٩١٨	١٣٣٦	١٩٢٢	١٣٤١	وحيد الدين، ابن عبد المجيد ١
٣٧	عبد المجيد الثاني	١٨٦٨	١٢٨٥	١٩٤٤	١٣٦٣	١٩٢٢	١٣٤١	١٩٢٤	١٣٤٢	كانت خلافة صورية، ابن عبد العزيز ١



الملحق الثاني

زوجات السلاطين العثمانيين وأمهاتهم

م	السلطان	بداية الحكم (هـ)	نهاية الحكم (هـ)	أم السلطان	زوجاته أو جواريه
١	**عثمان بن أرطغرل**	٦٩٨	٧٢٦	خاتمة خاتون	مال خاتون
٢	**أورخان غازي**	٧٢٦	٧٦٠	مال خاتون	نيوليفر خاتون
٣	**مراد الأول**	٧٦٠	٧٩١	نيوليفر خاتون	غولي سي سك خاتون
٤	**بايزيد الأول**	٧٩١	٨٠٥	غولي سي سك	دولت خاتون
٥	**محمد الأول السيد**	٨٠٥	٨٢٤	دولت خاوتن	أمينة خاوتون
٦	**مراد الثاني**	٨٢٤	٨٥٥	أمينة خاتون	خوما خاتون

٧	**محمد الثاني الفاتح**	٨٤٨	٨٨٦	خوما خاوتون	أمينة البحر غول خاتون
٨	**بايزيد الثاني**	٨٨٦	٩١٨	أمينة البحر غول خاوتون	نكار خاتون. سترين خاتون بنت عبد الله كل روح خاتون. بليل خاتون : بنت عبد الله حسن شاه خاتون: بنت نصوحي كل بهار خاتون: بنت عبد الصمد فرح شاه خاتون. عائشة خاتون بنت علاء الدين البحر سلطان
٩	**سليم الأول**	٩١٨	٩٢٦	البحر سلطان غول	حفصة خاتون : بنت عبد المؤمن عائشة خاتون بنت مسكولي الجارية خديجة، والجارية فاطمة

١٠	**سليمان الأول**	٩٢٦	٩٧٤	عائشة حفصة سلطان	خورّم خاصكي سلطان. ماه دوران قادين : بنت عبد الله. كل فم خاتون فلانه خاتون : بنت عبد الله.
١١	**سليم الثاني**	٩٧٤	٩٨٢	خورم خاصكي سلطان	عفيفة نوربانو والدة سلطان
١٢	**مراد الثالث**	٩٨٢	١٠٠٣	عفيفة نوربانو	صفية والدة سلطان. شمس رخسار خاصكي. شاه خويان خاصكي. ياز برور خاصكي. شاه خويان قادين.
١٣	**محمد الثالث**	١٠٠٣	١٠١٢	صفية سلطان	خندان والدة سلطان. ملانة والدة سلطان. ملانه خاصكي.

١٣	**محمد الثالث**				ملانة خاصكي.
١٤	**أحمد الأول**	١٠١٢	١٠٢٦	خندان والدة سلطان.	خديجة ماه فيروز سلطان ماه بيكر كوسم والدة سلطان سايسته خانم
١٥	**مصطفى الأول**	١٠٢٦	١٠٣٢	خاندان سلطان	لم يعقد نكاحا
١٦	**عثمان الثاني**	١٠٢٧	١٠٣١	ماه فيروز خديجة سلطان	عقيلة رقية هانم بنت شيخ الإسلام عائشة هانم حفيدة برتو باشا
١٧	**مراد الرابع**	١٠٣٢	١٠٩٩	ماهبيكر كوسم والدة سلطان	عائش خاصكي سلطان
١٨	**إبراهيم الأول**	١٠٤٩	١٠٥٨	ماهبيكر كوسم والدة سلطان	خديجة طورخان والدة سلطان. صالحة دل آشوب والدة سلطان. خديجة معزز سلطان.

١٨	**إبراهيم الأول**				هما شاه سلطان تلله خاصكي عائشة سلطان ماهي أنور سلطان شيوه كار سلطان
١٩	**محمد الرابع**	١٠٥٨	١٠٩٩	طورخان خديجة سلطان	باه ياره أمه الله رابعة كل نوش عفيفة قادين. كلنار قادين. كانيه خاصكي سيوش خاصكي
٢٠	**سليمان الثاني**	١٠٩٩	١١٠٢	صالحة ديلاصوب سلطان	خديجة قادين. بيزاد قادين. إيواز قادين. سركلون قادين.

٢٠	**سليمان الثاني**				شهسوار قادين. زينب قادين.
٢١	**أحمد الثاني**	١١٠٢	١١٠٦	خديجة موازيز سلطان	رابعة قادين
٢٢	**مصطفى الثاني**	١١٠٦	١١١٥	باه ياره ربيعة كل نوش	عالي جناب قادين. عفيفة قادين. هما شاه قادين. حفصة سلطان. صالحة سبكاتي والدة سلطان. شهسوار والدة سلطان. خديجة قادين. حنيفة خاتون. فاطمة شاهين خاتون.
٢٣	**أحمد الثالث**	١١١٥	١١٣٤	أمةالله ربيعة كل نوش	أمة الله قادين.

٢٣	**أحمد الثالث**				أمة الله قادين. أم كلثوم قادين. حاتم قادين. حسن شاه قادين. خديجة قادين. رابعة شرمي والدة سلطان زينب قادين الحاجة عائشة بهري قادين مصلى قادين مهر شاه قادين أمينة مهري شاه قادين فطمة هما شاه قادين كلثن قادين

٢٣	أحمد الثالث				خرّم قادين ميلي قادين رقية قادين نظيفة قادين صادق قادين حنيفة قادين نجات قادين شاهين قادين شايستة قادين
٢٤	محمود الأول	١١٣٤	١١٨٦	صالحة سبكاتي والدة سلطان	خديجة رامي قادين. الحاجة: عائشة قادين. الحاجة: وردناز قادين. الحاجة عالي جناب باش قادين.

٢٤	محمود الأول				حاتم قادين. راضية قادين. فهمي هانم. حيابه هانم. سياسة هانم. سرى هانم.
٢٥	عثمان الثالث	١١٨٦	١١٧١	شهسوار والدة سلطان.	ذوقي قادين. ليلى قادين. مرخنده أمينة قادين.
٢٦	مصطفى الثالث	١١٧١	١١٨٧	أمينة ميهرماه سلطان	عين الحيات قادين. مهرشاه والدة سلطان. رفعت قادين.

٢٦	مصطفى الثالث				عائشة عادل شاه قادين. فهمي (فهيمة) قادين. بينار قادين
٢٧	عبد الحميد الأول	١١٨٧	١٢٠٣	رابيعة شرمي سلطان	حاتم قادين. الحاجة: خديجة روح شاه قادين نقش دل والدة سلطان. هما شاه قادين. مثلى ناياب قادين. نور أثر قادين. عائشة سينة برور والدة سلطان بناز قادين. دليزير قادين. ماه تابه قادين.

٢٧	**عبد الحميد الأول**				مهريان قادين. فاطمة شب صفا قادين. معتبر قادين. تورس قادين. الحاجة ورد ناز قادين نكهت سزا هانم. عائشة هان.
٢٨	**سليم الثالث**	١٢٠٣	١٢٢٢	ميهرشاه والدة سلطان	آفتاب قادين. حُسنِ ماه قادين. زيبِ فر قادين. نفعِ زاد قادين. نور شمس قادين. عينِ ذصفا قادين.

٢٨	**سليم الثالث**				دمِ خوش قادين. عُنجة ثكار قادين. هما شاه قادين. طبعِ صفا قادين. محبوبة قادين. رَفت (رأفت) قادين. رابعة قادين. فاطمة فرع جهان هانم. مهربان هانم. مريم هانم.
٢٩	**مصطفى الرابع**	١٢٢٢	١٢٢٣	عائشة سينة برور	شوقِ نور قادين. سيارة قادين. دِليزير قادين.

٢٩	مصطفى الرابع				بَيكِ دل قادين.
٣٠	محمود الثاني	١٢٢٣	١٢٥٥	نقش دل والدة سلطان.	آشوب جان قادين. بيرويز ملك قادين. زرنكار قادين. وصلات قادين. مثلى ناياب قادين. نورتاب قادين. الحاجة برتو ياله نوفدان قادين ورد جنان قادين. بزم عالم والدة سلطان. الحاجة خوش يار قادين. برتونيال والدة سلطان. عالي جناب قادين.

٣٠	**محمود الثاني**				قمري قادين. فاطمة قادين. ابرو فتار قادين. حُسنِ مالك هانم. ليبريز فلك هانم. زينِ فلك هانم. تريال هانم.
٣١	**عبد المجيد الأول**	١٢٥٥	١٢٧٧	بزمي عالم والدة سلطان	شوق افزا والدة سلطان دزد دل قادين. كُل جمال والدة سلطان خوش يار قادين. رحيمة برستو والدة سلطان. كلِ ستو (كولستان) والدة سلطان

٣١	**عبد المجيد الأول**				ورد جنان قادين. بزمارا (بزمي) قادين. ثروت سزا قادين. تيرمز غان والدة سلطان. ماهي تاب قادين جيلان يار هانم نالان دل هانم زين ملك هانم نسرين هانم ناوَك مثال هانم نركس هانم نُكهت سزا هانم عائشة سر فراز هانم شايستة هانم

٣١	عبد المجيد الأول				يلديز هانم (محظية) صافي درون (محظية) حُسنِ جانان (محظية)
٣٢	عبد العزيز الأول	١٢٧٧	١٢٩٣	برتونيال والدة سلطان.	أدادل قادين. كوهري قادين. نشترك (نسرين) قادين. خيران دل والده سلطان دري نوقادين.
٣٣	مراد الخامس	١٢٩٣	١٢٩٣	شوق افزا والدة سلطان	أل رو موهبة قادين. رفتار دل قادين. شايان قادين. ميل ثروت قادين.

٣٣	مراد الخامس				رسان هانم. جوهر ريز هانم. نو در هانم. رمش ناز هانم. فلزتن هانم. وصال نو هانم : محظية.
٣٤	عبد الحميد الثاني	١٢٩٣	١٣٢٧	تيرمز غان والدة سلطان.	نازك أدا قادين. بدر قلك قادين. صافي نازنور افسون قادين. بيدار قادين. دل بسنت قادين. مزيدة مستان قادين أمثال نور قادين

٣٥	**عبد الحميد الثاني**				عائشة دستِ زر مشفقة قادين ساز كار هانم بيوستة هانم فاطمة بسندة هانم بهيجة هانم صبيحة (صالحة ناجية) هانم دردانة هانم: محظية جالي بوص هانم: محظية نازلي يار هانم: محظية
٣٥	**محمد الخامس رشاد**	١٣٢٧	١٣٣٦	كُل جمال والدة سلطان	قام رَس قادين. مِهرِا لكيز قادين. در عدن قادين. نازبرور قادين.

٣٥	**محمد الخامس رشاد**				دل قريب قادين.
٣٦	**محمد السادس**	١٣٣٦	١٣٤١	كولستان منيرة والدة سلطان	أمينة نازك أدا قادين. انشراح قادين. شادية مودّت قادين. نحات قادين. نعمت نوزاد هانم. نواره قادين.
٣٧	**عبد المجيد الثاني**	١٣٤١	١٣٤٢	خيران دل والده سلطان	شهسُوار ، السيدة الأولى خير النساء، الثانية عطية مَهِيستي، الثالثة بهروز، الرابعة

الملحق الثالث: مصطلحـــات و مفاهيـــم عثمانيـــة

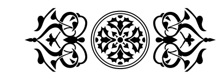
الانكشارية	هو الجيش النظامي المتفرغ للحرب، والمكون من محترفين مدربين، كونتهم الدولة العثمانية من الأسرى أبناء المسيحيين الذين فقـدوا آباءهم، فأخذهم العثمانيون وربوهم على الولاء للإسلام والدولة العثمانية، وقد اشتُقت كلمة إنكشاري من كلمة تركية معناها: الجندي الجديد.
الأسطول	كلمة يونانية استعملت في العهد العثماني تطلق على مجموعة من السفن الحربية
الأسطي	الصانع الحرفي الماهر
الأفنـدي	لقب للدلالة على الإنسان المتعلم والمثقف.
الأناضول	هي تركيا أو تركستان أو آسيا الصغرى .
آغا	رئيس، سيد، قائد الجيش أو ضابط القوات البرية
الباب العالي	مركز الحكم في الدولة العثمانية
الباشا	الوزير
الباي	من كبار موظفي الدولة

البوستانجي	إحدى فرق الحرس العثماني للسلطان.
تكيـــة	محفل وسكن خيري للمتصوفة
تيمار	إقطاع يدر سنويا أقل من عشرين ألف آقجة
الجلالي	قطاع الطرق والمتمردين ضدّ الدولة العثمانية في الأناضول خلال القرن السادس عشر
الخزناجي	مسؤول المالية، يسلم المداخيل و يشرف على مراقبة أمور السكة.
الدفتردار	المكلف بتسجيل مصادر خزينة الدولة.
الدولة العلية	الدولة العثمانية.
الديوان	كلمة فارسية استُعمِلت في العهد العثماني، و تعني سجل أو دفتر.
السباهية	فرقة عسكرية عثمانية، و هي فرقة من الفرسان تأتي في الدرجة الثانية بعد الإنكشارية
السلحدار	أمين سيوف السلطان
الصدر الأعظم	كبير الوزراء في الدولة العثمانية، وكانت له صلاحيات واسعة.
الفرمان	القرار
المابيـــن	هو القسم الواقع في القصر السلطاني ما بين الحرم، وما بين الدوائر الخارجية.

المارستانات	المستشفيات التابعة لرجال الدين المسيحيين
المكتباجي	من مساعدي الخزناجي، مكلف بسجلات الدولة
إقبال	مستولدة
إيـــالة	ولاية تابعة للدولة العثمانية
إينجي قادين	الزوجة الثانية
أوسطي	الخبيرة
باش قادين	كبيرة الزوجات
باش دفتر	رئيس الكتاب
بايلك	مقاطعة أو عمالة
برنجي قادين	الزوجة الأولى
بلطجي	جلاد، سياف
جلبي	لقب كان يطلق على العلماء، ثم أصبحت فيما بعد اللقب الرسمي للأمراء
خاصكيه	حرس الباشا

خان	لفظ تركي قديم بمعنى السيد
خزينة دار	المسئولة عن خزينة السلطان
دار السعادة أغاسي	آغا دار الحريم
دار السلطان	مقاطعة إدارية تشمل العاصمة و ضواحيها
سراي	القصر
سنجق	الوحدة الإدارية الأساسية في الدولة العثمانية
طغراء	التوقيع الرسمي للسلطان، الذي تختم به الوثائق الرسمية
عتق نامه	صك العتق
عجمي	المستجدة
قابي قولو	عبيد السلطان، أو الدوشرمة، الذين يعملون في الجيش لخدمة البلاط
قادين	لقب تفضيلي لزوجة السلطان
قادين أفندي	السيدة الزوجة
قالفة	نائبة

كاتبة قالفة	مسئولة التشريفات
كتخدا	وكيل أعمال
كوزده	محظية
كيا خادين	وكيلة الحرم
هـمايون، هـمايوني	هي كلمة تعظيم خاصة بالسلاطين العثمانيين، وكانت تستخدم مضافة للمتعلقات الخاصة بسلاطين الدولة العثمانية
والدة الآيي	موكب السيدة والدة السلطان
والدة سلطان	والدة السلطان



الملحق الرابع: خرائط وصور عن الدولة العثمانيـــة

الأناضول قبل قيام الدولة العثمانية، وتظهر على الخريطة بعض المناطق التي تكرر ذكرها في البحث



ياغي – الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث – خرائط

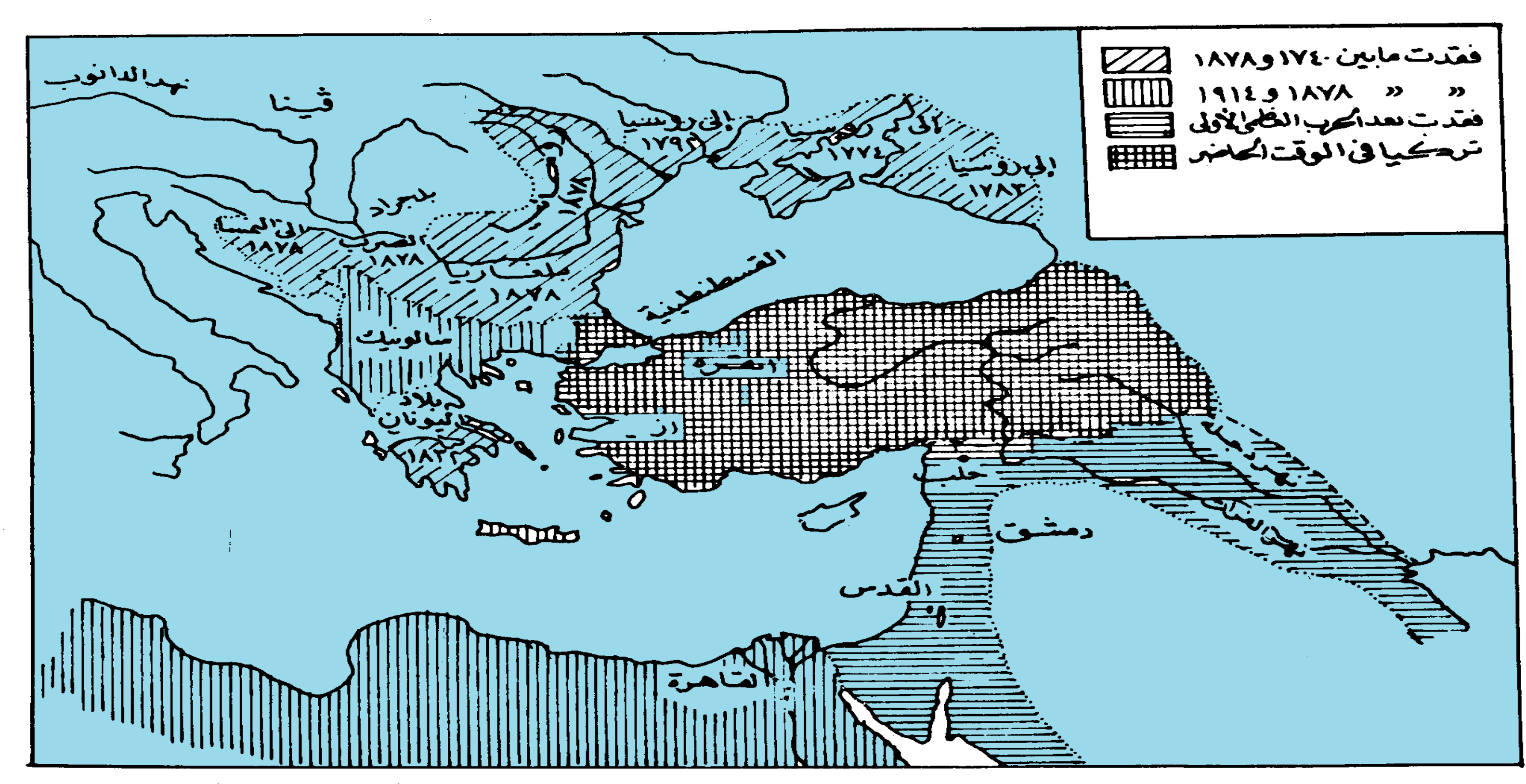
الدولة العثمانية في أوج اتساعها

الدولة العثمانية في أوج اتساعها، باللون الأخضر، وقد بسطت سلطانها في آسيا وأوروبا وإفريقيا

(١٠٩٠ هـ/ ١٦٨٠ م)

altareekh.com/Pages/Subjects

ضعف الدولة العثمانية وتلاشي أراضيها



المصدر: أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، خريطة

خريطة توضح موقع العاصمة العثمانية: (اسطنبول - القسطنطينية)، بين قارتي آسيا وأوروبا، ومضيقي البوسفور والدردنيل

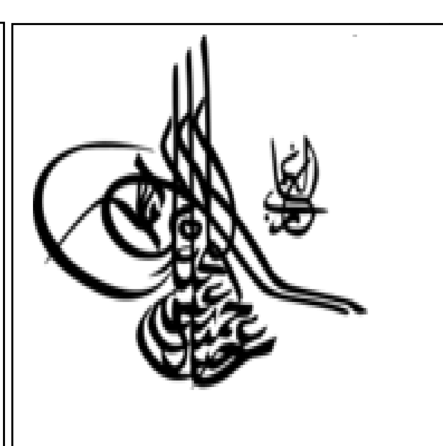
صـور ومشاهد عثمانيــة

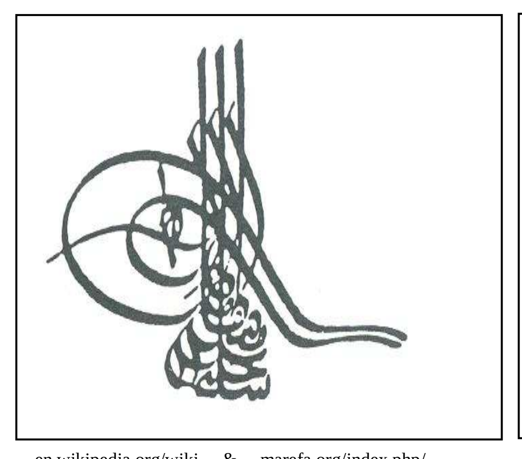
قصر طوب قابي، Topkapi، باسطنبول، المطل على مضيق البوسفور، المقر الرئيس للسلاطين في الفترة من ٩٦٨-١٢٧٢ هـ، أصبح اليوم معلما من المعالم الأثرية السياحية في المدينة»



en.wikipedia.org/wiki/File:Topkapi_Palace_Seen_From_Harem.JPG

نماذج من طغراء السلاطين العثمانيين

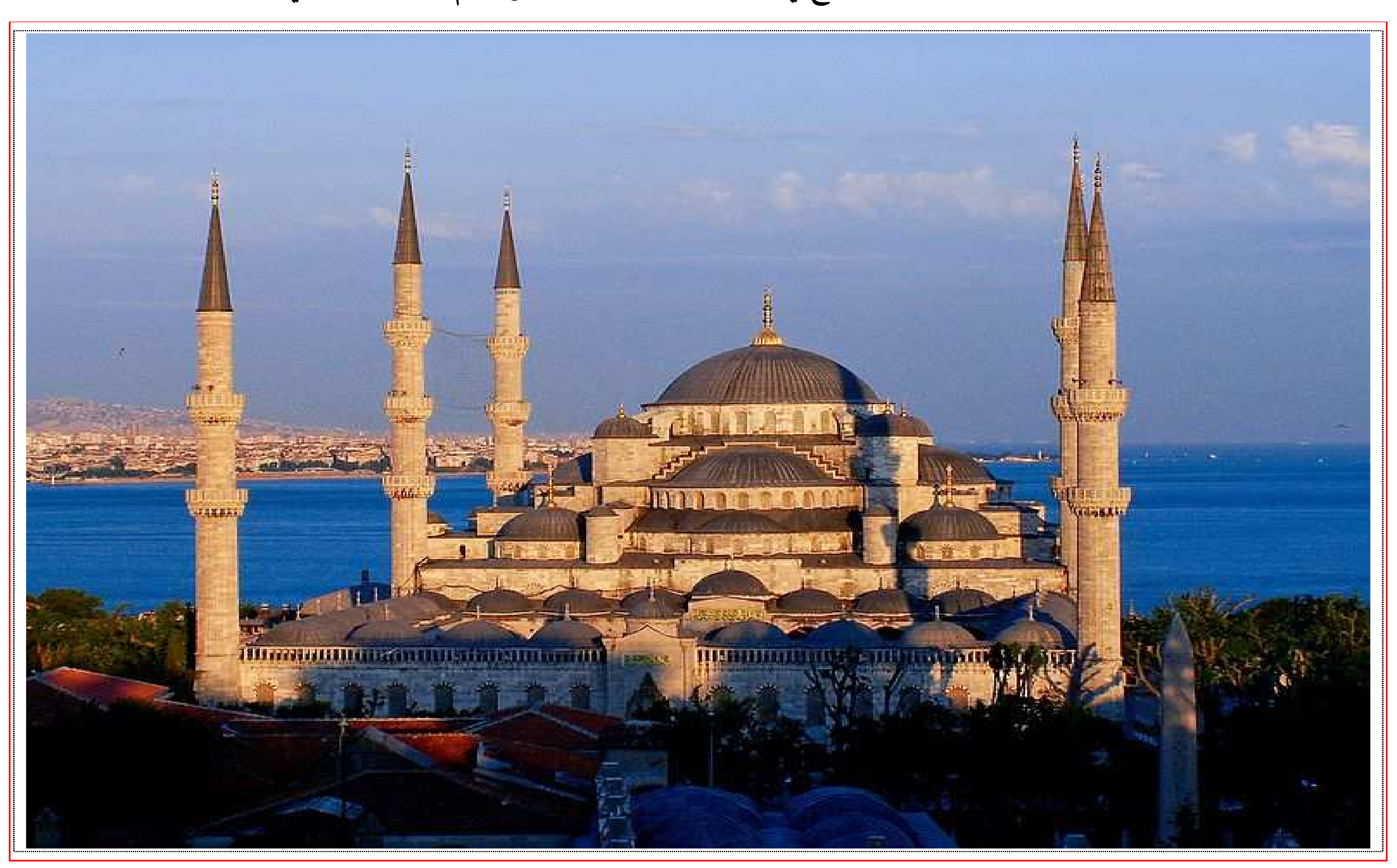


en.wikipedia.org/wiki & marefa.org/index.php/

السلطان سليمان القانوني - طغراء السلطان عبد الحميد الثاني - طغراء السلطان محمود الثاني - طغراء السلطان سليم الثالث

انظر صفحة ١٣٦

مسجد السلطان أحمد، أو المسجد الأزرق ويقع في ميدان السلطان أحمد، وهو من المعالم الدينية والأثرية في مدينة اسطنبول





«آيا صوفيا» الكنيسة الشهيرة التي اتخذها السلطان محمد الفاتح مسجداً حين افتتح القسطنطينية، أصبحت اليوم متحفاً ومعلماً أثرياً في المدينة

ar.wikipedia.org/wiki/

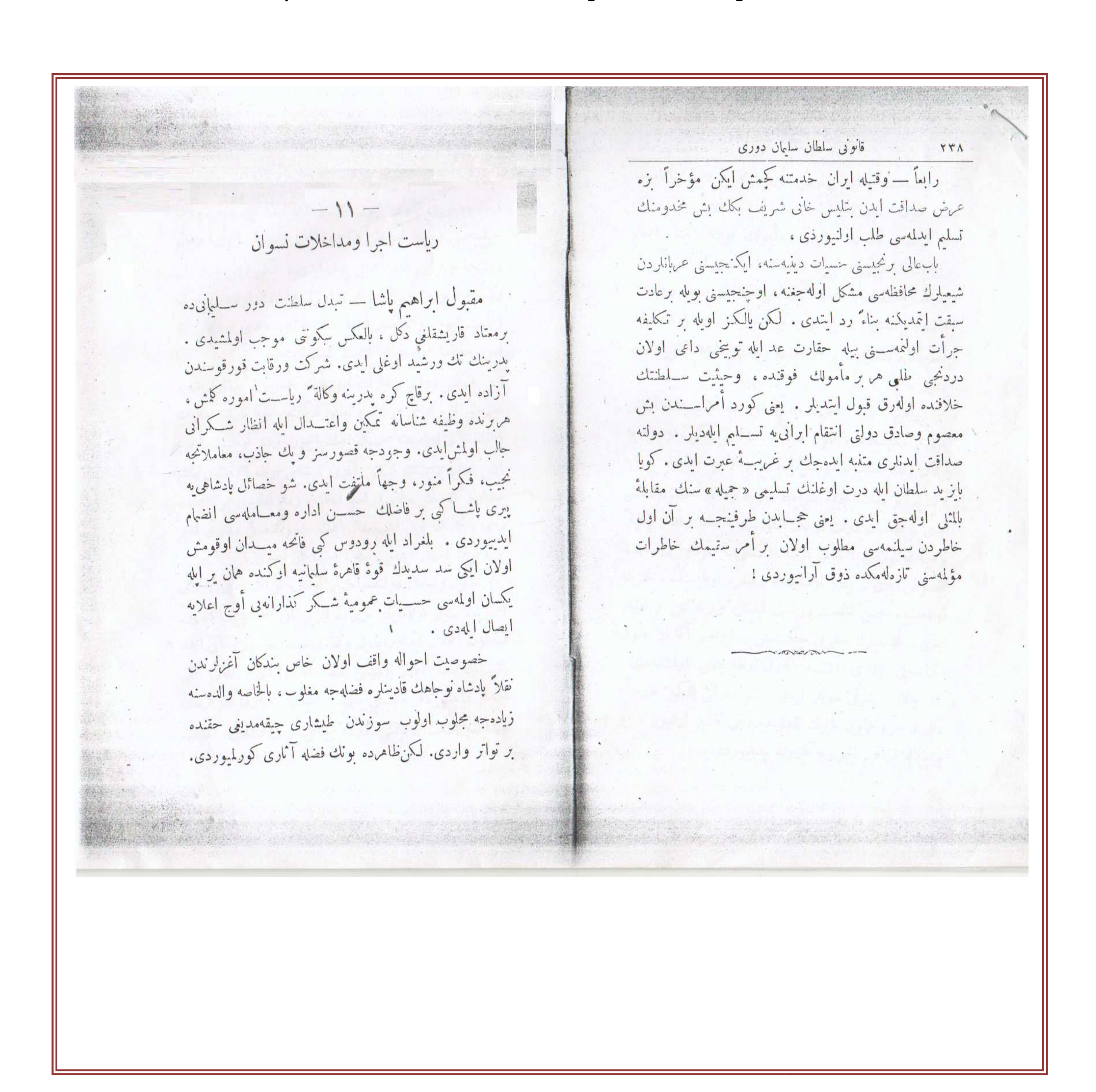
قصـــر الحكم الجديد – دولمة بهجـــة

أقيم على الضفة الأوروبية من البوسفور في اسطنبول، وكان مقر إقامة السلطان العثماني من عام ١٢٦٩ هـ في عهد السلطان عبد المجيد الأول

ar.wikipedia.org/wiki

الملحق الخامس:

نماذج من المراجع والمصادر العثمانية والأجنبية



رابعاً — وقتیله ایران خدمتنه کچمش ایکن مؤخراً بزه عرض صداقت ایدن بتلیس خانی شریف بکك بش مخدومنك تسلیم ایدلمه‌سی طلب اولنیوردی ،

باب‌عالی برنجیسنی حسیات دینیه‌سنه، ایکنجیسنی عربانلردن شیعیلرك محافظه‌سی مشکل اوله‌جغنه ، اوچنجیسنی بویله برعادت سبقت ایتمدیکنه بناءً رد ایتدی . لکن یالکز اویله بر تکلیفه جرأت اولنمه‌سنی بیله حقارت عد ایله توبیخی داعی اولان دردنجی مطلبی هر بر مأمولك فوقنده ، وحیثیت سلطنتك خلافنده اوله‌رق قبول ایتدیلر . یعنی کورد أمراسندن بش معصوم وصادق دولتی انتقام ایرانی‌یه تسلیم ایله‌دیلر . دولته صداقت ایدنلری متنبه ایده‌جك بر غریبهٔ عبرت ایدی . کویا بایزید سلطان ایله درت اوغلنك تسلیمی « جمیله » سنك مقابلهٔ بالمثلی اوله‌جق ایدی . یعنی حجابدن طرفینجه بر آن اول خاطردن سیلنمه‌سی مطلوب اولان بر أمر ستیمك خاطرات مؤلمه‌سنی تازه‌له‌مکده ذوق آرانیوردی !

— ١١ —

ریاست اجرا ومداخلات نسوان

مقبول ابراهیم پاشا — تبدل سلطنت دور سلیمانی‌ده برمعتاد قاریشقلغی دکل ، بالعکس سکونتی موجب اولمشیدی . پدرینك تك ورشید اوغلی ایدی. شرکت ورقابت قورقوسندن آزاده ایدی. برقاچ کره پدرینه وکالةً ریاست[1] اموره کلمش ، هربرنده وظیفه شناسانه تمکین واعتدال ایله انظار شکرانی جالب اولمش‌ایدی. وجودجه قصورسز وپك جاذب، معاملاتجه نجیب، فکراً منور، وجهاً ملتفت ایدی. شو خصائل پادشاهی‌یه پیری پاشا کبی بر فاضلك حسن اداره ومعامله‌سی انضمام ایدییوردی . بلغراد ایله رودوس کبی فاتحه میدان اوقومش اولان ایکی سد سدیدك قوهٔ قاهرهٔ سلیمانیه اوکنده همان یر ایله یکسان اولمه‌سی حسیات عمومیهٔ شکر گذارانه‌یی أوج اعلایه ایصال ایله‌دی . ١

خصوصیت احواله واقف اولان خاص بندکان آغزلرندن نقلاً پادشاه نوجاهك قادینلره فضله‌جه مغلوب ، بالخاصه والده‌سنه زیاده‌جه مجلوب اولوب سوزندن طیشاری چیقه‌مدیغی حقنده بر تواتر واردی. لکن ظاهرده بونك فضله آثاری کورلمیوردی.



10 Muhteşem Padişah

Kanunî Sultan Süleyman

(1495-1566)

Cihangir Osmanlı padişahı Yavuz Sultan Selim ölmüştü. Sadrazam Pirî Mehmed Paşa, bu haberi gizli tutuyordu. Askerlerin bir taşkınlık yapmasından çekiniyordu. Hazineleri arabalara doldurup mühürledi. Yavuz'un cenazesini de bir arabaya yerleştirdi. Bunları İstanbul'a götürme görevini ikinci vezir Mustafa Paşa ile üçüncü vezir Ferhad Paşa'ya verdi. Silâhdar Kâhyası Süleyman Ağayı yanına çağırdı:

"Bak ağa, sana mühim bir vazife düşüyor. Şu mektubu al. Kuş gibi uçup Manisa'ya git. Manisa Valisi Şehzade Süleyman Efendimize ver. Baş sağlığı dile. Hemen atlanıp İstanbul'a gitsin. Tahtı fazla boş komaya gelmez."

Süleyman Ağa, şehzadenin vali bulunduğu Manisa'ya gitti. Durumu anlattı. Göz yaşlarını tutamayan Şehzade, "Kader" diye mırıldandı. "Sekiz seneye seksen seneyi sığdıran pederimiz vefat etti demek. Ruhu şâd olsun."

Yanına adamlarını alarak dokuz günde İstanbul'a geldi. Tahta çıktı (30 Eylül 1520, Pazar). Aynı günün öğle sonrası Pirî Mehmed Paşa da İstanbul'a gelmişti. Sultan I. Süleyman, babasının cenazesini şehir dışında karşıladı. Cenaze arabasının arkasında yaya yürüdü. Ağlamamak için dudaklarını ısırıyor, sıradan bir evlât gibi teselli arıyordu. Arada bir de cenaze arabasına bakıp iç çekiyordu:

"Babasız kaldıktan sonra, padişahlık ne ki!" diyordu.

Henüz yirmi altı yaşında bir gençti. Padişahlık için yaşı küçük sayılırdı. Fakat maksadı büyüktü. Babasının açtığı fetih yollarından yürüyecekti. Doğu hemen hemen tamamıyla fethedilmişti. Şimdi sıra batıya gelmişti. Vakit kaybetmeden batıya yönelecekti. Zaten tecrübeli sadrazam Pirî Mehmed Paşa da, genç padişaha bunu söylüyordu:

"Hünkârım, Avrupa'nın kapısı Belgrad, Akdeniz'in kilidi Rodos'tur. Bu kapıyı kırar, kilidi açarsak bütün Avrupa ayaklarımızın altına serilir."

"Haklısın Paşa, haklısın baba yadigârım."

Belgrad seferi için hazırlıklar başladı.

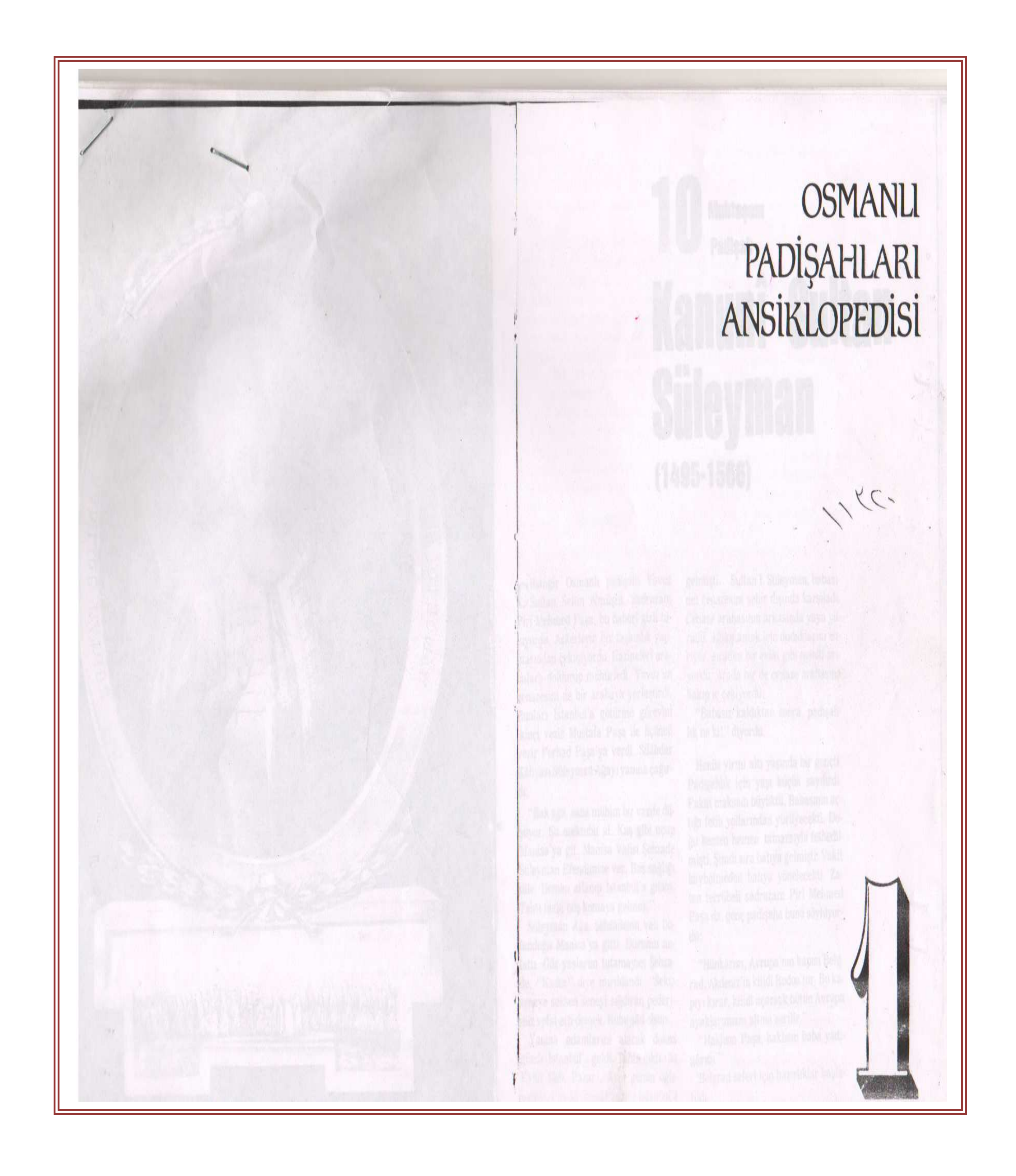
Üsküdar'da Bir Saraylı: Gülfem Hatun ve Vakıfları

DOÇ. DR. TAHSİN ÖZCAN
İstanbul Üniversitesi

Osmanlı toplumunda en yaygın geleneklerden biri de serveti hizmete dönüştüren vakıf kurumudur. Toplumun her kesimi kendi çapında vakıf kurumunun geliştirilmesine ve yaşatılmasına katkıda bulunmuş, farklı alanlarda ihtiyaç duyulan hizmetlere yönelik sayıları binlerle ifade edilen vakıflar kurulmuştur. Vakıflar vasıtasıyla Osmanlı toplumunda eğitimden sağlığa, imar faaliyetlerinden hayır hizmetlerine, dinî ve kültürel hizmetlere kadar oldukça geniş bir yelpazede toplumun ihtiyaç duyduğu hizmetlerin altyapısı oluşturulmuş ve finansman ihtiyacı karşılanmıştır.

Vakıfların kurulmasında halkın yanında devlet ricali ile saraya mensup kişilerin de önemli katkılarının olduğu görülmektedir. Darüssaade Ağaları, Babüssaade Ağaları gibi saray görevlilerinin yanında bizzat padişahların ve saraylı kadınların kurdukları vakıflar son derece önemlidir.

Üsküdar'ın gelişmesinde ve altyapısının oluşmasında da vakıfların önemli bir katkısının olduğu aşikardır. Özellikle XVI. yüzyılın ortalarında önemli bir imar faaliyetine sahne olan Üsküdar'da pek çok vakıf eserin de inşa edildiğini görüyoruz. Bu dönemde Üsküdar özellikle saraylı hanımların büyük ilgisine mazhar olmuştur. Başta sahilde, iskele civarında yer alan ve Mihrimah Sultan tarafından yaptırılan cami ve müştemilatı, Valide Sultan Camii ile Nurbânû Vâlide Sultan'ın yaptırdığı Atik Valide Sultan Külliyesi gibi vakıf eserler Üsküdar bölgesinde bugün de varlıklarını ve fonksiyonlarını sürdüren önemli birer hizmet merkezi olmuşlardır. Bunların yanında, yine Üsküdar'ın merkezinde yer alan ve günümüzde de işlevini sürdüren Gülfem Hatun Camii de saraylı bir hanım tarafından yaptırılmıştır. Bu tebliğde Üsküdar'da yer alan ve bulunduğu mahalleye de adını veren Gülfem Hatun Camii'ni yaptıran ve son derece ilginç bir hayat hikayesi olan Gülfem Hatun tanıtılmakta ve kurduğu vakıflar ile yaptırdığı hayrâtı hakkında bilgi verilmektedir.


OSMANLI
PADİŞAHLARI
ANSİKLOPEDİSİ
10 Muhteşem Padişah
Kanuni Sultan Süleyman
(1495-1566)
1

HISTOIRE

DE

L'EMPIRE OTTOMAN,

DEPUIS SON ORIGINE JUSQU'A NOS JOURS,

PAR M. DE HAMMER.

TRADUITE DE L'ALLEMAND SUR LA DEUXIÈME ÉDITION,

PAR M. DOCHEZ.

TOME PREMIER.

PARIS.

cret les dispositions nécessaires, il épia le moment où Ahmed devait descendre du château dans la ville pour se rendre au bain. Au cri de : Dieu donne la victoire au sultan ! le bain fut assailli tout à coup. Ahmed, la barbe à moitié coupée, se sauva par le toit, s'élança sur son cheval, et regagna le château; il fut suivi de près par des soldats de Mohammed rassemblés à la hâte, qui parvinrent à pénétrer dans le château ; mais là encore le palais fortifié offrait un abri au traître, qui pouvait gagner du temps. Alors Mohammed fait proclamer que le trésor du palais sera la proie des vainqueurs, et à l'instant des nuées d'Arabes avides de butin accourent en armes et forcent l'enceinte. Au milieu du tumulte et du désordre entraîné par le pillage, le rebelle s'échappe inaperçu avec une vingtaine de ses plus dévoués serviteurs, et va joindre les Arabes de la tribu de Beni-Bakar, établie dans le pays de Scherkije (2). Mohammed lança à sa poursuite trois mille cavaliers commandés par le tscherkesse Dschanim-Hamrawi ; celui-ci n'ayant pu l'atteindre, Mohammed marcha lui-même, avec trente mille hommes bien armés, vers Mahallet, où le scheich arabe Charisch amena le traître chargé de fers au vainqueur : la tête d'Ahmed fut envoyée à la Porte. Le troisième vesir Ajas-Pascha, qui était parti de Constantinople, et suivait la route de terre avec trente mille janitschares pour aller étouffer la rébellion, reçut ordre de revenir, et Kasim-Pascha, ancien gouverneur d'Egypte, dut aller de nouveau prendre la direction de ce pays. Les services de Mohammed-Pascha furent récompensés par de nouveaux fiefs, et par la place d'intendant supérieur de l'Egypte.

A Constantinople, Suleiman célébra les noces du grand vesir Ibrahim, par des fêtes dont il n'y avait point encore eu d'exemples [22 mai 1524]. Dans l'hyppodrome, fut dressée une tente, élevé un trône pour le sultan. Le second vesir Ajas-Pascha et l'aga des janistchares se rendirent au sérail pour inviter leur maître à la cérémonie. Suleiman les combla de présents, et vanta beaucoup le mérite d'Ibrahim. Durant sept jours furent traités les silihdares, les sipahis, les ulufedschis, les churebas, les dschebedschis, les topdschis; au huitième, ce fut le tour des janitschares et des vesirs, beglerbegs, begs. Dans ces festins, il déploya la plus grande magnificence. Le neuvième jour, comme on devait aller le lendemain chercher la fiancée au sérail, le sultan se rendit au palais d'Ibrahim entre deux murs de draps d'or et d'étoffes de soies suspendues aux fenêtres. Ayant fait asseoir, à sa droite, le mufti Ali-Deschemali, à sa gauche Schems-Efendi, précepteur des princes, qui devait être déposé plus tard à cause de son ignorance; par son ordre, des débats s'engagèrent en sa présence entre les professeurs des académies de Constantinople sur des points douteux de science et de littérature (1). Le grand écuyer tranchant fit mettre le couvert pour le grand vesir seul, puis pour tous les ulémas ; et le defterdar Mustapha-Tschelebi remplit les fonctions d'échanson, et présenta des sorbets au sultan dans une coupe faite d'une seule turquoise, gardée précieusement dans le trésor impérial, et qui doit venir de Nuschirewan. Les ulémas furent congédiés chargés de présents en sucreries et confitures. En regagnant le sérail, Suleiman reçut la joyeuse nouvelle de la naissance d'un fils (Selim), arrivé au monde pour l'anniversaire de la conquête de Constantinople, suivant la chronologie grecque [28 mai]. Deux jours après, le paranymphe mena la procession solennelle des *palmes des noces;* l'une de ces palmes était composée de soixante mille morceaux, les autres de quarante-six mille; elles offraient les représentations les plus admirables d'arbres, de fleurs, d'animaux rares ou fabuleux, comme le simurghanka. Au bout de six jours, Suleiman daigna se rendre au palais d'Ibrahim-Pascha, tout récemment construit dans l'hyppodrome, et qui subsiste encore; là il assista à des danses, des courses, au tir de l'arc, à d'autres divertissements encore, et voulut bien accueillir les épithalames composés par les poëtes, parmi lesquels les vers de Kaszide-Chiali furent jugés les plus dignes d'éloges.

Investi de la plus haute confiance, brillant de

(1) C'est à l'aide de la tribu de Bakar et des mameluks qu'Ahmed s'était rendu maître du Kaire. Le rapport vénitien de Candie sur cet événement se trouve dans Marini Sanuto, l. xxxv.

(1) Petschewi, fol. 31; Aali, fol. 226; ixe événement du règne Suleiman ; Ssolaksade, fol. 103.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر باللغة العثمانية

ثريا	محمد سجل عثماني، ياخود تذكرة مشاهير عثمانية مطبعة عامرة ١٣١١ هـ
شرف	عبد الرحمن تاريخ عثماني أنجمني مجموعه سي -ع ١ ١٣٢٦

ثانيا: المصادر والمراجع باللغة التركية «اللاتينية»

Ali Riza, Osmamli Saray Hayatinda Kadinlar,Tarih vedebiyatmecmuasi, subat 1981. Leyla Saz

Ayse Osmanoglu, Babam Sultan Abdulhamid, Selis Kitaplar, 2007.

Belgelerle Osmanli Tarihi, Cilill. Omes Faruk gilamaz 2. Baski, is tsanbul 1999.

Cagatay Ulucay, Padisahlarim Kadinlari Ve Kizlari, 1992

Devletler ve Hanedanlar Turkiye «1074 – 1990», Ciltz. Gilmaz Oztuna.

Vakiflar Yapan Kadinlar 2 , Mari 1971.

Islam Anskilopedisi, Turkiye Diyanet Vakfi. c.16. Istanbul, 1997

Islam, Etnografya ve Biyografya, lugati, C. 13. Istanbul.

Ismail Hakki Uzuncarsili. Osmanli Devletinin Saray Teskilati.

Martin Shaw Briggs, Baroque Architecture
T: Fisher Unwin, London 1913

M Cagaty Ulucay, Padsahlarin, Kadinian, ve Kizian, Ankara, 1980 .

Mehmet Zeki Pakalin, Osmanli Tarih, Milli Egitim Basimevi - Istanbul, 1983

Osmanli imparatorlugu ve modern turkiye, Istanbul, 1994,

Osmanli Pevletininsaray tesilati. Ismail Hakki vzuncarsi «I, Ankar, 1984 .s .116»

Oz Dokuman, Vakif Guraba Hastanesi .Hayat.Tarih Dergisi,Haziran 1970.

Ronk, XVI, XVII, Asiraa, Osmanlive, Ispaniakiralligi, Osmnli tarihi III.

Safiye Unuvar,Saray Hatiralarim, Basım Yeri : İstanbul

Sidat Kumbarci, Harem, Hakind Bilmediklerimiz, H. Tarih, Ocak 1972

Stanford shaw, Osmanli Impararorlogu Nemoder n Turkiye. Yayinlari Tarih Dizisi, Istanbul 1982

Turk Ansiklopedisi, cilid XXl, AnkArA, 1971

Turkiye Diyanet nakfi Islam Ansiklopedisi, cilt 18. Istanbul, 1998.

Turkiye tarihi, Osmanli Donemi «1 s66 – 1130». Dr. yasary Uce, Dr. Alisenim, Ankara. 1991.

Uzuncarsili, Saray, Teskilati, "Osmanli Tarihi" Ankara, 1988.

Yilmaz Oztuna , Buyuk Turkiye Tarihi, Istanbul 1978.

Yilmaz Oztuna, Devletler ve HaneDanlar, Tu «1074 – 1990» C.2, kultur bakanligi yayinilary

Ziyaerkins Istanbul, Ictima Hayatinda Gariyeler, Tarih dunyasi, sayi 28/29.

ثالثا: المصادر باللغات الأجنبية

Gibb, Hamilton and Bowen Harold, Op. Islamic Society and the West. Cit. Vol 1,(Oxford U. p. 1953)

J. von Hammer Purgstall, Histoire de l'Empire Ottoman, Depuis son Origine Jusqu'à nos jours, Traduit par M. Dochez, (PARIS, BETHUNE et PLON, 1844). (French)

Leslie P. PERCE, The Imperial Harem, Women and the Ottoman, Empire, New York - Oxford, Oxford University Press, 1993.

رابعا: المصادر والمراجع باللغة العربية

	مجمّع اللغـة العربيـة كتـــاب المعجم الوجيـــز وزارة التربية والتعليم، مصر: ١٩٩٤
إبراهيم	سيد قطب فى ظلال القرآن دار النشر : دار الشروق ـ القاهرة
ابن كثير	إسماعيل بن عمر البدايـة والنهايـة بتحقيق التركي ، طـ ١، دار هجر للطباعة والنشر، الجيزة، ١٤١٧هـ
ابن منظـور	جمال الدين محمد لسان العرب دار صادر، بيروت، ط٣، عام ١٩٩٤م.
أبو عـــزة	محمد عصر السلطان عبد الحميد، دمشق ، المنارة: ١٩٩٧-١٤١٧ هـ

الأتابكي	يوسف بن تغري بردي الحنفي مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة دار الكتب المصريـة - القاهـرة
أركن	عثمان تاريخ التربية التركية دار القلم، دمشق، ١٩٩٠م.
الأزهـــري	محمد بن أحمد تهذيب اللغة دار إحياء التراث العربي، بيروت: ٢٠٠١م، طـ ١، محمد عوض مرعب
اسويلم	علي، وبشار بوجل تاريخ تركيا، العصر العثماني أنقرة: ١٩٩١
الألباني	محمد ناصر الدين إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل المكتب الإسلامي – بيروت، ط ٢، ١٤٠٥ هـ
الأنبـــاري	محمد بن القاسم الزاهر في معاني كلمات الناس مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٢ هـ ، طـ١ ، حاتم الضامن
أوزتـــونـــا	يلماز كتاب الدولة والأسرة الحاكمة تركيا
أوزتـــونـــا	يلماز تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود، محمود الأنصاري، منشورات مؤسسة فيصل ـ اسطنبول ١٤٠٨ هـ
أوزتونـا	يلماز المدخل إلى التاريخ العثماني ترجمة أرشد الهرمزي، الدار العربية للموسوعات بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ.

أوغلــــو	عبد القادر ده ده السلاطين العثمانيون تعريب محمد خان، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس ١٩٩٨/ ١٩٩٩
أوغلـــــــو	أكمل الدين إحسان: إشراف وتقديم الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة ترجمة صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باسطنبول، اسطنبول ١٩٩٩
إيفانوف	نيقولاي الفتح العثماني ترجمة يوسف عطا الله، دار الفاربى، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م.
إينــاالجيك	خـليـــل تاريخ الدولة العثمانية. ترجمة محمد الأرناؤوط، صـ ٩٣. دار المدار ، طرابلس ليبيا، ط١.
البخــــاري	محمد بن إسماعيل الجامع المسند الصحيح المحقق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
بـــــــدران	جـمال الجواري والحظايا دار الكتب الحديثة ط١ ـ القاهرة - ١٩٩٣ م
بروكلمان	كارل الأتراك العثمانيون وحضارتهم ترجمة بثينة فارس، طـ ٢، دار العلم للملايين، بيروت ١٣٧٥ هـ.
البغـــوي	الحسين بن مسعود معـــالم التنزيـــــل تحقيق: النمر، ضميرية، الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، طـ٤: ١٤١٧ هـ.

بــك	محمد فريد تاريخ الدولة العلية العثمانية تحقيق: إحسان حقي، الناشر: دار النفائس، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٠١ - ١٩٨١
بيتروسيان	إيرينا الانكشاريون في الامبراطورية العثمانية مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث دبي - ٢٠٠٦/١٤٢٧ - الطبعة الأولى
بيهــــم	محمد جميل فلسفة التاريخ العثماني، أسباب انحطاط الامبراطورية العثمانية، دار صادر للطباعة للنشر، طـ ١ ، ١٣٧٣.
الجداوي	مصطفى الرقّ في التاريخ والإسلام الشركة المصرية السعودية المتحدة، الأسكندرية، ١٩٦٣
الجـوهـري	إسماعيل بن حماد الصحــاح في اللغة دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٩٩ هـ الطبعة الثانية، تحقيق أحمد عطار
حــــرب	محمد الدولة العثمانية موسوعة سفير في التاريخ الإسلامي مجلد ٩، القاهرة عام ١٩٩٦م.
حــــرب	محمد مذكرات السلطان عبد الحميد. ترجمة وتقديم وتحقيق، دار الأنصار القاهرة: ١٩٧٨
حــــرب	محمد العثمانيون في التاريخ والحضارة المركز المصري للدراسات العثمانية - القاهرة: ١٤١٤

حـــــلاق	حسان على موقف الدولة العثمانية ط ٢، دار الهدى بيروت ١٩٩٠م
حليـــــــــم	إبراهيم بك تاريخ الدولة العثمانية العلية مؤسسة المختار، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ
حـمدان	محمد التكايا والأربطة والطرق الصوفية في تركيا دار الموسوعات العربية، بيروت، عام ٢٠٠٩م
الحنفي	محمد أحمد بن إياس بدائع الزهور في وقائع الدهور ط ٢، القاهرة، ١٩٨٢ م.
دروزة	محمد عزة تركيا الحديثة مطبعة الكشاف، بيروت، عام ١٩٤٦م
سابـــــــق	السيد فقـــه السنـــة الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان الطبعة: الثالثة، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م
سامـــــي	شمس الدين قاموس تركي
السيـــد	سيد محمد دراسات في التاريخ العثماني دار الصحوة للنشر - القاهرة ١٤١٦
شلـــبي	أحـمد الأقليات العرقية في مصر في القرن التاسع عشر القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٣.

الشنــاوي	عبد العزيز محمد الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها طـ ١، مطبعة القاهرة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٨٠م
الشنــاوي	عبد العزيز محمد أوروبا مطلع العصور الحديثة الطبعة الأولى
شومــان	محمد اليهود في مصر منذ الفتح العثماني حتى القرن التاسع عشر الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧
صــابـان	سهيـــل المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤٢١هـ
الصافـور	مجدي عبد المجيد سقوط الدولة العثمانية دار الصحوة، القاهرة ١٩٩١
الصلابى	علي محمد الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط دار التوزيع والنشر، ط ١ ، ١٤٢١ هـ
طاشْكُبْري زادهْ	أحمد بن مصطفى بن خليل الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية دار الكتاب العربي – بيروت
الطبــــــري	محمد بن جرير جامع البيــان مؤسسة الرسالـة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ
عبد القـــادر	محمد الخير نكبة الأمة بسقوط الدولة العثمانية مكتبة وهبة – القاهرة ١٩٩٣.

عبد الهـادي	جـمال، وآخرون أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ الوفاء للطباعة، المنصورة، عام ١٩٩٤م
العثيمـــين	محمد بن صالح بن محمد الشرح الممتع على زاد المستقنع دار ابن الجوزي، الطبعة : الأولى، ١٤٢٢ – ١٤٢٨.
العطـــــار	عدنـــــان الدولة العثمانية من الميلاد إلى السقوط دمشق، دار وحي القلم، طـ ١، ١٤٢٧
عـفيـفـي	محمد الأوقاف والحياة الاقتصادية في العصر العثماني ١٩٩١ م.
الغازي	أماني بنت جعفر دور الانكشارية في ضعف الدولة العثمانية دار القاهرة، طـ ١، القاهرة.
القـــالي	إسماعيل بن القاسم الأمالي في لغة العرب الناشر دار الكتب العلمية، بيروت سنة النشر ١٣٩٨هـ
القطوري	الصفصافي أحمد الوثائق العثمانية، دراسة حول الشكل والمضمون، طـ ١، ١٤٢٥،
كنـــــدز	أحـمد آق، وسعيد أوزنورك الدولـة العثمانيـة المجهولـة وقف البحوث العثمانية، اسطنبول: ٢٠٠٨.
كـوبـريلـي	محمد فؤاد قيام الدولة العثمانية ترجمة أحمد السعيد سليمان، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٩٣

متولي	أحمد مزاد تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها وحتى نهاية العصر الذهبي إيترال للنشر والتوزيع، القاهرة
محمود	سيد محمد السيد انهيار الدولة العثمانيةـ الأسباب الناشر مكتبة الآثار القاهرة
مخلوف	ماجدة الخلافة في خطاب أتاتورك مركز أبحاث آسيا، الزقازيق، مصر
مخلوف	ماجدة الحريم في القصر العثماني ط ١، دار الآفاق، القاهرة، ١٤١٨ هـ.
مصطفى	أحمد عبد الرحيم في أصول التاريخ العثماني دار الشروق، ط ٢، ١٤٠٦ هـ
نزهت	سليم تاريخ الطباعة في تركيا ترجمة سهيل صابان، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، عام ١٩٩٣م.
النيسابوري	مسلم بن الحجاج المسند الصحيح المختصر تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت
ياغي	إسماعيل أحمد الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث الرياض، مكتبة العبيكان، ١٩٩٨.
يلماز	عمر فاروق كتاب السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق، ترجمة طارق عبد الجليل السيد، دار نشر عثمانلي - اسطنبول

ثانيا: الدوريـــات

اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة	**الثقفـــــي، يوسف بن علي بن رابع** لمعان الضوء في دياجير الظلام دراسة لعهد الصدر الأعظم محمد كوبريلي، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي، العدد الأول، مارس ٩٣
دارة الملك عبد العزيز	الوثائق العثمانية في الأرشيفيات العربية والتركية بحوث ندوة الأرشيف العثماني المنعقدة في الرياض ٠٩-١٢ صفر ١٤٢٢. دارة الملك عبد العزيز - ١٤٢٥، صـ ٤٥.
موسوعة النساء والثقافات الإسلامية	**ثريا فاروقي، ترجمة: عايدة سيف الدولة** مداخلة بعنوان: النساء في العالم العثماني من منتصف القرن الثامن عشر إلى أوائل القرن العشرين، المجلد الأول: المنهجيات والمنظومات والمصادر لدراسة النساء والثقافات الإسلامية ، الناشر: دار بريل، ليدن، بوسطن، ٢٠٠٣ الترجمة بالتعاون مع مؤسسة المرأة والذاكرة، القاهرة، ٢٠٠٦.



الفهـــــــــــــرس

